

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الثاني والتسعين

١ ربيع اول سنة ١٣٥٧

١ مايو سنة ١٩٣٨

بعد عهدي بعلم الفلك^(١)

للدكتور فارس نمر باشا

كنا سنة ١٨٧٤ ، نحسب بعد الشمس عن الارض ٩٥ مليون ميل ، على اعتبار ان زاوية اختلافها الاقي الاستوائي ٨،٥٧٧٦ ، كما حسب الفلكيون من عبور الزهرة على وجه الشمس سنة ١٧٦٩ ، ولكننا كنا نسمع أن بعض الذين جاؤوا بعدهم من الفلكيين ، قاسوا زاوية اختلاف الشمس الاقي من النظر في اضطرابات حركات القمر ، ومن رصد المريخ . وكان متوسط قياسهم لها أيضاً ٨،٩٤ أي أكثر من ذلك بأقل من ٣ أعشار الثانية من القوس . وذلك يجعل بعد الشمس عن الارض ٩١٤٣٠.٠٠٠ ميل فقط . وكان الجميع ينتظرون ان يتوصلوا الى حساب أدق من ذلك حين عبور الزهرة على وجه الشمس ، في ديسمبر ١٨٧٤ ، فلما حان الزمن كنت في بدء عهدي بعلم الفلك ، وقد ناهزت العشرين من العمر ، فبت أترقب ذلك بشوق عظيم ، كأني سأبلغ به غاية المقصود . ولكننا لما أصبحنا في ذلك اليوم ، كانت السماء مطبقة بالغيوم ، فغابت مني الآمال ، واشتدت بي الغيوم ، وهرعت الى المرصد لاستقبال مديره ، أستاذي المرحوم الدكتور « كرنيليوس فان ديك » ، فوجدته مثلي كاسف البال ، ولكنه مع ذلك يعمل النفس بالآمال ، خلافاً لما كنت أنا عليه . فجعلنا كل لحظة نخرج من المرصد ونرقب وجه

(١) نص محاضرة الرآسة في الجمع المصري للثقافة العلمية بدورته السابعة

السما فلا نجد إلاَّ سحاباً يتلو سحاباً ، حتى اذا اقترب ميعاد العبور ، رأيت السماء قد صحت والغيوم انقشعت عن وجه الشمس ، فظهرت ساطعة في القبة الزرقاء . فأسرعنا الى المنظار والساعات المعدة لتقييد زمن العبور ، ووقف أستاذي يرصد الزهرة ، وأنا وابنته نقيد وقت مماسستها لقرص الشمس ، وعبورها عليه بالساعات والدقائق والثواني ايضاً ، واتهينا من ذلك على ما يرام ، وقضيت بقية يومي وأنا أتبه تارة عجباً وأظفر طوراً سروراً بما تم . وفعل غيرنا مثل ما فعلنا في مراريد عديدة متفرقة على وجه الكرة ، ولما حسبوا حسابهم وجدوا انهم غير متفقين في زاوية اختلاف الشمس الافقي ، وان اختلافهم لا يزال يدور على كسر من الثانية من القوس ، بسبب الصعوبة في رؤية مماسة قرص الزهرة لحرف قرص الشمس بتمام الضبط والدقة ، ذلك لان الكسر الذي يساوي نحو ثلث الثانية من الزاوية ، لا يزيد عن غلظ شعرة من شعر الانسان إذا نظر اليها عن بعد ١٢٥ قدماً (أو أربعين متراً) ومع كل هذا الصغر وهذه الدقة في الزاوية ، فلها تجعل مقدار الفرق في بعد الشمس عنا نحو ٣ ملايين من الاميال . فبقينا حيث كنا . ثم عبرت الزهرة ثانية على وجه الشمس في ٦ ديسمبر ١٨٨٢ ، فقلنا في المقتطف عقب ذلك ما نصه :

« ولكن أبى الطقس الذي قضينا زهرة العمر في رصد تقلباته ومراقبة أحواله ، إلاَّ ان يحرمنا مرآها ، فسدل على وجه السماء برقع السحاب صفيقاً ملبداً لا تذيبه حرارة الشمس ، ولا تنفذ اشعة نورها . فاثبتنا عن المنظار آسفين ، وودعنا الزهرة وراصديها ، طلين أنا لن نرى عبورها ، لأنها لا تعود فتعبر قبل مئة وإحدى وعشرين سنة ونصف سنة ، بعد أن ينفضي العمر ، وتمسي عظامنا ربما »

وما زال الفلكيون بعد ذلك يقيسون زاوية الاختلاف هذه بطرق مختلفة ، كإنحراف النور ، ورصد احدى النجوم حين اقترابها من الارض ، حتى علمت من مطالعائي ان مؤتمراً باريس الذي عقد سنة ١٩١١ ، اعتمد على حساب بعد الشمس عن الارض ٩٢ر٨٧٠٠٠ ميل . ولكن المنفق عليه الآن ان زاوية الاختلاف الاستوائي ٨ر٨ وهي تساوي ٩٢ر٨٩٧٠٠٠ ميل ، والفرق (٢٧ر٠٠٠) سبعة وعشرون الف ميل ، فلا نحاسبهم عليها

كان آخر عهدي بعلم الفلك ، أن النظام الشمسي مؤلف من الشمس وثماني سيارات فقط ، تدور حول الشمس عدا النجوم والمذنبات والنيازك والشهب . ولكنهم كشفوا بعد ذلك ، اي سنة ١٩٣٠ سياراتاً تاسعاً سموه « إفلو طون » وهو (إله الجحيم والنيران المستبطنة الارض عند قدماء اليونان) واقع وراء « نبتون » ويبعد عن الشمس أربعين ضعفاً من بعد الشمس عن الارض . وأذكر بمزيد السرور والفخر من مطالعائي لاخبار هذا السيار الاخير ، أنه كان

لخضرة اخينا الفاضل الدكتور محمد رضا مدور مدير المرصد المصري بحلوان ، واحد اعضاء مجتمعنا الموقر، مشاركة تذكر فتشكر في رصد هذا السيار بمنظار مرصد حلوان العاكس، وتصوير مواقعه لتتبع حركاته بين النجوم ، وتيسير حساب عناصره الفلكية على اهل الحساب

فارقنا مرصد بيروت سنة ١٨٨٤ ، وكان المعلوم حينئذ ان المريخ ليس له اقمار تدور حوله كالزهرة وعطارد، ولكننا علمنا بعد ذلك ان الفلكي «آصاف هول» مدير مرصد «وشنجن» بالولايات المتحدة ، اكتشف له قرين صغيرين سنة ١٨٧٧ ، واكبرهما لا يزيد طول قطره عن ١٥ كيلو متراً ، والاخر نصف ذلك القدر

وكان المعلوم ان للمشتري اربعة اقمار فقط ، اول من اكتشفها «غليلى» بمنظاره سنة ١٦١٠ . ولكنهم اكتشفوا له خمسة اقمار اخرى بين سنتي ١٨٩٢ و ١٩١٤ فأصبح عدد اقماره تسعة ، وهذه الاقمار تدور حوله في جهة دورانه على محوره ، الا الثامن والتاسع ، فانهما يدوران حوله في خلاف جهة دورانه ، اي على خلاف التوالي

وكان المعلوم ايضاً ان لزحل ثمانية اقمار فقط ، فاكشف له الفلكي «بكنج» قرأ تاسعاً سنة ١٨٩٩ . وهذا القمر التاسع يدور حول زحل في جهة مخالفة لجهة دوران زحل على محوره ، ولجهة دوران الاقمار الثمانية حول زحل

أما «أورانوس ونبتون» ، فلم يكتشف لهما اقمار اخرى غير الاربعة التي كانت معلومة «لاورانوس» ، والقمر الواحد الذي كان معلوماً «لنبتون»

وكان طول يوم السيار «أورانوس» ، اي مدة دورانه على محوره ، غير معلوم . ولكن في سنة ١٩١٢ وجد الفلكيان «پريشال لويل» و «سليف» ، من رصد طيفه (بالسبكترسكوب) الذي سماه الاستاذ فؤاد صرّوف محرر المقتطف^(١) وأجاد بالمطياف ، ان طول يومه ١٠ ساعات و ٤٥ دقيقة . ثم أيدها «مور» و «منزل» الفلكيان في مرصد «لاك» بالولايات المتحدة ، سنة ١٩٣١ وكذلك السيار نبتون كانت مدة دورانه على محوره غير معلومة ، ولا تزال غير معلومة تماماً حتى الآن . ولكن «مور» و «منزل» المذكورين آنفاً ، حسباً انها ١٥ ساعة . واستدل «مكسويل هول» من تغير إشراقه ، أن هذا التغير يتم في ٧ ساعات وخمسين دقيقة . فاذا حسبنا ان إشراقه يتغير مرتين في مدة دورانه على محوره ، كانت تلك المدة ١٥ ساعة . والاكترون الآن على ان مدة دورانه على محوره بين ١٥ و ٢٠ ساعة

(١) محرر المقتطف : — بمشاوره الاستاذ عبد الرحيم بن محمود

وكان عدد الكويكبات التي كنا نسميها نحيات Asteroids يزداد ازدياداً مطرداً في عهدنا فقد اكتشف « يازى » الايطالي ، اول كويكب منها في سنة ١٨٠١ ، واكتشف غيره بعده ثلاثة أخرى ، حتى بلغ عددها اربعة كويكبات سنة ١٨٠٧ ، وبعد ذلك لم يكتشف احد غير هذه الاربع مدة ٤٠ سنة ، وفي سنة ١٨٤٥ اكتشف احد هواة علم الفلك واسمه « هنكي » الكويكب الخامس . ومنذ ذلك الحين توالى اكتشاف الكويكبات الجديدة وخصوصاً بعد أخذ صورها بالتصوير الضوئي ، حتى تجاوز عددها ٢٢٠ كويكباً ونحن في بيروت . وتتبعنا اخبارها بعد ذلك الى أن بلغ عددها ١١٠٠ كويكب سنة ١٩٢٨ ، وأرجح الآن انهم اكتشفوا مئات اخرى غيرها ، ولكنهم لم يستوفوا رصدها ليحسبوا أفلاكها وهي لصغرها لا تكاد جاذبيتها تكون شيئاً مذكوراً ، حتى انه لو وقف لإنسان في احدها وقفز إلى علو ٥٠ ذراعاً من سطحها لما اعتراه من الأذى ما يعتريه لو انه قفز الى علو نصف ذراع وهو على سطح الارض وتذكر انه في سنة ١٩٠٠ اهتم علماء الفلك اهتماماً عظيماً بأمر كويكب من هذه الكويكبات يسمى « إروس » (Eros) لانه يدور حول الشمس في فلك اهليلجي يدينه كثيراً من الارض ، حتى تصير على بعد مليوني كيلو متر منه . ففي سنة ١٩٠٠ دنا منا حتى لم يبق بيننا وبينه سوى مليون كيلو متر ، فأنهز الفلكيون الفرصة في جهات مختلفة من الارض وتعاونوا على رصده حينئذ للوصول الى معرفة بعد الشمس عن الارض

والشيء بالشيء يذكر — فقد اذاع فلكي ايطالي (سكيابارلي) في سنة ١٨٧٧ ، انه رأى بمنظار مرصده خطوطاً مستقيمة على وجه « المريخ » . ثم عاد فأذاع سنة ١٨٨١ ان كثيراً من هذه الخطوط التي كانت مفردة ، صارت مزدوجة ، وسماها (Canale) أي رِعاءً أو قنياً ، فهاج خبره هذا خواطر الفلكيين في الاقطار ، وكثر اخذهم وعطاؤهم فيه . واتصلت اقوالهم بالصحب العمومية فأذاعوها في الاصقاع طولاً وعرضاً ، وبها عليها العلالي والقصور . فقال قوم ان المريخ مسكون بأناس مثلنا يحرثون ويزرعون وفيهم المهندسون الذين يهندسون الترع للري . وقال آخرون ان اهل المريخ حفروا الترع المزدوجة بعد الترع المفردة ، لكي يخاطبوا أهل الارض وينبهوهم الى وجودهم . وجعل البعض يقترحون عمل ترع مثلها على الارض ، أو اضرام نيران عظيمة على مسافات طويلة ، أو وضع علامات اخرى ظاهرة على سطح الارض ، لفهام اهل المريخ اننا فهمنا مرادهم من حفر ترعهم ، ونحو ذلك من القال والقال ، والكلام العريض الطويل

ولا ازال اذكر استاذي العظيم ، قدس الله روحه ، وهو يرصد سطح المريخ بالمنظار

العاكس في تلك الليالي ، وأنا واقف بجانبه ، ثم يقول لي تعال وانظر ، فأرى أحياناً خطاً أو خطوطاً مفردة أو مزدوجة ، ولا أكاد أقطع حتى الآن إن كانت خطوطاً على سطح المريخ أو سمادير في عيني من شدة التحديق . وكان أستاذي يطرق طويلاً وهو يفكر ، ثم يقول : زى أهذه من صنع الطبيعة ؟ وكيف يمكن أن تكون من صنع الاحياء ؟ وبعد ما يطلق كلانا الغنان للخيال حتى يطاول المريخ ويكتنفه ، ثم يعود ولا يأتي بطائل ، يتنهد أستاذي ويتحسر ويقول : آه ، ياليتني كنت قد ولدت بعد اليوم بخمسة سنة ، لكي أعلم ما يخبئه عنا الزمان الآن . فأقول في سري ولو ولدت بعد ألف عام لتحسرت كما تتحسر الآن ، لأن ما يبقى خفياً عنا حينئذٍ ، يكون أكثر من الخفي الآن

وبعد أن فارقت بيروت ومرصدها ، وطلعت علم الفلك بأعوام ، سافرت الى أوروبا سنة ١٨٩١ ، وأتيت « ميلانو » . وقصدت مرصد « بربرا » وقابلت مديره « إسكيا بارلي » وسألته في سياق الكلام عما جرى بترعه ؟ فضحك وقال : ان قوماً يتابعوني وآخرين يخالفوني . وهزأ كنفية كمن يقول ، دعنا منها الآن ، وسنحتكم الى الزمان

ثم علمت من مطالعائي ان هذه الخطوط لم تعد تظهر مدة ١٠ أعوام أو أكثر ، وبعد ذلك دأت فظهرت وراها الراصدون ورسموها في خرائط « المريخ » وصورها تصويراً ضوئياً أيضاً . ولا يزال الفلكيون مختلفين في أمرها ويقولون انها تختلف كثيراً في عرضها واتجاهها . وأن زيداً يراها على شكل ، وعمرأ على آخر ، بحسب المنظار الذي ينظر بها به

وهناك ظاهرة أخرى دامت أيام اشتغالي في مرصد بيروت مساعداً للدكتور « فان ديك » مديره ، ثم مديراً له بعده ، وهي البقعة الحمراء الكبيرة التي ظهرت على وجه المشتري سنة ١٨٧٨ ودامت حتى فارقت المرصد سنة ١٨٨٤ . وقد كان لظهورها سماع ورنين كثير بين الفلكيين ، والصحف التي تروي أخبارها . فقد كان شكلها في أول أمرها بيضياً ولونها أحمر داكناً ، وبلغ عرضها نحو ١٤ ألف كيلو متر (٨٧٠٠ ميل) وطولها نحو ٤٠٠٠٠ كيلو متر (٢٥٠٠٠ ألف ميل) وظهرت ظهوراً جلياً جداً على سطح المشتري ولقبها الافرنج بالبقعة الحمراء العظيمة ، واشتدت حمرتها بعد مضي الحول عليها ، ثم حال لونها على توالي الأعوام . وقد علمت من مطالعائي لاخبارها انها خفيت شيئاً فشيئاً ولم يبق منها الا أثرها منذ ٢٠ سنة الى الآن . ويظهر لي من قراءة ما قالوا في تعليلها ، ان حقيقة أمرها لم تزل مجهولة الآن كما كانت أيام رسدي لها منذ نيف وخمسين عاماً ولست أقصد في هذه المحاضرة استقراء كل ما جدّ اكتشافه في النظام الشمسي بعد عهدي بعلم الفلك . وانما اذكر اكتشافاً آخر وهو تغير عرض المكان من حين الى حين تبعاً لتغير المحور الذي تدور عليه الارض دورتها اليومية ، بسبب ترحز مواد في باطنها عن مواضعها

الى مواضع آخر ، بسبب تعري سطح القارات ، وتأثير اختلاف الفصول فيها . وقد خطر ذلك على بال « يولر » من اكابر علماء الرياضيات في القرن الثامن عشر ، وحسب حسابه ، وعين مقدار تأثيره . ولكن لم يستطع احد اثباته فعلاً بالرصد والملاحظة ، الا في سنة ١٨٨٨ حينما اثبت « كستنر وشندلر » — (Keistner & Chandler) ومن تبعهما من الفلكيين ، ان قطب الارض يتغير تغيراً ضئيلاً جداً في مدد معينة ، وبالتالي ان عرض المكان يتغير كذلك ولكن تغيره محدود وقليل جداً ، بحيث لا يؤثر في هواء المكان واقليمه على اختلاف فصوله وانتقل الآن من النظام الشمسي الى غيره

ابن فيما تقدم ان علماء الهيئة اكتشفوا في الخمسين السنة الماضية ، اقاراً واكتشافات اخرى مختلفة لم يكتشفها الذين سبقوهم . ولا خلاف في ان اكتشافهم لها كان بعضه بجهدهم واجتهادهم ولكن لا جدال ايضاً في أن معظم توفيقهم كان بزيادة الاتقان في صنع الآلات الفلكية ، واستعانهم بالتصوير الضوئي والحل الطيفي والآلات الاخرى التي بلغت الغاية في دقة الصنع ، وتقسيم الزوايا . فقد كانت آلات مرصد « بيروت » وأنا أديره ، وافية بأغراض المرصد وحاجاته ، ولكنها على ما أسمع ، كانت بالقياس الى آلاته الآن أو الى آلات مرصد حلوان ، كأثقال الحاكاة في الكرداسة بقرب الاهرام ، الى أنوال معامل الغزل لشركة مصر في المحلة الكبرى . ولا أزيد في المبالغة فأقول : كنسبة أسلحة الاحباش الى أسلحة الايطاليين الذين يقاتلونهم في وادي نهر « تمين » . ويطول بي الكلام جداً لو أردت الاسهاب في بيان تلك الآلات إجمالاً بل يعجز قلبي عن الشرح او الوصف لو شئت شرحها ووصفها تفصيلاً ، فأضرب صفحاً عن ذلك ، وأقول ان المنظار كان أعظم مميز لعلم الهيئة عند المحدين ، على ما كان عليه عند المتقدمين . ولا أدري ما الذي كان البشر يعلمونه عن الكواكب لولاه ، غير ما وصل اليهم من الاقدمين عن صورها وأسمائها وحركات بعضها وأزمان دورانها . فالفضل فيما اتصل اليه علمنا بعد ذلك ، معظمه للمنظار وتوابعه ، وللتصوير الضوئي^(١) (الفوتوغرافي) وللحل الطيفي . والمنظار إما كاسر للنور ، وإما عاكس له . ولعل « غليليو » كان أول من استعمل المنظار الكاسر الذي صنعه لنفسه في أوائل القرن السابع عشر في رصد الشمس والقمر والكواكب ، فاكتشف الكلف على وجه الشمس والحيال في القمر ، والاربعة الاقمار الاولى من أقمار المشتري ، وكان الفيلسوف « اسحق نيوتن » أول من استعمل منظاراً عاكساً لرؤية النجوم سنة ١٦٦٨ وكان قطر مرآة الشبح في

(١) محرر المقتطف : فضل المقتطف التصوير الضوئي على الشمسي لان هذا الضرب من التصوير لا يكون دائماً بضوء الشمس

منظاره لا يزيد عن بوصتين . ثم أخذ صناع الآلات البصرية والفلكيون يفتشون في الصنع ويتبارون في الاتقان . وامتاز الفلكي الانجليزي « وليم هرشل » بصنع عدة مرايا عاكسة ، الواحدة اكبر من الاخرى بين سنة ١٧٧٤ و ١٦٨٩ حتى أبلغ قطر مرآة الشبح أخيراً ٤ أقدام (٤٨ بوصة) واكتشف بها أقمار « أورانوس » وغيرها من أقمار « زحل » ، و ٢٥٠٠ سديم ونجوماً ثنائية أي مزدوجة حقيقية . وفي سنة ١٨٤٥ صنع اللورد « رُص » منظاره العاكس المشهور وقطر مرآة الشبح فيه ٦ أقدام (٧٢ بوصة) ورأى به السدم الحلزونية ولم يزلوا يتبارون في تكبير هذه المناظر العاكسة حتى اوصلوا مرآة الشبح فيها الى ١٠٠ بوصة في منظار « هوكر » سنة ١٩١٩ وهو المركب في مرصد جبل « ولسن » بولاية « كاليفورنيا » في الولايات المتحدة الاميركية ، وهو الآن اكبر منظار ، ووزن مرآة الشبح فيه ٤ اطنان ، وقد شرعوا في صنع مرآة أكبر من هذه قطرها ٢٠٠ بوصة ، وينتظر ان يتم صنعها وتركيبها سنة ١٩٤٠

وكما تسابقوا في صنع العاكسات وتكبيرها ، تسابقوا ايضاً في صنع الكاميرات وتكبيرها ، حتى أبلغوا قطر بلورة أكبرها ٤٠ بوصة في المنظار المركب في مرصد « بيركس »

ويخيل اليّ أنه بعد هذا الاتقان والتكبير في المناظر ، وفي بعض الوسائط التي استنبطوها ليستعينوا بها على رصد ما لا يستطيعون رصده بالمناظر وحدها ، كتنصوير النجوم بالتصوير الضوئي وحل ضوئها الى الالوان المختلفة التي يتركب الضوء منها لمعرفة المواد التي تتركب منها ولاكتشاف حركاتها ، وقسمة الزوايا الى اقسام في منتهى الصغر والدقة ، وغير ذلك من الآلات البصرية والهندسية التي تشاهد الآن في المراصد المستكملة وسائط الرصد — أقول إنه يخيل اليّ بعد ذلك كله انهم يحولون عنايتهم الآن بصفة خاصة الى مجموعات النجوم والكواكب الخارجة عن النظام الشمسي ، ويتقدمون في ذلك بخطى أوسع كثيراً مما كانوا يتقدمون بها في عهدي . فقد كانوا يقيسون بعد النجوم بمقياس زاويتها الاختلافية ، متخذين فلك الارض حول الشمس قاعدة لذلك ، فعلموا بذلك الاختلاف السنوي لاثني عشر نجماً ، وانها تبعد عنا بعداً هائلاً ، تتخذ فيه سرعة النور مقياساً له

ثم اهتموا الى التصوير الضوئي لقياس زاوية اختلاف الثوابت ، فلم تأت سنة ١٩١٤ حتى كانوا قد علموا اختلاف ١٨٧٠ نجماً ، وحسبوا أبعادها عنا ، ثم وجدوا ان قياس زاوية الاختلاف بهذه الطريقة يحتمل خطأ $\frac{1}{100}$ من الثانية من القوس ، بزيادة أو نقصان ، و $\frac{1}{100}$ من الثانية يكاد لا يحده البصر ، ولكنه مع ذلك يؤثر في معرفة البعد المدق ، فعدل كثير منهم عن هذه الطريقة ، وجعلوا يعولون على المطياف (Spectroscope) لقياس زاوية الاختلاف ، فبنوا به ، اختلاف ١٦٥٠ نجماً بحسب مطالعاتي حتى الآن

[لها بقية]

الليل في صحراء مصر

للشاعر المستر (William Gray) وليام جراي
مهندس الاسلحة بالجيش البريطاني بمصر

بدا الهلال مختلاً في القبة الزرقاء . وكأنما خلعت عليه « إيزيس » من
جواهرها الفتان ! ها هو الفضاء بيننا ساجٍ وكأنه يحلم بنجوم لم تولد بعد !!

* * *

فوق صدر السماء الازلية يمضي الهلال في رحلته . لا يملّ المسير ! بيننا أنا ،
اضطجعت على الرمال مأخوذاً كمن قد سحر . أحلم بأُمون ...

* * *

ها هي ربّة الفناء ! كلما حركت أجراسها استيقظت بعض نسائم لا تلبث
أن تموت ! وهناك من أعماق وادي الموت يُسمع نداؤها ، الرهيب ! !

* * *

وإلاهة الشر بوجهها المتجهّم ! قد كفت عن الجولان
ورقدت مسرّبة في عارها لتستريح ! بينا تتجاوب في جوف
الصحراء صيحات ابن آوى المنبعث صداها من الغرب !!

* * *

والوادي الخصب ! تعلوه ابتسامات الكرى غارقاً في النوم على نغم هدهدة
حنون . وقد رقدت « إيزيس » على شاطئ النيل تملأ النهر بفيض دموعها ...

* * *

وحقّ عيون « أبي الهول » ، تلك العيون التي لا تمام ، يبدو عليها
قتور الوَسَن وهي تنو إلى السماء تنتظر الإله « راع » (١)
راكباً قاربه عائداً مع الشروق . من خلال ضباب الفجر ! !

* * *

... وهنا امتدت يد الكرى السحرية الى أجفاني فتلاشى كل
شيء وتركني على صدر الرمال يحنو عليّ الليل في صحراء مصر ! !

[نقلها : محمد مهدي]

(١) اسم الاله الشمس التي كان يعبدها قدماء المصريين

ابو العلاء المعري

وفلسفة التاريخ

بحث في أحد جوانب الفلسفة العلانية

لعلى أُرهم



ابو العلاء المعري شاعر كبير عرك الحياة وبلا الناس وترك في شعره ذخيرة لا يستهان بها لقراء القلب البشري ومفسري غرائب النفس الانسانية ، ولكن شعره الحاشد بالترم والسخط والغاص بالتشاؤم والتظير لا يسمو بك فوق متناقضات الحياة الى عالم الاتساق والانسجام ولا يرفعك الى الجوف الفني الهادئ حيث تنسى الاوطار واللبانات ولا تهفو بك احزان الحياة ولا تطرقك هموم العيش ، وهو حكيم مخلص يكشف لك عن اعماق علاقات الكون بالانسان ويجلو لك افانين الطباع ويرسل الضوء في غيابات النفس ولكن حكمته لا تهدي الضال الى الصراط المستقيم ولا ترفع المصباح لساري الليل وخابط العشواء ولا تؤامي من ساء الدهر وتكرله الحظ ولا ترد الى الامل من ازمع اليأس ولا تريد المقدامة الشجاع اقداماً وشجاعة بل قد توهن ارادته وتلم عزمته وتيسه من الصعود الى مصاف الابطال ومراتب العطاء

وابو العلاء هو هادم صروح اليقين وقاطع طريق الآمال البشرية، وهو يكن لها في الشعاب والمثاني لاغتيالها ولا يكتفي بتركها جريحة دامية بل يقصفها قصفاً منكراً ويجهز على حياتها، وتجول من شعره في صحراء مترامية يقصر عن مداها الطرف ومهما ضربت في نواحيها فلن تصادف شجيرة واحدة تستدري بظلمها، بل لا ترى فيها اثرًا للنبت والحشائش وتشاؤمه من الرسوخ والقوة بحيث يصح ان يكون مبرأ عن تشاؤم جيل برمته او سلالة من السلالات البشرية بأسرها ، ولئن كان المتنبي يمثل جانب القوة والطموح من النفس العربية والبحثري يصف الجانب المتماوج الطروب من حياتها فان المعري يعبر عن الجانب المتظير منها كما عبر شوبنهاور عن تشاؤم الامان وكما افصح ليوباردي عن تشاؤم اللاتين في القرن التاسع عشر ، وقد اعلن المعري على الحياة معركة لا مهادنة فيها ولا هوادة وتدرع لها بدرع موضونة من اليأس والزهد وجعل يقذفها بمحلات شعواء تستظل تتجاوب باصدائها الدهور وسيجد فيها كل مفكر مهما بلغ من رضاه عن الحياة درساً صالحاً وعبرة صادقة

فما هو سر تشاؤم الرجل ؟ وهل هو عدوى عصره ومرض جيله ؟ وهل يثس المعري لانه أبعد الامل وأغرق في حسن الظن بالحياة فأيقظه من رقاده نذير الشقاء وداعي الألم ؟ وهل حلم المعري حلم الكمال وصحا من نشوة الحلم ولا تزال صورته باقية في معالم ذاكرته ثم التقى بالواقع المشوه الجديب فكرهه واشاح بوجهه عنه ثم شرع بعد ذلك يثار لنفسه المخذوعة بمحاولة هتك اسرار الحياة وتعدد مساوئها ؟ وهل عاش المعري حسير لباناته وصريع امانيه وعلاياته ؟ وهل كان له طموح في الحياة وامل في الصولة والغلبة فلما سلبه الدهر بصره ونكبه في سلاح من اقوى الاسلحة مضاء في معركة الحياة أضمر في نفسه كراهة الحظ وتمرد على الاقدار ولعن الايام ؟

لست ارى رجاحة اي وجه من هذه الوجوه ، وليس في حياة ابي العلاء وما انتهى الينا من اخباره ما يدل على انه كان حالمًا بالكمال ولوعًا بالمثل الاعلى ، ولم ينجذع المعري عن حقيقة الحياة وقد أحس من أول امره فوضى الحياة وخداع الاقدار ومماطلة الحظوظ وظل طول عمره يجمع الحقائق ويعبئها وينظمها ويسلط عليها ملكته الفنية ليهاجم بها الآمال ويمزق شملها

واذا رجعنا الى عصر المعري لنستقرى علاقه به ولنعرف هل استمد المعري تطيره من احوال عصره المضطربة وتشبع به من جوه القاتم وجدنا المسألة غير مقنعة ولا شافية ، ولقد كان عصر المعري عصر شك والحلال والمحدار في مهابط التدهور ، ولكن تشاؤم المعري كان أبعد اعراقاً من ان نعزوه الى حالة عصره ، وعبقريه المعري بطبيعتها عبقرية حزينة وقد قوى عصره نزعة التطير في نفسه وشجذ يأسه وأكد حنقه على الايام وتصاريدها ولكنه لم يخلق هذه النزعة ، وقد لاحظنا ان اتول فرانس ان الفلاسفة المتطيرين قد يظهرون في اوقات ازدهار الحضارة وصفاء الجو ، والمسألة قبل كل شيء مسألة مزاج شخصي وطبيعة نفسية قد يزيد بها العصر قوة دون ان يوجدها وقد يضعفها ويحبس تيارها ولكن دون ان يقضي عليها ، واهم العوامل المسكونة لتطير المعري كامنه في نفسه ضاربة في صميم طباعه ومردها الى احساسه الفردي ومشاعره الشديدة اليقظة والتنبه ، وابوالعلاء بمزاجه من الارواح المستوحشة من زهرة الدنيا الناقمة على الوجود المؤثرة لظلمة العدم وصمت الفناء ، وهو يكره الحياة في الصميم والجوهر فضلاً عن الصور والاعراض ولا يشكو عصره ليمدح آخر وأما كل العصور عنده سواسية والناس جميعهم اشراخ خساس الطباع ليس لكسرهم جبر ولا لدائهم دواء يستطب به فلا سبيل للامل ولا معنى للحرص على النسل في مثل هذا الوجود الخاسر ، ويرى شوبنهاور ان الحياة في نفسها « جريمة » تكفر عنها باحتمال آلامها ويرى المعري انها « جناية » جناها الآباء القساة على اولادهم المساكين وانها مصيبة تعالج بالبر والاحسان فكونك في هذي الحياة مصيبة يعزيك عنها ان تبر وتحسنا

وينفرد ابو العلاء من بين شعراء العرب قاطبة بميزة واضحة لا سبيل الى نكرانها وهي انه

أقربهم في مستوى الفكر والثقافة الى فكر الغرب في العصور الحديثة ، وكان فكره الجوال قد نقله من عصره الى افق الفكر الاوربي الحديث ، ومن يدمن قراءة المعري يلحظ اوجه الشبه بينه وبين امثال شوبنهاور وليوباردي وفينيجر وانا تول فرانس وكارلايل وغيرهم من اعلام الفكر الغربي ، بل ان هناك مشابه قوية بينه وبين شكسبير نفسه ، وفي اعتقادي ان هذه المشابهة البارزة لم تحجب كلها عفواً ويمكن الاستعانة على فهمها بشيء يسير من التحليل التاريخي ، ولا ريب ان في كل عبقري جانين ، احدهما عالمي والاخر زميني محلي ، والجانب الاول متصل بمزاجه الخاص ونفسه الدخيلة المطوية في ظلمات الخفاء ، والجانب الثاني متصل باحوال العصر وخاضع للتفسير والبحث وأرى أن هناك شهماً من وجوه كثيرة بين عصر المعري والقرن التاسع عشر من ناحية وكذلك مشابهة عامة في المزاج الاصيل والطوية الكامنة بين المعري والكثيرين من كبار مفكري الغرب والثام هذين السبيين قد زاد الشبه العام توكيداً وجعله من الواضح بحيث يسهل لمسه من غير كبير كلفة كان عصر المعري من أرقى عصور النضج الفكري للحضارة الاسلامية مع اضطرابه الشديد من الوجهة السياسية ، وقد تفشو عوامل الاضطراب في ابان النضج الفكري ، والمعروف ان العصور التي تتراخى فيها الروابط الاجتماعية وتتفكك الوحدة ، هي عصور الضعف في حين ان العصور التي تقوى فيها تلك الصلات ويكون المجتمع أشبه بوحدة عضوية هي عصور القوة ، وقد تكون عصور القوة والوحدة راكدة من الوجهة الفكرية والعلمية مجذبة من الروح الفنية ، وقد تكون عصور الانحلال والضعف زاوية بالحياة الفكرية مشرقة بالانوار الفنية ، وقد كان عصر المعري في جملته من عصور الضعف التي غلب فيها الشك اليقين وتحلت فيها العصبيات وفترت المبادئ وضعت فكرة « السلطة العامة المحترمة » وامتنت في شخص الخليفة العباسي أكبر تمثيلها وتهاوت الافكار لشيء كثير من حرية الفكر ، وانما مهد لها السبيل ضعف التعصب وانطفاء جذوة اليقين وانتشار الشك وتناول كل شيء بالبحث والنقد . وكذلك في القرن التاسع عشر كان العصر مكفهر الافق قد تخلخلت فيه أركان المجتمع بسبب الهزّة التي أحدثتها الثورة الفرنسية وهدمها للنظم القديمة ومحاربتها الآراء العتيقة ومحاولتها القضاء على التقاليد ، وكان الانسان واقفاً بين بناء اجتماعي مهدم وبناء لم تتم بعد اقامته ، وكان الموقف موقف شك وحيرة وتساؤل ولهفة يكثر في مثله الفلاسفة المتشككون والمتطهرون ويظهر من ناحية أخرى دعاة الاصلاح وبناء النظام الجديد يبشرون بالمصر المقبل ويجددون اليقين الواهي ، وأمثال هذه الاوقات صالحة للفكر مثيرة له لأنه يجد في اضطرابها وفوضاها مجالاً للنماء والاتساع ويأمن خطر العدوان على حريته واقتحام حرمة لان فرصة التفكك والانحلال تهيء له أسباب الحرية ويمكنه من تصفح الخواطر المختلفة والقيام بسياحته في عالم الافكار المتناقضة والمذاهب المختلفة ، وليس في وسع

مفكر مثل نيتشه او شوبنهاور او ريمان ان يعبر عن نفسه التعبير الكامل في عصر مثل عصر لويس الرابع عشر او العصور الوسطى ، وما كان ليسمح عصر مثل عصر عبد الملك ابن مروان او عصر الرشيد بوجود المتنبي او أبي العلاء ، وهذا من أشد ما ينهأ الفرديون على أنصار الاشتراكية لانها تحاول بإحكام الروابط الاجتماعية ان تصب الناس جميعاً في قوالب متشابهة وتقضي على التنوعات الفردية واختلاف ألوان الامزجة . وقد كان أبو العلاء كسائر كبار الشعراء نهم الفكر شغوفاً بتعرف كل شيء مطبوعاً على تلك العالمية الخاصة بالعبريين ، وهذا الاتساع النفسي من شأنه ان يوجه النظر الى التاريخ ويفري بالتعمق في تأمل حوادثه واستعراض صورته ومن ثم كان للثقافة التاريخية دخل كبير في تكوين كبار شعراء العالم وفي أشعار هو ميروس وفرجيل وروايات شكسبير وجيتي وشلر ويرون شواهد نواطق بذلك ، ولم يكتف بعض الشعراء بتناول التاريخ في منظومات الشعر ورائع الملاحم بل أوقف جزءاً من حياته على كتابة التاريخ كما فعل شلر في كتابه تاريخ حرب الثلاثين سنة وكما فعل هيني في مقالاته الانتقادية

وأبو العلاء الذي بز شعراء العرب وحلق فوقهم بعبريته العالية واخلاصه الجمل للادب والحياة يفوقهم جميعاً من ناحية النظرة التاريخية ، ومن كان في عمق أبي العلاء فلا مفر له من ان يطالع قصة الخليفة ويجول في تاريخ الانسانية ليسرد أخبارها وينصُّ عبرها ويتأمل ما انتابها من آمال وآلام وما لحقها من يأس ورجاء وما تعلقت به من عقائد ومذاهب وما مر عليها من مختلف الاطوار ومتنوع الحالات ، وقد وجد في التاريخ مجالاً رحباً لتطيره ومنفذاً لسخريته، وكان يشعر بغزارة معرفته التاريخية ويقول

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الاّ وعندي من أخبارهم طرف

وفي الحق ان أبا العلاء لم يقصد بهذا البيت المباهاة الكاذبة والفخر الاجوف وانما قرّر حقيقة تدعمها لزومياته وتشهد بصدقها سائر آثاره

ومن أدمن النظر في التاريخ وأطال التأمل في حوادثه لا بدّ ان ينتهي فيه الى رأي خاص ويكون لنفسه فلسفة ينظر الى التاريخ في ضوءها مهما كانت قيمة هذه الفلسفة من الحق او من الباطل وسواء أراد قارئ التاريخ ذلك ام لم يردّه وأدركه أم لم يدركه . ورجل مثل ابي العلاء حائر شاك منفرد بنفسه ماهر في التنقيب على مواطن الضعف في الانسانية نزاع بفطريته الى التطير من الواضح اللازم ان تسمع في فلسفته التاريخية صدى يأسه وترى أثر تملّله وتسخطه، وقد كان ابو العلاء شديد الفردية في احساسه يصادم المجتمع بفرديته الاوحدية الشاذة ولا يرضى النزول من برجه العاجي للانفاس في تيار الجماعة وانما الدنيا ملعب وهو متفرّج لا لاعب كما في قوله

والارض رقعة لعباب مقسمة منها سهول وأجبال وحزان

وهو لا يرى من ثم في التاريخ إلا الأفراد المحدود القدرة يحاول الدهر فيغلب والمجتمع في نظره كتلة من الافراد لا وحدة عضوية ، ولم يجتمع هؤلاء الافراد في ظل فكرة روحية او يباعث سام ، كلاً وانما ارغهم على الاجتماع الطاعية والحيوانية

ما اشبه الناس بالانعام ضمهم الى البسيطة مصطاف ومرتبعة
وتطير ابي العلاء جعله يرى انتصار الشر على الخير واستفاضة الظلم والبغي في الحركة التاريخية ، والحقيقة ان لكل ناظر في التاريخ مذهباً خاصاً يتلون بألوان مزاجه ويتصل بعقيدته وطبيعة اعتقاده ، وقد جمع الاستاذ روبرت فلنت في كتابه الحفيل عن فلسفة التاريخ نيفاً وثمانين فلسفة من فلسفات التاريخ لطائفة من أئمة المفكرين من قدماء ومحدثين

ويختلف المؤرخون في تفسير التاريخ واستكناه حقيقته المتوارية وراء مظاهره اختلافاً واسعاً ولهم في ذلك مذاهب مختلفة ، واشد تلك المذاهب تناقضاً مذهبان ، مذهب يفزع اليه المتفائلون وهو مذهب التقدم ومذهب يلوذ به المتطرون وهو مذهب الحركة الدائرة ويمثله القدماء بالافعى التي تأكل ذنبها ، وأنصار هذا المذهب ينكرون الوحدة الاجتماعية والتقدم التدريجي الشامل ولا يعتقدون ان هناك غاية منصوبة تتجه اليها الانسانية ، ويرون المجتمع والانسانية عامة شرادم من الافراد تستحقها المطالب المادية وتسوقها الحاجة الى الاجتماع استجابة لتلك الرغائب والحاجات وعندما تكون الظروف موافقة تتكون نواة امة ، وكل هذه الامم خاضعة لقانون الحركة الدائرة ، فهي تمر في ادوار متتابعة من الحكومة الملكية الى الحكومة الارستقراطية ومنها الى الديمقراطية وهذه تسلمها الى الفوضى ومن الفوضى تنحدر الى الحكم المطلق وهكذا دواليك

والانسان في رأي انصار هذا المذهب موكول للصدف العمياء مهجور في هذا الكون المريب^(١) تلعب به الغرائز وتعبث به الالهواء وتغريه الاطباع والشهوات فلا يجد من أمرها فكاً ولا يملك لها دفعاً ، وليس هناك عناية الهية مشرفة على هذا الكون تربق الضوء في حياة الانسان وتأخذ بيده في هذه الاحوال والارجاس والعوائير ، فما قيمة الاعمال والجهود وما أثرها في عالم كهذا العالم ؟ كل فكرة كبيرة تقف حياتك على خدمتها وكل تضحية غالية تقدمها لغاية سامية وكل يقين صادق وعقيدة متينة ضائعة عديمة الاثر في هذا الوجود كما تضع قطرات الغيث في الرمال ، والسعادة ظل زائل وضباب منقشع ، ومن أصحاب هذا الرأي فريق ضعفت في نفوسهم الحاسة الاخلاقية وتمت الغلبة لعقولهم على عواطفهم فشأنهم مداورة الايام واقتناص القرص وعبادة القوة المادية والاتجار بالمبادئ والتقلب في اقدار الحياة تقلب السمكة في البحر ، وفريق آخر من ذوي النفوس الخيرة والقلوب الكبيرة قد راعهم هذه الفكرة وملأت نفوسهم

(١) قارن هذا بقول المعري : تورعوا يا بني حواء عن كذب فما لكم عند رب صاعكم خطر

مرادة والمآ فهم يبشرون باليأس والتزهيد في الحياة ويندبون حظ الانسانية ويقفون على اطلال الحضارات ليكون مصراً الامم، وفلسفتهم حزينة مجللة بالسواد ملأى بصور الفناء، والانتصار في نظر اصحاب هذه الفلسفة نذير الهزيمة والحياة دليل الموت والضوء رسول الظلمة، وكل عمل يتم على حماسة ويقين ينظرون اليه نظرة المتشكك المرتاب فلا ينجمو من سخريتهم آثم ولا مصلح ولا يفلت من تهكمهم حامل القلم ولا رب التاج، وهم بسخرون بانفسهم وبالطبيعة والكون وبالله نفسه وانبيائه، وكأن الطبيعة التي ضنت عليهم روح الامل والسرور الخالص قد حبتهم بالنصيب الاوفر من ملكة السخرية والاستهزاء ويعمد اصحاب هذه الفلسفة الى طرق كثيرة للتسلي، فمنهم من يتلهى بالكأس واللذة على طريقة عمر الحيام او بتحليل نفسه على طريقة فردريك اميل او بالاستغفال بغريب اللغة كما كان يفعل ابو العلاء مصنف كتاب الايك والفصون وكما فعل ليوباردي الذي كان امام المتطيرين في عصره وكان في نفس الوقت اكبر لغوي في زمنه في آداب اللغة اليونانية، ومثل بسكال الذي برع في الهندسة وان كانت الروح الدينية التي غلبت على عصره قد منعتهُ من الايفال في التطير اما المدرسة الثانية فهي تؤمن بالتضامن الاجتماعي وقانون التقدم وترى ان الانسانية سائرة الى الكمال وهي تستخلص ذلك من نزعة الاجتماع الغريزية في الانسان ومن وحدة النوع الانساني واتفاق الغرض الذي ترمي اليه الانسانية وتتجه نحوه جهودها المشتركة، وهي ترى ان خير كفيل بتحقيق أمل الانسانية هو انتقال الحق من جيل الى جيل وذلك النزوع الى الكمال الذي يهون التضحية ويوحى الايمان ويعمر القلوب بالامان، وجهود الامم والافراد ليست ضائعة ولا ذاهبة عبثاً وما أثرهم خالدة والشر الذي نشكوه سيتمخض عن الخير وستستحيل اخطاء البشر على مدى الايام منافع جزيلة وخيرات سابقة وبأسف اصحاب هذا المذهب لوجود الشر والقوضى في الحياة ولكنهم لا يأسون من مقاومته واصلاح الحياة وتهذيبها

ويفخر كلا المذهبين بطائفة من الاسماء البارزة في تاريخ الفكر الغربي، فمن انصار المذهب الاول ما كيا فيلي وشوبنهاور الذي يقول «ما دامت الحياة أبدية فان فكرة التقدم لاحالة باطلة» وكارلايل، ومن الفائلين بالتقدم يكون وديكارت ومشليه وأوجست كنت، وابو العلاء في نظره للتاريخ ينتسب الى المذهب الاول فهو ينكر التقدم ولا يرى جديداً تحت الشمس فيقول عن الناس يسعون في المنهج السلوك قد سبقوا الى الذي هو عند الغر مخترع

ابكار هذي المعاني ثبات حجا في كل عصر لها جان ومفترع

وهو لا يهتف للمنتصر واما يحذره طاقبة كعاقبة المغلوب فيقول له

لا تفرحن بدولة أوتيتها ان المدا لعل عليه مثل الدائل

وينذر من احتوت يده على شيء بأنه سيفقده لان

من يعط شيئاً يستلبه ومن ينم جنح الظلام فانه سيؤرق
 وابو العلاء لا ينظر الى الماضي نظرة اكبار ولا يحيطه بهالة من التقديس والقدماء في
 نظره لم يكونوا اكرم طبعاً وأبر نفساً من اهل عصره
 ما كان في الارض من خير ولا كرم فضل من قال ان الاكرمين فنوا
 وأما حكم العقل في قضية المفاضلة بين القدماء والمحدثين فهو كما يروي لنا ابو العلاء
 يخبر العقل ان القوم ما كرموا ولا افادوا ولا طابوا ولا عرفوا
 عاشوا طويلاً وماجوا في ضلالهم ولا يفوزون ان جوزوا بما اقترفوا
 بل لم يتسم فرد واحد منهم بالحكمة وفصل الخطاب ولم يؤت العقل والرشد احد والارض
 لم تعرف الانسان الاعلى ولن تعرفه

ما كان في هذه الدنيا اخو رشد ولا يكون ولا في الدهر احسان
 وانما يتقضى الملك عن غير كما تقضت بنو نصر وغسان
 ويرد ذلك بقوله: ولم يأت في الدنيا القديمة منصف ولا هوأت بل تظالمنا جزم
 فاذا ضقت ذرعاً بعصرك وبرمت بشروره آسأك ابو العلاء بقوله
 شكوت من اهل هذا العصر غدرهم لا تنكرون فعلي هذا مضى السلف
 فاذا شككت في ذلك اكده بقوله

لا يخدعنك اخراناً كأولنا في نحو ما نحن فيه كانت الامم
 فاذا وصل الى مسامحه ان هناك قوماً يعلقون الامل على المستقبل ويرجون من ورائه الخير
 وتحقيق الاحلام هز رأسه وأنشد

يقال ان سوف يأتي بعدنا عصر يرضي فتضبط اسد الغابة الخطم
 هيهات هيهات هذا منطق كذب في كل صقر زمان كأن قطم
 ومن يدري فقد يستفحل الشر ويتفاقم الخطب في المستقبل
 والله يحمد كلما طال المدى طغت الشرور وقلت الاخبار

وكان المعري يرسل فكره الى الماضي السحيق والمستقبل البعيد فيرى الحياة بين هاتين النهايتين صوراً
 سريعة يفتاها الفناء وخيالات تزول كما تزول دوائر الماء حول مواقع الحصيات في سطوح البحيرات،
 فا قيمة الدول العظيمة والآثار الضخمة وما تأثير النجوم اللامعة والشمس الساطعة وما قيمة العواطف
 البشرية ومتع الروح ولذات النفس؟ كل هذا ضائع في الابد الزاخر، والانسان هذا الطيف
 الزائر والسائح الغريب في هذا الكون يعيش قليلاً ثم تطوى صفحته ويدرج في قبره والدنيا بخائها
 تمضي وتترك البلاد عريضة والصبح انور والنجوم زواهر

وقد تصنع اخبارنا وتندثر آثارنا كما ضاعت في جوف الدهر آثار من قدم الارض قبلنا
 سيسأل ناس ما قريش ومكة كما قال ناس ماجديس وما طسم
 والبشرية التي تهافت في التاريخ وتلك الاجيال المتلاحقة انما هي صور تتراعى الى الليل
 الابدی وتفرق في زواجر الدهر وهي اشبه بالخيالات والاشباح تلوح ثم تختفي وانما البشر
 اشباح ناس في الزمان يرى لها مثل الحجاب تظاهر وتواري
 أو شخوص اقوام تلوح فأمة قدمت مجددة وأخرى تهلك
 والدهر هكذا مستمر في دورته يطحن الاجيال ويطوي الايام
 عش ما بدا لك لن ترى الا مدي يطوى كماداته ودهراً داهراً
 وانما هي حركة مكررة معادة: والدهر اكو ان تمر سريعة ويكون آخرها نظير الاول
 والوجود كله كدر لا صفو فيه

لا ازعم الصفو مازجاً كدرأ بل مزعمي ان كله كدر
 ولا امل في اصلاح الكون وتقويم اعوجاج الناس وعلاج الطبايح
 لم يقدر الله تهدياً لعالمنا فلا ترومن للاقوام تهدياً
 وهم كذلك لان النبعة التي استقوا منها نبعة فاسدة
 تفرع الناس عن اصل به درن فالعالمون اذا ميزهم شرع
 والانى من ذلك انه
 يكفيك شرّاً من الدنيا ومنقصةً ألا يبين لك الهادي من الهادي
 والناس في غفلة لا يفيقون منها

وما عيون الناس فيما ارى منتهات من طويل السنة
 ولقد اجرى اناتول فرانس على فم المؤرخ السكهل ملك فارس المحتضر في احدى محاورات
 كتاب آراء جيروم كوانبار كلمة هي خلاصة فلسفته التاريخية وهي قوله في تلخيص تاريخ البشر
 « انهم ولدوا وتألّموا وماتوا » ويصح ان تكون هذه الكلمة موجز رأي ابي العلاء الذي يقول
 خلقنا لشيء غير باد وانما نعيش قليلاً ثم يدركنا الهلك
 بل قد انحدر به اليأس الى ابعده من ذلك حيث فقدت الاشياء في نظره حقيقة واشتبهت عليه عجزاتها وصفاتها
 فنحن في غير شيء والبقاء جرى مجرى الردى ونظير الماتم العرس
 وهذه هي اعظم قرارات اليأس ولكنها ايضا الذروة العالية التي ارتفع اليها المعري في عالم المفكرين
 المتطيرين واستحق بها ان يكون الامام الثابت والحجة الثقة في وصف علل الحياة وأدواء النفوس،
 ولئن كان يستمك من ابي العلاء جهامة الحزن الذي لا تزدهيه اعاجيب الحياة ولا تطربه انعامها
 فقد يسليك منه تبسم الساخر المتهايف الذي لا يعفي شيئاً من سخريته ولا يففل لحظة عن تهافته

الانسان والنبات

للكنور محمد هجيت

اختصاصي بقسم البساتين بوزارة الزراعة

مملكة النبات مملكة واسعة عظيمة تحوي عدداً كبيراً من الاجناس والانواع موزعة على الارض بل وعلى البحار والانهار توزيعاً عجيباً تقررهُ وتحددهُ عوامل البيئة المختلفة كالحرارة والرطوبة ونوع التربة والضوء وغير ذلك من العوامل الظاهرة والخفية . ومن افراد تلك المملكة ما هو ضئيل الى ابعد حدود الضآلة بحيث لا يتسنى لآعيننا البشرية ان تراهُ ، وربما استطاعت ان ترى البعض منه اذا استعانت بأقوى المكبرات الحديثة التي مكنتنا من رؤية عالم عجيب خفي بزخر بالحياة النباتية ويؤثر من مصاير الانسانية أعظم تأثير — ذلك هو عالم البكتيريا والفطر والجراثيم . وزى بها من الناحية الاخرى افراداً بلغت من الاكتناز والضخامة والذهاب في كبد السماء مبلغاً عظيماً يدعو الى الدهشة والتعجب . ولا يسع المرء عند ما يقف حيال اشجار السيكويا الهائلة التي بولاية كاليفورنيا الاميركية على ساحل المحيط الهادىء الا ان يخشع امام تلك العمالقة التي تحسب اعمار بعضها بآلاف السنين ويذهل لتلك الخلوقات التي كانت يوماً ما بدوراً صغيرة دقيقة تذروها الرياح فأصبحت اطواداً حية هائلة كالرواسي الشاخات لا تنال منها الانواء والاعاصير الهوجاء . . . ومن أفراد تلك المملكة ما هو نافع غاية النفع للانسان والحيوان ومنها ما هو ضار بهما أبلغ الضرر . . . ومن أفرادها ما هو جميل لا عيننا ومنها ما هو قبيح دميم ومما لا ريب فيه ان النبات ظهر على الارض في فجر الحياة الاولى ونشأ وتدرج في سلم الارتقاء خلال عصور عديدة من قبل ان يدب عليها الانسان وتنشأ بينهُ وبين النباتات العلاقات الوثيقة التي أثرت في حالاته النفسية والاجتماعية والاقتصادية تأثيراً عظيماً اوصلهُ الى منزلته الحالية من المدنية الحديثة . ولنا في التاريخ أمثلة متعددة يظهر منها ان الوقوف على سر واحد من أسرار النبات قد يؤثر في حياتنا الفكرية والمادية أعظم تأثير . ومن الامثلة البارزة المتعددة نبات المطاط او الكاوتشوك الذي نعلم قدر أثره في مدنيتنا الحديثة

ولو فتشنا ملياً عن مصدر حياتنا وينوع نشاطنا ومدنيتنا لوجدناه النبات، ذلك الكائن الحي المنتج الخلق بالاجلال والاعظام والحبوة والتقدير . ولو تجاوزنا تلك النظرة السطحية وتعمقنا قليلاً

في البحث لوجدنا ان النبات مدين بحياته للشمس التي هي مصدر الحياة جميعها . ولقد أحسَّ أجدادنا المصريون منها ذلك وأدركوا ما في خيوطها الذهبية من حياة هي السحر وسحر هو الحياة فعبدها وقد سواها . وكانوا يتخيّلونها زورقاً يستقله اله من آلهتهم اسموه هوروس يسبح به في أجواز الفضاء من المشرق الى المغرب في نظام ثابت عجيب وتدير محكم . وعند ما ايين فيما يلي علاقة ما بين الشمس والنبات ستتكشف لاعتينا حقيقة من أروع الحقائق التي ندرك منها نعمة الحياة التي أنعم بها الله سبحانه وتعالى علينا ونقدر قدرته جلَّ شأنه اذ سخر الشمس فيما سخر لنا من القوى الطبيعية التي تنفعنا في حياتنا الدنيا يتنفس النبات كما يتنفس الحيوان ، فيأخذ كلاهما الأوكسجين من الهواء ويعطى غاز ثاني اكسيد الكربون الذي يزفره الحيوان من منخرية والنبات من مساميه العديدة الخاصة بذلك . واذا احترق النبات او الحيوان نتج عن احتراقهما غاز ثاني أكسيد الكربون كذلك وهذا ينتشر في الهواء ويختلط به . . . يدخل الهواء المحمل بهذا الغاز الى النبات عن طريق فتحات بأوراقه منتشرة على سطوحها السفلية وبالغة من الصغر والدقة مبلغاً عظيماً وهناك يذوب في العصارة النباتية ويتحوّل بعمليات متتابعة الى سكر بسيط ومن ثم الى سكر مركب او نشاء أو زلال أو دهن او الى خلوز (سلولوس) — تلك المادة التي يبني بها جدر خلاياه وأليافه وخشبه ، او الى اي مركب آخر يحتاج اليه في بنائه وتغذيته ، ثم ان هذه المواد المجهزة تتحرك في الاوعية الى الانساج القريبة او البعيدة في النبات للاختزان أو لأداء الوظائف الفسيولوجية المختلفة . غير ان تحويل الغاز الكربوني الى سكر ثم الى مواد أخرى أكثر منه تعقيداً ثم دفع تلك المواد في الأوعية والانساج كل ذلك يحتاج الى جهد . وهذا الجهد يستمدّه النبات من أشعة الشمس . فعند ما تسقط هذه الاشعة على أوراقه الخضراء المنبسطة تمتص المادة الخضراء التي بها والتي تعرف بالكوروفيل او الخضير جزءاً صغيراً من تلك الاشعة التي هي مزيج من حرارة وضوء فتم العملية السحرية في صمت عجيب لا يلحظها ملاحظ او يحس بها مستنصت . وينتقل بهذه العملية الجهد الذي كان بأشعة الشمس الممتصة الى المركبات التي تكونت داخل النبات . وعند ما يحترق هذه المركبات داخل جسم الحيوان بواسطة عملية التنفس تعطيه من الحرارة والجهد بقدر ما أخذت من أشعة الشمس تماماً . كذلك تعطي قطعة الخشب اذا احترقت في الهواء حرارة وجهداً بقدر ما أخذت من الشمس . فتحن نستغل الحرارة التي تتولد بجسمونا في الحركة وفي أداء العمليات الفسيولوجية والشغل الخارجي . ونستخدم الحرارة التي بالوقود في انضاج طعامنا وتسيير عرباتنا وطياراتنا وسفننا وغير ذلك . فالاشجار التي على وجه الارض اذاً والفحم والزيت المعدنية التي في باطنها والتي نشأت من تحلل مواد عضوية نباتية كل هذه كنوز عظيمة ومستودعات هائلة للقوى الشمسية اختزن بها من آلاف بل ملايين السنين . . . فزى من ذلك انه لولا الشمس

لما كانت الحياة على سطح الارض ، وانه لولا تلك الورقة الخضراء السكرية — ورقة النبات — لما كان انسان او حيوان . وربّ سائل يتساءل وماذا نقول في أمة الاسكيمو التي تسكن الاصقاع الجليدية القطبية والتي لا يقات أهلها الا سمك البحار وحياتها ولا تسكن الا كهوفاً تتخذها من الجليد ؟ ان فضل النبات على ذلك الانسان المنزول عن المملكة النباتية والذي لم ير ورقة النبات الخضراء ؟ والجواب على ذلك ان هذا الانسان الذي يقات اللحم فقط يعتمد في حياته على النبات أيضاً ولكن بصفة غير مباشرة . وذلك لان السمك الذي يأكله يعيش على أسماك او حيوانات بحرية أخرى اصغر منه . وهذه تقات الاعشاب البحرية الضئيلة . وقد حسب بعض الحاسين ان كل رطل من جسم انسان الاسكيمو بني من ٦٣٥ رطلاً من الاعشاب البحرية التي تغذ بها اسماك أكلها الاسكيمو بدوره . فما أنهض ما تتكلفه مملكة النبات لإعاشة أمة الاسكيمو القليلة العدد ! وربّ قائل يقول أيضاً ان العلم تقدم تقدماً عظيماً بحيث أصبح في مكنتنا تركيب بعض المواد الغذائية في مصانعنا . وسوف يأتي يوم نستغني فيه عن الحقول الشاسعة بما نستطيع تجهيزه في المصانع المحدودة ! نعم لقد استطاع علم الكيمياء مثلاً ان ينتج صلب النيل المعروف فقضى بذلك قضاء مبرماً على زراعة النيل الطبيعي بالهند، وصحيح أيضاً ان بعض العلماء تمكن من تحضير مقدار صغير من السكر البسيط بواسطة الاشعة فوق البنفسجية، وصحيح أيضاً أنهم توصلوا الى تحضير بعض المواد الهامة كالقائليلا بل والكافيتشوك إلا ان تحضير كل ذلك يستنفد من الجهد والنفقات الشيء الكثير مما يجعل الانسان محتاجاً الى أوراق النباتات الخضراء ومعتمداً عليها كل الاعتماد وثم اعتبار آخر يجعل اعتماد الانسان على النبات أمراً محتوماً وهو ان الاخير يصنع المركبات الهامة المعروفة « بالفيتامينات » في أوراقه الخضراء . ويتوقف نمو الجسم الانساني وسير وظائفه سيراً طبيعياً وسلامته من كثير من الامراض على تلك المركبات المعقدة الغامضة التي لها في حياتنا شأن هام والتي توجد في الجسم الحيواني أيضاً . فبعد ان يمتصها الحيوان من الغذاء النباتي نسترجع بعضاً منها فيما ينتجه من لبن وزبد وحين ويبيض وغير ذلك من منتجاته المتعددة هذا فضلاً عما نحصل عليه مباشرة من النبات نفسه عندما نأكله

ولننظر الآن كيف بدأت العلاقة بين الانسان والنبات ، ثم كيف توثقت تلك العلاقة وتطوّرت مع السنين والقرون وأثرت في الانسان حتى ابلاغته مدنيته الحاضرة

كان الانسان الاولي يسير عارياً في الغابات يلقط مما يجده على الشجر الذي ينمو لنفسه ما يطيب لذوقه من حبّ وثمر . وكان يحتمي في ظلال اشجارها من حمارة القيط او صبرة البرد ومن شأيب المطر . ثم هداه تفكيره الى ان يتخذ من اجزاء النبات سقفاً وعرائش بأوي إليها هو وما قد استأنس من حيوان . ومن ثم نشأت فكرة بناء البيوت والمساكن . وكان اذا

تتأصل فتزايد عدده وقلَّ قوته وكلاً ما شئتِه نزع الى جهة اخرى وفيرة القوت كثيرة المياه والعشب . ولما شاهد النبات ينضج حبه وينثره حوله لابقاء نوعه فطن الى استكثاره فجمع الحب وبذره لنفسه وحصده وهكذا تعلم الزراعة التي طرأ بواسطتها تغيير كبير على الاصناف البرية من حيث الكم والكيف . وكان يرى قطعة الخشب تطفو على سطح الماء فيعتلها ليعبر عليها الأنهر والبحيرات الصغيرة، ثم بدا له بعد ذلك ان يحوف تلك القطع او يضمها بعضاً لبعض ليستوى بداخلها حتى لا يدركه البلبل ومن ثمَّ كان بناء السفن التي ساهمت بنصيب وافر في بناء مدينتنا الحالية اذ استطاع الانسان ان يحمل فيها غذاءه ويحجوب البحار ويكشف آفاقاً جديدة ويربط اطراف العالم بعضها ببعض ولقد بدأ الانسان اول ما بدأ بتغطية جسمه وستر عورته باوراق النباتات الكبيرة ولم يلبث ان اهتدى الى ذات الالياف منها وفطن الى استعمالها بدل تلك الاوراق . ثم اهتدى بعد ذلك الى غزل ونسج تلك الالياف . وها نحن اليوم اكثر ما نكون اعتماداً على النبات في لباسنا ، حتى تلك المنسوجات التي تمت الى اصل حيواني كالصوف والحريقان انتاجها يتوقف على النبات فالانعام او الابل ترعى النبات وتربي صوفها . وتأكل دودة القز اوراق النباتات ثم تنسج خيوطها الحريرية بعد ذلك وكان الانسان يذوق ويأكل بطبيعة الحال كل ما يصادفه من اجزاء النباتات المختلفة فيجد في بعضها حلاوة وفي البعض الآخر غصاضة ، وفي البعض ما ينفعه من داء معين وفي البعض الآخر ما يؤذيه اذية بالغة او طفيفة . فاستطاع من تجاربه الكثيرة التي عاناها ان يميز بين ما هو صالح منها لقوته وما هو صالح لدوائه . وما زال الانسان الى يومنا هذا يرجع في معالجة اكثر امراضه واسقامه الى النبات واصبحت النباتات الطبية المعروفة تعد بالآلاف ولقد غير الانسان كثيراً من معالم المملكة النباتية فما حل ببقعة الا وتمد الى تقطيع الاشجار الباسقة والنباتات المتكاثفة ليفسح في رقعة سكناه . فاذا ما أفسحها واستقر بها قطع كثيراً غيرها من حوله لكي يزرع الحب لنفسه وحيوانه . وعند ما تيسرت المواصلات واصبح في استطاع الانسان ان يهاجر في افواج كبيرة الى اصقاع بكر لم يكن لها به عهد من قبل امعن فيها تقطيعاً وتحريقاً بأسراف مريع فأزال غابات عامرة بتمامها وعرّى وجه الارض من زينتها الخضراء الجميلة وبدد كنوز القوى المذخورة فيها شر تبديد . وأعظم مثل لذلك الغابات الفسيحة الواقعة شرقي نهر الميسيسي بالولايات المتحدة الاميركية . كانت تلك الغابات مأهولة ببضعة آلاف من الهنود الحمر الذين لا يأخذون من الطبيعة الا القليل الذي يفي بحاجاتهم البسيطة . فلما نزلها الرجل الابيض المتمدين ازلها ومحا معالمها وأقام مكانها الدور والقصور والقرى العامرة والمدن الصاخبة الزاخرة . وحصل في الهند ان اخليت الغابات لزراعة الشاي والبن والمطاط وغيرها من النباتات الاقتصادية التي يلبح في طلبها الانسان . ولم يكن تقطيع الغابات وتدميرها بأوروبا بأقل منه في القارات الاخرى

فقد دمر الانسان فيها اكثر مما تستطيع الطبيعة انتاجه. وأخيراً فطنت الحكومات الى تلك الثروة الجسيمة المهددة بالزوال فسنت القوانين لحماية الغابات ولاستغلالها بقدر ولتعميرها من آن لآخر ... ما كان ذلك من الانسان لمجرد العبث ومحاربة النبات وانما من اجل مصلحته الخاصة فهو وان حيا الاشجار من رقعة ما فقد اسكن تلك الرقعة انواعاً اخرى من النبات كالحبوب وغيرها. ونراه من ناحية اخرى ينزل الارض القاحلة او الصحراء المجربة فيطرق اليها الماء ويغرس بها الاشجار وينثر فيها الحب فتصبح جنة فيحاء دانية القطوف متعددة الالوان ولئن قسا الانسان على النبات من ناحية فقد اسدى الى مملكته ايادي بيضاء كثيرة ، فهو يطوف بالغابات المنعزلة البعيدة ويتسلق الجبال الوعرة ويسلك الصحاري الخيفة ليتصيد كل نادر من النبات ثم يكثره ويحسنه الى درجة لا يبلغها ذلك النبات في الاحوال الطبيعية ... لقد فعل الانسان أكثر من ذلك فانه زاد بطريقة التوليد على المملكة النباتية أصنافاً وأشكالاً وألواناً ما كان لها وجود من قبل فهو الذي خلقها خلقاً بعقله الراجح وصره العظيم فأتت خيراً الف مرة من آياتها الوحشية . هذا فضلاً عن انه حسن الاصناف والانواع الموجودة تحسيناً عظيماً . ولا ضرب على ذلك مثلاً واحداً بسيطاً بينجر السكر الذي يزرع في اوربا بكثرة لاستخراج السكر منه بدلاً من قصب السكر الذي لا تسمح الظروف الجوية بنموه هناك . كانت نسبة السكر بالبنجر من نحو ٥٠ سنة نحو ١٠٥٪ فأصبحت الآن بفضل عمليتي التوليد والانتخاب التي يقوم بها الانسان نحو ١٨٥٪ ولقد وصلت النسبة في بعض افراد منه الى نحو ٢٥٪ وهكذا أوشك هذا النبات ان ينافس قصب السكر الذي تبلغ نسبة السكر فيه نحو ٢٠٪ .

ولعل أغرب وأعجب ما في حياة الانسان تلك العلاقة التي يبنه وبين النباتات الدنيئة التي لا يراها بعينه المجردة . تلك الكائنات التي نسميها الميكروبات او الجراثيم تكافح في الحياة وتناضل من أجل بقائها وبقائها قوية . فهي تهاجم النباتات الراقية كما تهاجم الانسان والحيوان وتفتك بها جميعاً فتكاً ذريعاً في بعض الاحوال . انها لا تعبأ بالانسان العاقل الحيار بل تتحداه دواماً وتعيش على لحمه ودمه وترهق في كل يوم آلافاً بل ملايين من الارواح البشرية والحيوانية . لم يستطع الانسان بعلمه الواسع الغزير وعقله الحيار العظيم ان يقضي على تلك المخلوقات الضئيلة التي تتغذى بدمه وأحشائه ثم تفرز فيها سموماً ناقعة تودي بحياته . وكل ما استطاع ان يفعله هو انه ألجمها وكسر من شرها وأصبح ماسكاً لقيادها بحيث يستطيع ضبطها ومقاومتها . ولكن كثيراً ما يفلت زمامها من يده وتهيج مرة واحدة فتذيق الانسان والحيوان من صنوف العذاب أشكالاً وألواناً وأخيراً تذهب بالارواح جملة . تلك هي جرائم الامراض التي نخشاه ونفرق منها . وغير ذلك بعض الجرائم النباتية التي تقع في طعامنا وشرابنا لتتغذى به أيضاً

فتجمله وتجعل منه مركبات أخرى فاسدة ذات روائح كريهة او طعم بشع . وفي مقدورنا ان نتصور عظم ما تخسره الانسانية كل عام من جراء تلك الجرائم التي تتلف اللحم واللبن والخضر والفاكهة والشراب وغير ذلك مما تقدر قيمته بملايين الجنيهات . . .

ومن الناحية الاخرى تقع جرائم من نوع آخر في كثير من صنوف الطعام والشراب فتجملها تماماً او بعض الشيء وتغير من نكهتها او طعمها بحيث تصبح أطيب مذاقاً وأشهى الى النفس . والامثلة على ذلك متعددة فبعض اصناف الحين مثلاً لا تكتسب طعمها الطيب المعهود من غير ان تقع عليها اصناف خاصة من الجرائم النباتية تعيش عليها وتتكاثر وتجعل بعض موادها وتفرزها افرازات خاصة . ونحن لا نأكل من جبن « الروكفور » اللذيذ الشهى مادته اللبنية فقط بل والعفن الذي عليه يجرائيمه مما يجعل له هذا الطعم الزكي الخاص . وثم مثل آخر هو الخبز الذي نستطيعه فاكنا لنستسيغه او نستطيع اكله ما لم نضع مع العجين قبل خبزه قليلاً من نبات الخميرة الذي يخمر بعضاً منه فيجعله لذيذاً شهياً . يرحب الانسان بمثل هذه الجرائم النباتية ويتركها تعمل عملها بل ويشجعها عليه بما يبهي لها من الظروف الخاصة المساعدة وكما نحن مدينين لامثال تلك النباتات الدنيئة التي يتوقف على نشاطها الكثير من الصناعات الكبرى التي تدر علينا الخير الوفير والبر العميم

هذا ولم تقتصر العلاقة بين الانسان والنبات على الناحية المادية فحسب بل تعدتها الى الناحية المعنوية ايضاً . فقد استعان الانسان بالنبات في طقوسه الدينية وفي افراحه وأتراحه . وأدرك ما في اجزائه وألوانه من رشاقة وجمال فأحبّه وأحاط نفسه به في غرفه وحدائقه ومتنزهاته واتخذ منه معيناً لا ينضب يشبع منه ناحيته الفنية . وسيظل النبات من اهم موارد الالهام للشعراء والمفكرين يشيدون بحمالة ويرزونه للعالم في شكل رائع جذاب . كما انه سيظل مورداً خصباً يأخذ منه الانسان لزخرفه مسكنه ومعبده وملبسه وشق ادواته المنزلية وغير المنزلية

نرى من كل ما تقدم صورة واضحة يظهر لنا في ناحية منها التعاون بين الانسان والنبات واعتماد الاول على الثاني في معيشته وأعماله بل وفي حاجاته الفنية والروحية ويظهر من الناحية الاخرى منها ذلك الصراع الهائل الطويل المدى بين الانسان والنبات . فالتبات يهاجم الانسان رأساً ويهاجم طعامه وشرابه ونباته الذي يزرعه وحيوانه الذي يرباه ، والانسان بدوره يذود عن نفسه وعن حيوانه ونباته الذي تحت كنفه بكل ما اوتيته من قوة وحيلة مستعيناً في كفاحه هذا بشق الوسائل كالبرودة الشديدة والحرارة المرتفعة والجواهر السامة وغير ذلك من الوسائل الطبيعية والكيمياوية الفعالة . وخلاصة ذلك ان ما نفيد من النبات ليعدل الف الف مرة ما يصيبنا منه واننا مدينون له بحياتنا المادية والروحية الى حد كبير

قصب السرعة

بين الامم

والطيران حول الارض في نهار واحد

يعلم قراء المقتطف ان قصب السرعة في الكون للضوء فهو يسير بسرعة ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية . ويعلمون كذلك ان من الطيور ما تتجاوز سرعتُه مائة ميل في الساعة ، وبعضها كالصقر او البازي يبلغ ١٦٠ ميلاً في الساعة او اكثر قليلاً . وهذه سرعة عظيمة ، ولكنها مع ذلك تجعل الصقر بطيئاً البطء كله بالقياس الى حيوان آخر تزيد سرعتُه على سرعة امواج الصوت ! ذلك الحيوان حشرة صغيرة تعرف باسمها العلمي « كيفينومايا » Cephenomyia وباسمها الشائع « ذبابة الايل » وهذا الاسم الثاني مستمد من كونها تتطفل وهي يرق على بعض الحيوانات من نوع الايل فتسكن مسالكها الانفية والحلقية . ويقال انها تختزن الغذاء وهي في هذه المرحلة من حياتها وتستعمله عندما تتحول ذباباً

وقد روى المواليدي الاميركي العلامة روي تشاين اندروز — مدير المتحف الاميركي للتاريخ الطبيعي — في مجلة التاريخ الطبيعي التي يصدرها ذلك المتحف ان العلامة الدكتور تشارلز تونز ند قضى سنين كثيرة في دراسة هذه الحشرات فوصفها في كتاب خاص بعث به الى الدكتور اندروز بانها تحترق الجو تحطف البرق وانه قاس سرعتها وحقق القياس بوساطة مصورات ضوئية سريعة خاصة فاذا سرعتها تبلغ ٤٠٠ ياردة في الثانية او نحو ٨١٨ ميلاً في الساعة . وكتب تونز ند مقالاً عنها في مجلة الحشرات التي تصدر بيو بورك فقال انه قد يصعب على اي كان ان يصدق ان حشرة تستطيع ان تسبق رصاصة بندقية ولكن « الكيفينومايا » تستطيع ان تسبق رصاص البنادق القديمة ولا يستبعد ان في مكتبها ان تسير قنابل المدافع الالمانية الضخمة التي اطلقت على باريس في اثناء الحرب العالمية

والغريب في هذه الحشرة ان ذكرها أسرع من انثاها ويفسر ذلك بأنه لا بد للذكر

من ذلك لكي يلحق بالانثى حتى يتسنى اتمام الزواج . ولو كان في الامكان ان تصنع طائرة تطير بسرعة هذه الذبابة لاستطاعت ان تطير حول الارض عند خط العرض الشمالي ٤٠ مثلاً بين شروق الشمس وغروبها في يوم من ايام الصيف . ولا يخفى ان اسرع الطائرات لا تتجاوز سرعة ٤٥٠ ميلاً في الساعة . وان سرعة امواج الصوت في الهواء ١٠٨٩ قدماً في الثانية اي اقل من ٤٠٠ ياردة وهي سرعة هذه الذبابة العجيبة

من الثابت ان كل ما اصابته انواع الحيوانات من الرقي في الحركة والانتقال مبني او متصل بمبادئ ميكانيكية مستقرة في شكلها وتركيبها ، فاذا عرف العلماء اسرار الحركة السريعة في ذباب « الكيفنومايا » تمكنوا من بناء آلات للطيران قائمة عليها فيبلغون سرعة قد يتعذر عليهم بلوغها اذا اقتصروا على اتخاذ الطيور مثلاً لهم ينسجون على منواله . وان ما شاهدناه من معجزات الحشرات والمستبطنات في هذا العصر يشير الى ان الجزم باستحالة شيء لغرابته او بعده عن المألوف جرأة لا يقدم عليها عاقل

فاذا استطاع العلماء والمهندسون ان يتبينوا اسرار السرعة في هذه الذبابة ، وان يطبقوا مبادئ حركتها وقواعد شكلها في بناء الطائرات ، وان يجعلوا الطائرات بحيث تطير في طبقات الجو الطخورية حيث الهواء لطيف والمقاومة للطائرات اقل منها على ارتفاع بضعة آلاف من الاقدام ، فليس من المتعذر ان تبلغ الطائرات سرعة ٨٠٠ ميل او الف ميل في الساعة فاذا اتيج لنا الطيران بطيارة من هذا القبيل سبع عشرة ساعة متوالية تمكننا من الطيران بها حول الارض في نهار واحد . فالمسافة حول الارض عند خط العرض الاربعين نحو ١٤ الف ميل . فاذا طارت الطائرة بسرعة ٨٠٠ ميل في الساعة تمكننت من الطيران حول الارض في ست عشرة الى سبع عشرة ساعة . واذا فرضنا انها قامت من نيويورك في الساعة الخامسة صباحاً فانها تبلغ مدينة «أوماها» بالولايات المتوسطة الاميركية في ساعة ومدينة «رينو» على حدود كاليفورنيا في ساعة أخرى ومدينة «باكين» بالصين في ست ساعات ومنها الى «استانبول» في أربع ساعات أخرى ثم الى «مدريد» في ساعة ونصف ساعة ومنها الى «نيويورك» في ثلاث ساعات ونصف ساعة فتصلها في الساعة العاشرة مساءً

فاذا تحقق عمل من هذا القبيل فاق خرافات الاقدمين عن بساط الريح وروايات جول فرن الفرنسي مع ما كان فيها من التطرف في الخيال والوهم حين وضعت ، ولكن الحقائق التي يقوم عليها هذا الزعم ثابتة نقرأها في فصل الحشرات من كتاب الطبيعة المفتوح

الانسان المجحول

للمعلمة الكسبى ميس بلال

تلخيص : اسماعيل مظهر

ينبغي إذن ان نتعرف كيف ينتظر ان تؤثر أساليب الحياة الجديدة في مستقبل السلالة البشرية . فان استجابة النساء لوجه التكيف التي اتت بها حياة اوائلنا وعاداتهم ، من طريق الانقلاب الصناعي ومدنية الانتاج العملي ، كانت حاسمة سريعة . ولك ان ترى شيئاً من ذلك في ان نسبة المواليد قد نقصت فجأة . ولقد كان لهذا الحادث أثره البالغ الجدل في الطبقات الاجتماعية وفي الامم التي كان يظن انها سوف تكون اكثر اهل الارض استمتاعاً ، إن مباشرة أو بالواسطة ، بفوائد التقدم الحديث وجنياً لثمراته ، بتطبيق المكتشفات العلمية تطبيقاً عملياً . على ان العقم بالارادة — اي تعقيم النساء بحكم الاختيار — ليس حادثاً جديداً يشهده لأول مرة تاريخ العالم . فانه كان طبابع بضعة عهود مرت في تاريخ مدنات بائدة . إنه لعرض طائفي على اتنا ولاشك نعرف له مكانته تمام المعرفة

وإنه لمن الظاهر أن التغيرات التي اتت بها محيطنا بذيوع « الصناعية » — Technology — وبالحرى الفن الصناعي ، قد أثر في جمعيتنا تأثيراً بالغ المدى . يئد ان نتائج هذا « الفن » قد لا يستهان خلية لم تكن تتوقعها . لقد أدركنا ان لها نتائج تنافي كل المناقاة تلك التي أمسنا فيها ، والتي كان لنا ان نرتقبها من أوجه الارتقاء التي اتت بها مساكننا وطرائق حياتنا واغذيتنا وتعليمنا والحو العقلية الذي كوّنته من حولها الخلائق البشرية في العصر الحديث

إذن نتساءل : كيف انتهينا الى هذه النتائج المتناقضة ؟

إن هذا التغير مضر ، مادام انه قد

تم من غير نظر صادق في حقيقتنا

قد يمكن ان نجيب عن هذا السؤال جواباً بسيطاً ساذجاً ، فنقول : إن المدنية الحديثة قد نحررت وارتجت دعاتها ، لانها لا تؤمننا . ذلك بان قواعدها قد اقيمت من غير نظر في حقيقة

طبيعتنا أو معرفة بها ، وانها وليدة نزوات الكشف العلمي ، وشهوات الناس وخيالاتهم ونظرياتهم ورغباتهم . فهي على الرغم من انها قد شيدت بجهودنا ، فانها خلقت بعيدة عن ان تكفى منا الحجم والشكل

والظاهر الجلي ان العلم لا يتبع طريقاً مرسوماً او خطة معينة . أنه ينمو خبط عشواء . وأوجه تقدمه رهز حالات اتفاقية ، القضاء الصرف مصدرها ، والقدر الاعمى منبعها . مثل ذلك ميلاد العباقر ذوي الكفايات ، وتكوين عقولهم ، والاتجاه الذي تتجه اليه قوة التطلم فيهم . وكل هذا لا يقع اتباعاً للرغبة في تحسين حالات الانسان . فإن المكتشفات التي أحدثت المدنية الصناعية إنما جاءت تبعاً لما تقلب على مشاعر العلماء وميولهم من الاهواء ، والظروف التي أحاطت بمتجهاتهم . فلو أن غليليو ونيوتن ولاقوازيه كانوا قد صرفوا قواهم العقلية الى درس الجسم الحي والوعي ، اذن لكانت دينانا غيرها الآن . فان رجال العلم لا يدرون في اي طريق هم مسوقون . انهم اما تقودهم المصادفة والتفكير العلوي ، وبالحراري ضرب من الكشف النفسي — clairvoyance : ان كلاً منهم بمنزلة عالم برأسه ، له سننه التي تحكمه . وبين الفينة والفينة ينجلي لهم من الاشياء ، ما يظل غامضاً على غيرهم . وعلى الجملة نريد ان نقول إن المكتشفات إنما تأتي عفواً من غير تقدير للتأثير التي تترتب عليها . على ان نتائجها قد أحدثت في الدنيا انقلاباً بالغا ، صوّر حضارتنا في الصورة التي نشهدها

انتقينا من تلك الثروة العالمية الضخمة أجزاء بعينها . على ان اختيارنا لتلك الأجزاء لم يكن حليف النظر في ما تحتاج اليه الإنسانية من المصالح العليا . لقد اتبعنا في الاختيار اتجاهها أملتة علينا ميولنا الطبيعية . ان العوامل المسيّرة التي أدت الى نجاح المخترعات الحديثة في حضارتنا قد ترجع في حقيقتها الى مبادئ تعلق بها الانسان هي : الحصول على الراحة والرضا ببذل أقل ما يمكن من الجهد ، والجذل الذي تحدئه السرعة او اختلاف المناظر ، مضافاً الى ذلك حاجة الانسان الى التخلص من ذات نفسه بعض الاحيان . ولكن قلما ساءل أحد نفسه : كيف يستطيع ان يواجه عوامل الاستسراع التي انتابت ألفة الحياة وانسجامها ، تلك العوامل التي تتجلى مظاهرها في سرعة الانتقال والمبرقة (التلفراف) والمسرة (التليفون) وأساليب التعامل الحديثة ، والآلات الكاتبة الحاسبة ، بل وجميع تلك الاجهزة التي تقوم الآن بأعمال المنازل الحديثة . فان الزعة التي حملتنا على استخدام الاجهزة الحديثة ، كالمطارات والسيارات والخيالة والمسرة والراديو ، والتي ستحملنا في القريب العاجل الى استخدام المنة Television هي في حد ذاتها نزعة طبيعية ، أشبه بتلك التي حلت آباءنا في ظلام القرون الاولى ، على ان يعكفوا على تعاطي الحُور . فللمنازل ، المدفأة بالبخار ، والنور الكهربائي والمرابي elevators وذيوع الاغذية الكيماوية والتزام حدود

أدبية خاصة في الحياة التناسلية ، عامةً ذا لم يقبله الناس إلا لأنها مخترعات محبة الى النفس ، مجلبة للرضا . ولكن لم يلتفت أحدٌ الى شيء مما لها من الاثر المحتمل في الخلائق البشرية

في تنظيم الحياة الصناعية لم يلتفت الى شيء مما للعمل من التأثير الوظيفي والعقلي في حياة العمال . فالصناعة الحديثة قائمة على قاعدة — « أكبر نتاج بأقل نفقة » — حتى يتمكن فرد واحد أو مجموع من الافراد من كسب أكبر مبلغ يمكن كسبه من المال . ولقد نمت هذه الطريقة وتشعبت من غير ان تساور انساناً فكرة ما في طبيعة الخلائق البشرية الذين يحركون الآلات ، ومن غير ان يؤبه بالتأثيرات التي تنتاب الافراد ، وبالتبعية اعقابهم ، من طريق ذلك الاسلوب المصطنع الذي تفرضه حياة العمل عليهم فرضاً . كذلك شيدت المدن العظيمة من غير ان يحسب حساب للخلائق التي تسكنها . فالمطرحات Sky-scrapers بصورها الدميمة وحجومها العظيمة لم تقم الا على فكرة الحصول على أكبر ايراد ممكن من كل قدم مربعة من الارض ، وتزويد ساكنيها ، أصحاب مكاتب كانوا أم طلاب لإقامة ، بأماكن يرتاحون اليها ويأمنون بها . وكان هذا سبباً مباشراً في اقامة تلك العماز المطرحة العظيمة ، التي تزدحم بعدد كبير من أبناء آدم . وأبناء المدنية الحديثة يألفون هذا الاسلوب من الحياة . وبينما هم يتمتعون بمباهج هذه الحياة وزخارفها التي تحوطهم في مساكنهم تلك ، ينسون أنهم قد جردوا من حاجيات الحياة . فان المدن الحديثة انما تتألف مما يشبه الاغوار السحيقة القائمة جنباتها حفا في شوارع مظلمة ضيقة شاع فيها لهب الغزولين و تراب الفحم والغازات المسممة ، وتعاليت فيها جلبة السيارات والعربات والترام ، وازدحمت على غير انقطاع بمجاير غفيرة من الناس . والمدرّك من هذا جميعه ان المدائن الحديثة لم تُشَد بحيث تنفق مع الخير الذي ينشده سكانها

ان حياتنا الحديثة تتأثر الى حد بعيد بالاعلانات التجارية . ذلك بأن اذاعة هذه الاعلانات لم يلحظ فيه مصلحة المستهلك ، بل منفعة المعلن . ومثلنا على ذلك ان الجمهور قد لقن ان العيش الابيض خير من العيش الاسمر . فطفق تجار الدقيق يمعنون في نخلة المرأة بعد المرة حتى تجرد من كل عناصره المفيدة . وبذلك استطاع تجار الدقيق وأصحاب المحازر ان يحصولوا على أرباح أعظم مما كانوا يربحون ، في حين ان المستهلكين قد انحطت قيمة غذائهم ، وان اعتقدوا انهم انما يأكلون غذاءً أنفع من غذائهم الاول . وقد اتضح ان الامم التي يؤلف الخبز غذاءها الرئيس ، مضت تنحدر وتنحط . والحصل ان اموالاً طائلة تنفق على الاعلان . فكان من نتائج ذلك ان مقادير عظيمة من المتوجات الغذائية والصيدلية ، منها ما هو غير مفيد ، ومنها ما هو مضر ، قد اصبحت من الحاجيات التي يعكف عليها الانسان المتمدين . وبهذا نجد ان طوائف من ذوي الطمع والجشع

قد استطاعوا بطرائقهم الخاصة في دفع الجماهير الى استهلاك سلعهم التي يعرضونها للبيع ، ان يحدثوا اثرأ بالغاً في حالات العالم الحديث

ومع هذا فان الدعاوة التي توجه طرائق عيشنا في الحياة الجديدة ، لا تخضع دائماً للبواعث الأناثية . ذلك بان الظاهر من طبيعة تلك الدعاوة أنها بدلاً من ان تتجه الى فائدة الافراد المالية او فائدة جماهير منهم ، فانها في الاكثر تري الى النفع العام . غير انها الى جانب هذا قد تكون بالغة مفتهى غايات الضرر والفساد ، إذا هي صدرت عن اشخاص تصورهم ، الذي كوثوه عن هذا السكائن البشري ، ناقص او خاطيء . ولنضرب لذلك مثلاً . فان اطباءنا اذ ينصحون بالتزام ضروب خاصة من الطعام ، وكثيراً ما يفعلون ذلك ، يزيدون الاطفال تسارعاً في النماء ، وبدل فعلهم في مثل هذه الحال علي انهم ولا شك يجهلون الموضوع الذي يعالجونه ، فهل الاطفال الذين هم اكبر حجماً أو أكثر ثقلاً ، اصلح من اولئك الذين هم اصغر حجماً أو أخف وزناً ؟ فان الذكاء والنشاط والهمة والقدرة على مقاومة الامراض لا تتوقف على وزن الجسم او كبر الحجم ، أو ما يجري ذلك المجري من الصفات . ومثل آخر نقتطعه من معاهد العلم . فان التعليم الذي تقرضه المدارس والجامعات انما يعني غالباً بتدريب الذاكرة ومرونة العضلات على نمط اجتماعي خاص ، يُسلم حتماً الى شيء من الضعف النفسي ، يتجلى في عبادة الرياضيين ، فهل مثل هذه النظامات مفيدة لرجال العصر الحديث الذين هم أحوج ما يكونون الى الاتزان العقلي وثبات الاعصاب والحكم الصادق على الاشياء والهمة والشجاعة الادبية وقوة الاحتمال ؟ ولقد نتساءل لماذا يتصرف رجال الصحة تصرف المقتنعين بان الانسان عرضة لان يصاب بالامراض المعدية وحدها ، من غير ان يفكروا في انه الى جانب هذا معرض الى الاضطرابات العصبية والعقلية والى ضعف العقل بصورة عامة . ومن هنا نرى ان الأطباء والمعلمين ورجال الصحة ، ولو أنهم يعملون جهدهم رامين الى خير الانسان ، فانهم لا يصيبون الغرض الذي يسعون اليه . ذلك بانهم يعالجون مقدمات لا تتضمن من الحقيقة الا جزءاً ضئيلاً . وقد يصدق هذا الحكم على كل اولئك الذين يستعوضون بميولهم واحلامهم ومذاهبهم عن تلك الحقيقة الجامدة التي ندعوها الانسان . وما هؤلاء غير نظريين يحاولون ان يقيموا مدنيّات لا تلائم عند الواقع غير صورة مشوهة ممسوخة من الانسان ، لا الانسان على حقيقته . والذي لا شك فيه ان أنظمة الحكومات التي تقوم في ادمغة أصحاب المذاهب الاجتماعية من غير ان تكون اصولها مستمدة من الحالات الراهنة ، اشياء معدومة القيمة هزيلة الوزن . فباديء الثورة الفرنسية ، واوهام ماركس ولينين ، انما تصلح لنوع من البشر خيالي لا حقيقة لوجوده . ولذا أقول انه من الواجب أن نؤمن بأن السنن التي تحكم الصلات الانسانية ما تزال بمجولة خفية ، وإن لنا ان

نقضي الى جانب هذا بأن علمي الاجتماع والاقتصاد علما ن ظنيان حدسيان، وبالحرري علما ن كاذبان لهذا نقول ان المحيط الذي تعاون العلم والفن الصناعي على توليهِ ونجحاً في خلقه ليكون للانسان مباءة، محيط لا يوائم الانسان، ذلك بأنه شديد اعتباطاً، من غير نظر في حقيقة ذاته حاجتنا الى معرفة

٦ —

أوفى بحقيقة ذواتنا

والمحصل : ان علوم المادة الجامدة قد أحرزت تقدماً عظيماً في حين ان علوم الكائنات الحية ظلت بدائية . فان بطء التقدم الذي نأمنه في علم الاحياء — Biology — إنما يرجع الى الحالات المحيطة بالوجود الانساني والى تعقد ظاهرات الحياة والى الصورة التي انصب فيها ذكائنا، وهو ذكاء يميل بفطرته الى الآبنية الآلية والى الرياضيات المجردة. ذلك الى ان تطبيق المكتشفات العلمية تطبيقاً عملياً قد قلب الآلية في عالمي المادة والعقل . وكان من جراء ذلك الانقلاب أن حدث تأثير عظيم الخطر على حالات الحياة . أما اخطر ناحية من نواحي ذلك الانقلاب فتتجسّد في أنه استحدث من غير نظر او اعتبار لطبيعتنا . فان جهلنا بأنفسنا قد أوسع المجال لعلوم الآلة والطبيعة والكيمياء تلك القوة التي مكنتها من ان تكيّف تكييفاً أعمى انماط الحياة التي أليفها أسلافنا

والحقيقة ان الانسان ينبغي ان يكون المقياس الذي يقاس عليه كل الاشياء . وبالرغم من هذه الحقيقة وعلى عكس ما تقتضيه تماماً، يعيش الانسان غريباً في هذا العالم الذي خلقه من حوله . لقد عجز الانسان عن ان ينظم دنياءه، لأنه لا يملك المعرفة العملية بحقيقة طبيعته . فكأن التقدم العظيم الباهر الذي حازته علوم المادة الجامدة وبذت به العلوم ذوات العلاقة بالكائنات الحية، من أعظم الكوارث التي انتابت الانسانية . والمحيط الذي أبدعه ذكائنا وتلك المخترعات التي اخترعنا، قد أثبتت انها غير ملائمة لنا من اكثر الوجوه . نحن انما نشعر بأننا نعساء، واننا نتحدر أدبيساً وعقلياً، وتلك عشائر الانسانية وأممها التي بلغت فيها المدنية الصناعية أرقى مبالغها، هي بذاتها العشائر والامم التي ترى انها آخذة في أسباب الضعف شيئاً بعد شيء، بل انها العشائر والامم التي نلاحظ ان رجوعها الى الهمجية سريع وشيك . غير انها لا تشعر بهذه الحقيقة . انها تعيش غير محمية من أثر البيئات المعادية التي كوّنّها العلم من حولها . والواقع ان حضارتنا، كالحضارات السابقة، قد خلقت حالات أصبحت معها الحياة، لاسباب ما تزال غامضة، أمراً يكاد يكون مستحيلاً . فان متاعب أهل المدن الحديثة وشقاواتهم، انما تعود الى نظماتهم السياسية والاقتصادية ومعادهم الاجتماعية، وفوق كل هذا، الى ضعفهم الذاتي . وعلى الجملة نشعر أننا ضحية لتأخر علوم الاحياء وسبق علوم المادة عليها

اما العلاج الاوحد لهذه السيئات فاستعاقنا في المعرفة بحقيقة ذواتنا . فان استعاقنا وتفقهنا في هذه المعرفة سوف يمكننا من معرفة وسائل الحياة الجديدة التي تؤثر في وعينا وفي جسمنا . وبهذا نفقه بأي سبيل نكتف انفسنا بحيث نلائم بيئتنا وكيف تبدل هذه البيئات ، إذا ما أصبح قلب نظمها وأسسها ضرورة محتومة . وانا باستظهار طبيعتنا الحقيقية وكفاياتنا والطرق التي نجعل بها هذه الكفايات قوة ذات اثر واضح في الحياة ، نستطيع ان نجعل نواحي ضعفنا الوظيفي ونستبين حقيقة امراضنا الادبية والعقلية . اتنا بغير الاستعاق في درس علوم الاحياء نعجز عن معرفة السنن التي تحكم أوجه نشاطنا العضوي والروحي ، كما نعجز عن ان نعرف ما يجب ان نتكبد وما ينبغي ان نقبل عليه من أشياء الحياة ، او أن نحقق على الاقل مدى حريتنا في ان نحور من بيئتنا أو أنقسننا بمحض اختيارنا

ان حالات البقاء الطبيعية قد حطمتها الحضارة الحديثة . وهذا ما يجعلنا نشعر شعوراً عميقاً بأن العلم بالانسان قد أصبح أمس العلوم بكياننا

في الادب

قال الطغرائي في ولده له وافاه على كبر :

هذا الصغير الذي أوفى على كبري	أقر عيني ولـكن زاد في فكـري
وافى وقد أبتت الايام في جسدي	ثلماً كلّم الليالي دارة القمر
والشيب أردف مسوداً بمشتعل	والدهر أعقب منصاتاً بمسـطر
سبع وخمسون لو مرّت على حجر	لبان تأثيرها في صفحة الحجر
فزاد حرصي على الدنيا وجدّ لي	ضناً بمالي واشفاقاً على عمري
أضوى عليه وأختى ان يعاجلني	يومي، ولم أقص من تشريحه وطري
وأشتهي أن أراه وهو مقبل	غض الإهاب خضيب الوجه بالشعر
أحي مآثر آبائي وأشبههم	في مجدهم، واقتني في هديه أثر

زواج الاقارب

أضارُّ هو أم نافع

للكنتور - ليفي لمر

مسألة الزواج بين الاقارب وما قد يسفر عنه هذا الزواج من اولاد أصحاء أو أعلاء ، مسألة شغلت عقول الناس من قديم العصور . وهي مسألة معقدة لان المرء يميل على الغالب الى الحكم حكماً قاطعاً في الموضوع وفقاً لحادثة استوقفت نظره أو مراعاة لبعض القواعد الدينية . ولكن إخلاف النسل السليم القوي غذا في عصرنا مشكلة كبيرة الشأن . ولذلك أصبح لعلم اصلاح النسل مكانة عظيمة في دوائر العلماء والعامه على السواء . والنتيجة التي خرج بها العلماء من بحوثهم وتجاربهم هي ان الزواج بين الاقارب لا خطر فيه ولا خوف منه اذا كانت الاسرة التي يتم الزواج بين افراد منها اسرة سليمة

ولنضرب على ذلك بعض الامثال : هو ذا شاب يريد ان يتزوج ابنة عمه . فاذا دل البحث الدقيق على ان الاسرة سليمة من العيوب الوراثية ، فليس ثمة ما يعترض به على هذا الزواج من الناحية العلمية والصحية . بل على الضد من ذلك ان العلم يرى في هذا الزواج خيراً كبيراً يتجلى في صحة الاطفال التامة . او خذ مثلاً آخر . يريد اثنان من أسرة واحدة سليمة ان يتزوجا . ولكن في هذه الاسرة افراداً مصابون بحسر النظر (ميوبيا) وهو عيب غير بارز فلا يسترعي النظر لان كثيرين من المصابين به لا يستعملون النظارات . ففي هذه الحالة يستهدف الاولاد — ثمرة هذا الزواج — لخطر الاصابة اصابة شديدة بحسر النظر لانهم يرثون الاستعداد لهذه الاصابة من آبويهم

ولكن اذا تزوج أحد شبان هذه الاسرة فتاة من أسرة أخرى غير مصابة بحسر النظر بل بالبول السكري ، ففي هذه الحالة يقل خطر الاستهداف للاصابة بحسر النظر لان الجرثومة الحاملة لهذا العيب تنتقل الى الطفل من ناحية واحدة هي ناحية الوالد . وعلى قدر ما يستهدف

الطفل لخطر الاصابة بحسر النظر ، يستهدف كذلك لخطر الاصابة بالبول السكري لان أسرة الأم مصابة به . وليس في هذا ما يمنع ان يصاب الطفل بحسر النظر او بالبول السكري . ولكن التعرض لخطر الاصابة بأحدهما قليل . واذن يصح ان نقول ان زواج الاقارب ، اذا كانوا من أسرة سليمة من العيوب الوراثية ، لا خطر فيه على الاولاد والعلماء لم يصلوا الى هذا الرأي على أساس التأمل النظري ، ولكنهم خلصوا اليه من تجارب متعددة واسعة النطاق

ففي المانيا بمدينة قصر روزنشتين على مقربة من مدينة شتتغارت يعيش فريق من الاتباع الاقطاعيين البيض وقد مضى عليهم مائة سنة وهم يتزوجون حتى غدت صلات القرابة بينهم وثيقة جداً . وليس ثمة ما يحجز لنا ان نقول إنه يبدو عليهم أقل دليل من ادلة الانحطاط او الحؤول البيولوجي . وفي سنة ١٨٦٤ نقل الى انكلترا ثلاثة من الاتباع الاقطاعيين من زيلنده الجديدة فنسلوا في ٦٤ سنة ستة آلاف خالين جميعاً من آثار الحؤول . ثم ان الحياء الشهب في فردريكسبورج تولدت من تشبية جوادٍ وثلاث عشرة أصيلة . وهي مشهورة بصفاتها الممتازة على الرغم من التزاوج بين نسلها

وكانت الشريعة تقضي على ملوك « الانكاس » بأن يتزوجوا شقيقاتهم . فلما تغلب الاسبانون عليهم في أميركا الجنوبية كان ملك بيرو أحدهم خلفاً لاسلاف يستغرق تاريخهم الف سنة ومع ذلك كان سليماً . أما انه عجز عن مقاومة الاسبانين فلا دخل له في الامر وما لنا وللاعتماد على الشواهد البعيدة وعندنا في تاريخ مصر القديمة ما يكفينا حيث كان زواج الملك بشقيقته اجبارياً . ولم تكن هذه القاعدة مما يتميز به الاعيان بل كان عادة شائعة في جميع طبقات الشعب

ومع ذلك لا بد من ان نقول ان الاسر السليمة من العيوب نادرة الندرة كلها واذن لا بد من اتخاذ الحيلة الكاملة عند النسبة على عقد زواج بين قرييين لصيقين . ونحن نشير الى هذا عنايةً منا بالصحة الخاصة والعامة وسلالة الاطفال من العيوب الوراثية ، وهذا يفسر عناية بعض الحكومات الاوربية بانشاء عيادات طبية خاصة حيث يعنى الاطباء المختصون بتتوير الخطيين في هذا الموضوع الخطير واطلاعهما على ما يجب ان يطلعا عليه . ومما يؤسف له ان مصر لم تنشئ حتى الآن عيادات من هذا القبيل

الدستور

والروح الوطنية

لـلـنـيـسـي المـقـرـسـي

استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

مما ذكرناه آنفاً يتضح ان ما تدقق به الشعر الدستوري من عواطف الحبور والتهليل راجع بالاكثير الى ما نشأ في نفوس العثمانيين عموماً والعرب خصوصاً من ايمان ثابت باخلاص الدستوريين ورجاء حيٍّ بحسن المصير. فكنت تراهم على شبه يقين من انهم أصبحوا ابناء لدولة عظيمة تحبهم وترغب في تقدّمهم

ذلك الايمان وذلك الرجاء بعنا في الشرق العربي روحاً جديدة أيقظت القلوب وأضمرت فيها الشعور بالفخر والكرامة الذاتية فألبست الادب حلاً قشيباً من الجمال. وقد ظهر ذلك في مظهرين رئيسيين هما الاعتزاز بالوطنية، والدعوة الى الاتحاد القومي. واليك البيان بما احتبرناه بأنفسنا وعرفناه من اختبار الآخرين

﴿ الاعتزاز بالوطنية ﴾ أشرنا في فصل سابق الى ما كان للحرب الروسية اليابانية ١٩٠٥ من أثر في تخمير الشرق العربي بروح الكرامة الشرقية. وقلنا ان ذلك لم يكن الا سبباً تمهيدياً لحركة أعمق وأوسع نطاقاً. وقد بدأت هذه الحركة فعلاً عقب اعلان الدستور. وسنرى كيف تطورت مع الزمان. وكيف تغيرت أشكالها في شتى البلدان

ولا يخفى ما كان للجانب في السلطنة العثمانية من نفوذ سياسي واقتصادي وفكري. فهم أصحاب الامتيازات وفي معاهدتهم نشأ سواد المتعلمين، فلا بدع ان يتولد في نفس الشرقي ازاءهم ما يسميه علماء النفس بالصغار الذاتي^(١)، حتى صار عند الجمهور كل شيء غربي أفضل من كل شيء شرقي، تاجرهم أصدق، وعلمهم أعلم، وصانعهم أحق، بل وعنصرهم، أشرف وأرقى. وجرى ذلك بين الناس في الشرق العربي وألفوه حتى صار جزءاً من كيانهم النفسي. على ان النهضة العلمية أخذت منذ القرن الماضي تعمل على إضعاف هذا الشعور، فنشأ بين المفكرين من أثار على «الصغار

الذاتي» حرباً شعواء داعياً الناس الى احترام النفس و اكرام الوطن . كقول أحدهم^(١) « كيف نؤمل نجاح صناعتنا وتأخر صناعتهم في بلادنا حال كون كل عربي يمدح صناعتهم ويطعن في صناعة بلاده ، ويفضل ما كان أفرنجياً مهما كان » . وقد نظر الكاتب هنا الى الوجهة الاقتصادية وهاله أن يرى تأخر الوطني لتأصل فكرة سقيمة فيه . ومنهم من نظر الى الوجهة الاجتماعية او الروحية فآلمه أن يرى ما يسود الناس من اعتقاد بأفضلية الغربي وتفوقه الفطري على الشرقي . فقال^(٢) « ام لا ترى انك لو عنيت بأمر قومك عنايتك بالاجنبي تقوم بأمره ، وتولع بشكره ، لما لبثت أن ترى منهم من يبلغ شأوه وان كان ربيعاً ، ومن يدرك سعيه وإن كان سريعاً »

وعرف الغربيون ذلك الشعور في الشرقيين فاستغلوه بل تآدوا في استغلاله حتى صاروا لا يتورعون عن التشامخ على بني الشرق وامتهانهم في عقر دارهم . فمن الطبيعي ان يولد ذلك في نفوس الأباة من الشعراء والكتبة « رد فعل » يظهر في منظومهم ومثورهم كما ترى في قصيدة للزاوي قالها قبل الدستور ومنها^(٣)

كفى الغربُ نخراً انه متقدم	وان له مالا به يتعم
وان له في البر جيشاً عرمرماً	يمائله في البحر جيش عرمرم
ترقى فلما اشتد ساعده عتا	وبات يغيظ الشرق والشرق يكظم
يطيل على اجحافه بحقوقه	سكوتاً كأن الشرق ليس له فم
فيا أيها الغرب المدلل بنفسه	رويدك ما هذا الغرور المذمم
أزعم ان الشرق يلبث صاغراً	أمامك مغضوباً وأنت المكرم
وتبقى عليه هكذا متسيطراً	تمص دم الاموال منه وتهضم

والقصيدة حوالي ثلاثين بيتاً وكلها على هذا النسق من البرم بهذه الحال ويتخللها فخر بلماضي وأمل بالمستقبل . وظل الأمر كذلك الى اوائل القرن الحالي حين أخذت الحضارة الجديدة تعم البلاد وحين توفّر الشرقيون على دراسة العلوم الحرة ، فعرفوا ما لهم وما عليهم . وكبرت نفوسهم فصارت الطبقة المثقفة منهم تشعر بوجودها ، فيسئوها ما تراه في الوطن من اثره أجنبية وتحاول القضاء عليها بشتى الوسائل ولا سيما باحياء الروح الوطنية . على انها كانت تصطدم بالامتيازات الاوربية . وبفت في عضدها خنوع الدولة للاجانب وجهل العامة معنى احترام النفس والوطن . وقد زاد الطين بلة تلك النعرات الطائفية وما ولدته من ضغائن ومخاوف ، مما فتح الباب لتدخل الاوربيين بحجة حماية الاقليات ، وبالتالي لازدياد نفوذهم الروحي والسياسي وشيوعه في جميع انحاء الشرق

(١) سليم البستاني مجالي الفرر (١٩٠٦) ١٠٠

(٢) أديب اسحق في الدرر ١٤٨ (٣) ديوانه (١٩٢٤) ٢٩٣

فلما أعلن الدستور وارتفع الضغط المضني عن اللسان والصدور ، اتّقد الشعور الوطني انتقاداً لم يعهد من قبل واخذ الادب العربي يتغنّى بالقومية تغنياً غريباً اشتركت فيه جميع العناصر والطوائف . ولما كانوا يفرقون يومئذ بين الكرامة الشرقية والكرامة العثمانية ، بل ذهبوا الى ابعد من ذلك في حماسهم الدستورية فقبلوا للاجانب ظهر المجن ورفعوا الهلال العثماني الى اوج التعظيم

وقد كان شيء من ذلك قبل الدستور ولكنّه لا يقاس بما وصل اليه بعده والذين ادرکوا ذلك العهد لا ينسون قط تلك الهبة القومية التي كان لها في نفوس الشبيبة فعل المسكرات فأملتهم حتى نسوا مساوىء العهد السابق ، واطلقوا لاقلامهم وألسنتهم العنان فجرت في هذا المضمار جري السوابق . فلا تستغرب اليوم اذا قرأت لاحد ادباء بيروت المسيحيين الاصلاحيين قوله من خطاب القاه في الاسكندرية ^(١) : —

« ليتهج العثمانيون فقد نشر الدستور ، وجاء اليوم الذي التّم فيه شعث الامة العثمانية وتآلفت اعضاؤها ، وتآخت اجزاؤها . فكلنا بنعمة الدستور عثمانيون — عثمانيون لا نعرف غير هذا اللقب لقباً ، ولا نتخذ سواه نعتاً . عثمانيون قبل كل شيء . عثمانيون طول الحياة . عثمانيون مذهبنا الحرية وشعارنا الوطنية ونفخرنا الراية الهلالية وملجأنا الدولة العلية »

ومثله ما جاء في لسان الحال من افتتاحية ^(٢) : — قال الكاتب يصف حالتنا الاجتماعية والروحية قبل الدستور ويقابلها بما صارت عليه بعده — « لم يكن حالتنا حال المريض فقط . بل لا نجازف اذا قلنا اننا كنا قد بلغنا حال المحتضر . وطال هذا الدور (اي دور الاحتضار) الى ان اتانا الدرياق فنشطنا من عقال الحمول ووثبنا وثبة الاسد من العرين » وبعد ان يصف هذه النهضة يشير الى علاقة الوطنيين بالاجانب فيقول (وهو من المعروفين باعتدال المنهج) — « وسيرى الغريب من الفرنجة وغيرهم كيف يعاد مجد الامة وتتجدّد حياتها بقوة افراد رجالها » وقال احد الكتبة المسلمين ^(٣) واصفاً ما كانت تقاسيه الدولة من السياسة الاوربية — « ان الدول كانوا يواصلون الضغط على جسم المملكة العثمانية ويضاعفون السعي لايقاع الشلل في عروقه الكثيرة الشعب . ولكن قضى ربك ان يردّ كيد اولئك المتسابقين الى نهش هذا الجسم المتضعع الى بحرهم ، وتعود العثمانية بفضل الدستور قوية الشكيمة تقف في وجوههم وقفة الرئال لا جزة ولا فزعة »

وعلى هذا المنوال نسج كثير من المقالات والخطب وكلها تشير الى ما كان يملأ النفوس من

(١) خليل زبنيه جريدة الثبات ١ عدد ٦٦ (٢) عدد ٢٦ (تشرين اول : اكتوبر) ١٩٠٨

(٣) طه المدور في لسان الحال ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٠٩

النقمة على الاجانب او على الاقل من الامل بنهوض الدولة فيسترد ابناءؤها (الترك والعرب على السواء) مجدهم الغابر ولا يضطرون بعد ان يقفوا امام الاجنبي وقفة الضعيف امام القادر . اما الشعر فحدث عن اتقاده الوطني ولا حرج . فيه اشتركت جميع الاقطار العربية والمهاجر حتى لبنان فانه برغم استقلاله الذاتي ورغم اتجاهه نحو الغرب علفت به شرارة من ذلك اللهب فكان من ابناءه في الوطن والمهجر شعراء يهزجون بتعظيم الانقلاب والاستبشار به ، ويهللون للعرش العثماني وابطال الحرية . ومن اراد الاطلاع على ما قيل في هذا الباب فليرجع الى الصحف العربية في العامين ١٩٠٨ و ١٩٠٩ (١)

ومما لا ريب فيه ان الشعر الدستوري في السنتين المذكورتين مفعم بروح التفاؤل شديد الحماسة للكرامة الشرقية والجامعة العثمانية . سواء في ذلك المسيحي والمسلم ، الناقم على سياسة عبد الحميد او غير الناقم . ومن امثله هذان البيتان لسعيد شقير من قصيدته المار ذكرها —
لا زلت يا جيشنا فخرًا لا متنا وحطّ اعلامك الاجاد والغلب
نرى المعالي وتركيا لنا وطن للعزّ والمجد فيها تُرفع القب
والايات التالية من قصيدة للدكتور نقولا فياض (٢)

يا بني عثمان انا امةٌ اصبحت موضوع اعجاب الامم
سعيد العدل تاريخاً لكم طبع المجد به منذ القدم
في حمى جيش عزيز باسلٍ واسع النعمة كشاف الغم
وبعد ان يصف حماة الدستور الاحرار وافعالهم الحيدة وخوالج الامة يلتفت الى الغرب وعلاقته بتركيا فيقول : —

قل لاهل الغرب عنا حسبكم ان لا تراك بأساً وكرم
حرروا الشرق وذو افعالهم جدّدت صوته بعد الهرم
وكأنه يرى ما كان يراه كثيرون من الاجانب سبب التفريق بين الشرقيين فيقول : —
ولمن يطمع في تفريقنا كان للتفريق عهدٌ وانصرم
غير دين الحب لا دين لنا نحن في البؤس سواء والنعم
ولعلّ الايات التالية تمثل نزوات الشباب الوطنية عهدئذ وعصيتهم الشرقية الثائرة . وهي من قصيدة تليت يوم افتتاح « المبعوثان » (البرلمان العثماني) (٣) وتصف تألم الشرقيين من غطرسة الغربيين وشعورهم ان العهد الجديد سيضمن للشرقي حقوقه وكرامته . تبدأ بذكر

(١) راجع خصوصاً المشرق (بيروت) (٢) راجعها في مجلة الهلال ١٧ — ٨٧ (٣) للكتاب سنة ١٩٠٨

ما كانت عليه مصر وسوريا وما كان يمانيه أباة الضيم فيهما وفي سائر الاقطار العربية من صلف الاجانب حتى يحمل الناظم شعوره الى قوله : —

أترضي الذل من أيدي تقبلها كأنها للهدى والدين معتصم
ونحن نحقر في القطرين سيدنا ونكرم الزعنف الصعلوك بينهم
دعنا مسرى في دم ابن الشرق فانقلبت أهله لا همم فيهم ولا شيم

ويتقدم من هنا الى ذكر الانقلاب الدستوري وانبثاق النور الجديد من العرش العثماني وان هذا النور سيجلو ظلمات الهوان عن البلاد وسيربطهم معاً برابطة الوطنية الحقة والولاء لصاحب العرش ، ثم يلتفت الى الغرب فيقول متحمساً

لظنى من النيل للدانوب متقد الى العراق الى البحرين ملتهم
ان بكرمونا فان الشرق يكرمهم او يحقرونا فان الشرق منتقم
ومما يلاحظ ان هذه الحماسة كانت شديدة الاتقاد في شعراء المهاجر . كقول أحدهم (١)
حسب الغرب هبة الشرق نوماً ورماها بأنها وهيمته
كذب الغرب ان في الشرق قوماً بشفار الصمصام شقوا الدجيه

وليس ما قدّمناه إلا نماذج قليلة من الشعر الوطني الذي أنشأه الامل الدستوري في الاوساط الادبية المسيحية ، فما قولك بالاوساط الاسلامية وما نشأ فيها من حماسة شعرية وما أثارته من عواطف قومية والمسلمون عموماً أكثر ميلاً الى العثمانية وأشد نفوراً من السيطرة الاجنبية ومن الخطأ الفادح ان يساء الظن بتلك العواطف الوطنية وان يقال انها لم تكن الا من قبيل التزلف او المداهنة . قد تكون عواطف مغترية او سكران ولكنها كانت يومئذ تخرج من قلوب كان كثير منها طامحاً بالامل والاخلاص . واليك تركية لذلك قول أستاذ عرف يبعد نظره وترويه في الامور . فقد نشر له المقتطف خطبة اختارها من بين كثير من خطب ذلك العهد اذ رآها من أدل ما أنشئ في وصف تلك الحالة (٢) . وقد جاء فيها وصف دقيق لحالة العثمانيين قبيل الدستور كقوله — « كنا منذ بضعة أسابيع والصدر خائفة بما فيها . والنفوس واجمة من هول ما ترى من موقفها ، والعقلاء الزهاء لا يدرون ماذا يصنعون ولا ماذا يقولون . وكأنا أطبقت عليهم السماء أو سدّت عليهم منها منافذ الرحمة . وبيننا نحن في هذه الظلمة المدلّمة وفي حال من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلها ولا آباؤنا الاولون سطع علينا بقة نور القانون الاسامي فأشرق على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية الادبية »

(١) أداب القرن التاسع عشر شيعو ٢ — ١٧٣ (٢) المقتطف ٣٣ — ١٩٠٥ الاستاذ جبر صومط

ثم يتقدّم الى شرح معنى الدستور وتأثيره حتى يصل الى قوله — « ترون بما ذكرته في بيان حقيقة الدستور اني لا أرى ان أفرحنا به صيانيات تافهة . ولا احتفالاً لنا ومظاهراً لنا الخارجية تكريماً له ولحماته تهوسّات ضارة . بل هي مهمما بلغت مع القصد والحكمة قليلة في جنب أهميته ومقدار قيمته . وأي قيمة أعظم من قيمة الحياة — حياة الفكر والقول والعمل المشروع للفرد ، وحياة العزة والقوة والتوازن والاستقلال والاستبسال للامة . فمن أراد الحياة فليقل ليحيى الدستور العثماني والقائمون به ومن أراد الموت موت الذل والصغار والاستعباد فلا رحمه الله . وليت هذا الشخص من ابن جماعة العثمانيين الحرّة »

وقد شعر الاستاذ كما شعر أكثر العقلاء يومئذ بطغيان ذلك التيار الوطني وخشي كما خشوا ان يقود الى الغرور والتهوّر او ان يستغله أهل المآرب فناشد الناس قائلاً « دعوا التسرّع فان تسرّعكم لا يفيدنا الآن وان كنتم أخلص الخلقين وأغبر أهل الغيرة الحقّة على شرف العثمانيّة ومصلحة العثمانيين . انا في حاجة الى الخلقين أصحاب العلم والخبرة الذين قبل ان يقولوا يفكرون ويتروون وبعد ان يقولوا يفعلون كما يقولون . مثل هؤلاء تطمئن اليهم نفوسنا ونسلم اليهم قيادنا وتديرنا » ومن ظواهر الاعتزاز بالوطنية في ذلك الحين تلك الغارات الشعواء التي شنها الشعراء على بعض الدول الاوربية لتعديها على بعض الممتلكات العثمانية وضمها نهائياً الى أملاكها . كما فعلت النمسا بالبوسنة والهرسك . واليونان بكريت . ثم ما فعلته ايطاليا بطرابلس الغرب : فكان شعراء العربية على اختلاف نحلهم ومنازعههم يداً واحدة على المعتدين . وكان شعرهم غالباً كالبحر النائر يرمي صخور الشاطئ بالزبد الصاخب . كقول الشاعر اللبناني من قصيدة وطنية (١)

ألا من يبلغ النمسا كلاماً نسجته ونورته البنيان
بان عهودها كانت سراباً وكان ودادها (بلفاً) مينا
فلا مجد السنون الى التصافي سبيلاً ما تعاقبت السنونا
او النمسا تكفر عن ذنوب جنبها فاغتدت عاراً وهونا
أتحسب جارة الدانوب أننا نذل لمثلها ابدأ جينا

ولا ريب ان الشاعر كان في هذه الايات يعبر عن الشعور العام في المملكة العثمانية ، وقتلاً خطر يومئذ بياله ان « جارة الدانوب » ستصبح عن قريب حليفة الدولة العثمانية في الحرب العالمية . وفي حادثة كريت كان من تحمس العثمانيين عموماً ما حمل شاعراً لبنانياً آخر على نظم قصيدة بدوية النزعة ومنها (٢) : —

(١) شبلي الملاط — راجع شيخو ١٧٧ (٢) لامين ناصر الدين راجعها في ديوانه صدى الخاطر تحت موضوع قادة كريت وكذلك في شيخو ١٩١ على ان في الروايتين بعض الاختلاف

أظنَّ بنو اليونان ان سيوفنا تلمعن ام اخنى علينا التأخرُ
 ألم يذكروا بالامس ما كان بيننا على حين خضنا الموت والموت يزخرُ
 لعله يشير بذلك الى الحرب اليونانية العثمانية سنة ١٨٩٧
 صدمناهم تحت العجاجة حدمة كما راع اسراب الظباء غضنفر
 وكان لنا معهم وقائع لم تزل احاديثها في الخافقين تُكرَّر
 ومنها يخاطب اليونان : —

تحيَّنتُم وقتاً توات خطوبة لادراك امرٍ نيله متعذَّرُ
 وخلتم توالي الظلم اورث شعبنا خولاً واصبحنا على الهون نصير
 قهرناكم والملك قد كان ذاوياً فكيف وروض الملك فينان اخضرُ
 أي قهرناكم أيام عبد الحميد والدولة في حال البؤس فكيف الآن وهي زاهية بعهداها الدستوري الجديد
 فما ضمَّ إكريت بسهل فدونه صدام الرزايا والهلاك المقرُّ (١)
 ولشاعرنا اللبناني ثقتات كهذه في حوادث البلغار وأدرنه وحرب طرابلس الغرب وغيرها
 من الوقائع السياسية التي كانت مثاراً للخواطر قبل الحرب الكبرى
 ومثل ذلك تجده في الشعر العراقي . فالرصافي مثلاً ، وقد عرفنا انه كان قبل الدستور من
 الاحرار أو الناقين على سياسة الحكومة الحميدية ، اصبح بعده من المغالين في نصرتها ، المتحمسين
 في مقارعة أعدائها . وله قصائد رائعة يستنهض فيها المسلمين الى الجهاد ذوداً عن الوطن العثماني
 كقوله من قصيدة في الحرب الطرابلسية موضوعها « الى الحرب » (٢)

ألا انهض وشمر أيها الشرق للحرب وقبل غرار السيف واسل هوى الكتب
 ولا تقتر ان قيل عصر تمدن فان الذي قالوه من اكذب الكذب
 أأست تراهم بين مصر وتونس أباحوا حمى الاسلام بالقتل والنهب
 وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم ولكن جميع الغرب يؤخذ بالذنب
 وله أشدُّ من ذلك في هذه الحرب وفي أدرنه والبلقان وسواها . والظاهر ان اقامته في
 الاستانة قد أثرت كل التأثير في الناحية القومية الدينية من نفسه . فلما نشبت الحرب العالمية وخاضت
 غمارها تركيا الى جانب المانيا والنمسا اخذته الحمية الدينية كما اخذت كثيرين سواء فنظم قصيدة
 موضوعها « الوطن والجهاد » يدعو فيها المسلمين الى قتال أعداء الوطن والدين (اي الحلفاء)
 ولكي يدرك القارئ ما كان يسود بعض الاوساط العربية في ذلك العهد (أي قبل

(١) والظاهر ان هذا البيت حذف من القصيدة في صدى الخاطر (٢) راجعها وراجع اناها في باب
 الخريبات من ديوانه (بيروت ١٩٣١)

ان تبدّل الحال بظهور الدعوة العربية والثورة الحجازية ،) تنقل له منها بعض أياتها
الاولى — قال : —

يا قومُ إن العدى قد هاجموا الوطناً فانضوا الصوارم وأحموا الأهل والسكناً
واستنفروا لعدوّ الله كلّ فتىً ممن نأى في أقاصي ارضكم ودنا
واستهضوا من بني الاسلام قاطبةً من يسكن البدو والارياف والمدنا
واستقلّوا في سبيل الذود عن وطنٍ به تقيمون دين الله والسكنا
وبعد ان يجري شوطاً في هذا المضمار يلتفت الى مصر فيندّد بحكومتها (أو قل بسطانها يومئذٍ
ووزارته) لجاراتهم الانكليز والانقياد لسياستهم . ويعود بعد ذلك الى الوطن والدعاء له فيقول
لا زلت يا وطن الاسلام متصراً بالحيش يزحف من ابنائك الاًمتنا
إنّا نحبك حبّاً لا انتهاء له يستغرق الارض والاكون والزمننا
ويخصّ العراق بالقسم الاخير من القصيدة وما أشيع عن اقتراب العدو منه ، فيحضّر
العراقيين على الاستبسال في صدّه —

إن العراق لعمرُ الله مسبعةٌ تواب الأُسُد فيها من هنا وهنا
هم المغاور ان صالوا بملحمة فلا يرون لهم غير المنون مُنى
وبجري مجرى الرصافي من شعراء العراق محمد حبيب العبيدي ، وخيري الهنداوي ، ومحمد
الحسين كاشف الغطاء ، وبعد العزيز الجواهري وسواهم تمّن تفتح فيهم الدستور روحاً جديدة
فحملهم على مناصرة الخلافة والهجم على اعدائها في أوروبا ، وأضرَم فيهم النعرات الشرقية
والدينية ، حتى قال أحدهم من قصيدة موضوعها « بعد حرب الطليان والبلقان » . (١)

أظهر الغرب ما أجنّ من الغدر — وأبدى كوامن الاضغان
وأحاطت بالمسلمين علوجُ البغي — من كلّ جانبٍ او مكانٍ
أيها المسلمون هبّوا فليس الموتُ — الاً حياتكم بهوانٍ
قد دهاكم ويلٌ فماذا التماذي وأتاكم سيلٌ فماذا التواني
جاءكم جارف من الغرب تيّارٌ — يهدّ البنا وأُسّ المباني
ولحبيب العبيدي قصيدة اسمها « ألواح الحقائق » الفاها في المتدى الادبي العربي في الاساتنة
بعد خطاب له في الحرب الطرابلسية وهي تقرب من خمسمائة بيت وقد ضمّنها أهمّ الحوادث
التاريخية من عهد الرسالة الى زمن انشادها (٢) . وبما نقل الينا منها يصح ان نحكم انها تعبر

(١) محمد كاشف الغطاء ، راجعها في كتاب الادب المصري في العراق لروفايل بطي الطبعة الاولى ج ٢ — ٨٧

(٢) راجعها في الادب المصري : لبطي ١ — ١٤٨

تعبيراً جلياً عن هذه الهبة المعنوية في نفوس الشرقيين وعن أمانهم في ارجاع مجدهم الغابر ونفض ما كان قد لحق بهم من عار التأخر — كقوله —

كيف ترضى يا شرق ان يمشي الغرب اماماً وانت تمشي وراءه
أفلم يأن ان تجدد عهداً شهد الصبح فضله والمساء
أنسام الهوان دون المنايا انما الموت والهوان سواء

وهو يصل هذه النهضة الشرقية بمجد العرب الاقدمين ويختتمها بذكر مفاخرهم التاريخية . ويدعو بني الشرق عموماً الى النهوض والجري في سبيل العلى والتقدم . ومثل ذلك خيرى الهنداوي في قصيدته « أيها الشرق » ^(١) ، وقصيدته « فتاة سلا نيك » ^(٢) ومن هذه الاخيرة قوله متألماً —

أم البلاد أضاعك الاقوامُ فبكى مرابع مجدك الاسلامُ
يا أيها الشرق الذي قد عمه للغرب من بعد الشروق ظلامُ
ما الغرب أول ظالم لك بالذي يأتيه بل ابتأؤك الظلامُ
قد أهملوك وانت معقل عزهم فاستهوتك بوطئها الاقدامُ

ولقد يجوز ان تهم بعض شعراء ذلك العهد بمداهنة الأتراك وان شعرهم لذلك لا يعكس لنا الشعور العربي الحقيقي . وهنا نكرر قولنا اننا نؤرخ العواطف العربية كما تظهر في نقات أدباء العرب الشعرية ، ومهما تكن الاغراض النفسية وراءها فذلك لا ينفي حقيقتها وانها ناشئة عن الحوادث متصلة بالشعور العام . والحق يقال ان ما اختبرناه بأنفسنا ، وما عرفناه من اختبار الآخرين يدفعنا الى تنزيه كثير من الشعراء يومئذ عن المداهنة المقصودة ، ويميل بنا الى ان نعزو عما نيتهم الى ما أثارته الاحداث السياسية من شتى النعرات في نفوسهم

ففي أوائل العهد الدستوري كان الشعر العربي في سوريا ومصر والعراق مجلياً لالوان من الوطنية غير واضحة الحدود . ولكن كما ان ألوان الطيف اذا مزجت معاً كوّنت شيئاً واحداً هو النور . كذلك تلك الالوان العاطفية من دينية او قومية مرجعها واحد هو الاحساس الحاد بكرامة شرقية لم يعهدها الشرقيون او العرب منهم قبل ذلك العهد . وقد كان لنشوة الدستور يد في تعميق ذلك الاحساس والباسه حيناً لباس الجامعة العثمانية . وكانت تلك النشوة على اشدها في السنة الاولى من اعلان الدستور ايام كان الناس لا يزالون يطفرون فرحاً بزوال الاستبداد ، وينظرون الى المستقبل بعيون التفاؤل والاستبشار ، ثم اخذت بالتراخي تدريجياً

على ان النزعة الشرقية المصطبغة بالصبغة العثمانية ظلت بارزة في الادب العربي الى اوائل الحرب العالمية . وما يركي ذلك ما نظمته الشعراء سنة ١٩١٣ في حادثة الطيارين التركيين فتحي

(١) الادب المصري : لبطي ١ — ١٦٦ (٢) الادب المصري : لبطي ١ — ١٧١

وصادق وهما أول طيارين شرقيين ظهرا في سماء الشرق العربي . فلما وصلا سوريا ولبنان قابلهما
الادب العربي بهبة وطنية هزت اعصاب الناس وأثارت نخوتهم الشرقية او قل العثمانية . كقول
الشيخ مصطفى الغلاييني من قصيدة حماسية : — (١)

خيمنا فوق الرؤوس فأشرقت منا الوجوه وأزهرت انوارها
وفتح يا فتحي القلوب بزمرة احيا موات رجائنا تذكراها
وتزعنا منا اليأس وهو بلية شنعاء عممت قومنا اضرارها

ومثل هذه الحماسة الوطنية تتجلى في اقوال اكثر الشعراء لذلك العهد . ثم طار الطياران
يقصدان مصر ، ولكن القدر المحتوم لم يمهلهما فسقطا قرب طبريا وكان لمصرعهما رنة اسف
عمت جميع الاقطار العربية . وقد جعلهما الشعر العربي مثال الوطنية الشرقية المتحفزة لمباراة
الغرب . وفي ذلك يقول الياس فياض — (٢)

فتحي أطل من العلاء مكذبا من قال إنا أمة لن تقدما
من قال ان الشرق شعب خامل لا يستطيع مع الشعوب تقدما
اليوم قد جددنا لشبابه عهداً ينسبي عهده المتصرما
أهرقنا للعلم افضل مهجة كانت تراق على المظالم قبلما
هذا هو الدرس المفيد وهذه عظة الزمان فهل لنا ان نعلمها
من ليس يعرف ان يموت مكرماً هيئات يعرف ان يعيش مكرماً

ويتجلى شعور المصريين يومئذ في قول شاعرهم حافظ من قصيدة (٣)

أخت الكواكب ما رماك وأنت رامية النور
ماذا دهاك وفوق ظهرك مريض الاسد المحصور
ومنها خاطبنا فتحي : حاولت ان ترد الحجر والورود من العسير
فوردت يا فتحي الحمام وأنت منقطع النظر
وهويت من كبد السماء وهكذا مهوى البذور
ان كان اعيالك الصعود بذلك الجسد الطهور
فاسبح بروحك وحدها واصعد الى الملك الكبير

وعلى هذا النمط نظم كثير من الشعر الوطني في بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة وسواها
من حواضر العالم العربي

واذا قيل كيف ذلك والعرب يومئذ كانوا قد بدأوا يستنكرون سياسة الاتحاديين الاتراك

(١) المورد الصافي ٥ — ٢٤٣ (٢) المورد الصافي ٥ — ٣٠١

(٣) المورد الصافي ٥ — ٣٠٢ مطبعة المقطم ١٩١٦ ص ١٢٧ — ١٣٨

ويتشوقون الى حياة قومية وكيان مستقل بدليل ما نراه من جمعياتهم السياسية في مصر وغير مصر قلنا ان تلك الجمعيات لم تكن تملك من وسائل الدعاية ما يشيع في جميع الانحاء مبادئها او ما يجمع القلوب على نصرتها . فظل السواد الاعظم من ابناء العربية متعلقين بأهلهم الدستورية . لا يرون لهم من رابطة غير الخلافة العثمانية . ثم ان الحركة العربية الاستقلالية لم تكن قد نضجت نضجاً كافياً لتأصيل فكرة الانفصال عن الجامعة العثمانية . ويخيل اليها من دراسة عواطف الناس في ذلك الحين ان الزعماء الذين كانوا يعملون في سبيل الفكرة العربية لم يكونوا على بينة من هذا الامر . ولو راجعت الرسائل التي كان يتبادلها سرّاً امثال عبد الحميد الزهراوي ، ومختار بهم، ومحمد المحمصاني ، وسليم الجزائري ، ورشيد رضا ، واخوانهم من اعضاء المؤتمر العربي او الجمعية الاصلاحية ، لوجدت ما يزيكي قولنا ان الاصلاح الذي كانوا ينشدونه لم يكن يراد به اولاً القضاء على الرابطة العثمانية والاستهداف لمطامع الاستعمار^(١) . ولو عرفت تركيا يومئذ كيف تستغل شعور الناس لآلفت من الكتلتين التركية والعربية جامعة عزيزة الجانب صادقة الوطنية . لكن السياسة العنصرية الحادة حالت دون ذلك ، فكانت من الاسباب المعجلة لنجاح الدعايات الاوربية في الشرق العربي ، ثم لاشتعال الثورة العربية في اثناء الحرب الكبرى وسواءً أصبح استنادنا الى تلك الرسائل ام لم يصح فالواقع المشاهد ان الشعر العربي كان في اوائل العهد الدستوري أسرع الى الصفح عن مساوئ العهد الماضي والى تعزيز الرابطة العثمانية . ثم حدث الاحتكاك بين العنصرين التركي والعربي وأخذ البعض يلهجون بحقوق العرب في السلطنة وقد ظهر ذلك في الشعر العربي (كما سنرى) . على ان الشعر لم يقطع صلته بفترة بآماله الدستورية التي كان يشيد بذكرها . وقد ظل طيلة العهد الدستوري أميل الى التوفيق بين الاماني القومية والجامعة العثمانية ولوثأملنا لرأينا انه لم يصبح عدواً لهذه الجامعة الا بعد الثورة العربية والحرب العالمية

فليس من الغريب ان نراه من حين الى آخر يتأجج بالشعور العثماني إزاء بعض الحوادث الوطنية كآتي مرّ ذكرها من حوادث التعدي على الدولة في البلقان وطرابلس او من حادثة الطيران التي اضرمت القلوب في مختلف الاقطار حتى قال فيها شاهد عدل هو الدكتور هورد بلس رئيس جامعة بيروت الاميركية السابق وكان يوم الحادثة في مصر — « ان ما آنتسته من حماسة اخواننا المصريين وشدة استعدادهم لاستقبال الطيارين واقامة المآدب والاحتفالات اللائقة بهما جعلني اتصور شيئاً مما سمعته عن عظمة الاستقبال الذي جرى لهما في بيروت وعن الابتهاج الذي شمل الاهلين لمشاهدتهم الطيارين العثمانيين لأول مرة »^(٢)

(١) راجع هذه الرسائل في كتاب ثورة العرب (لاحد اعضاء الجمعيات العربية) (٢) مجلة السكينة

الانسان الآلة

لفليمور هوري

قدّر ان تكون فلسفة الفيلسوف الفرنسي ديكارت منشأ المشكلات الفلسفية والمعضلات التي لا يزال يعالجها اهل الفلسفة الى يومنا هذا . وقد أبنّت في مقال سابق نشره المقتطف تحت عنوان « العقلي والمادي » كيف ان قضية الفصل المطلق التي فصل بها ديكارت بين العقل والمادة أدّت الى كثير من النظريات والافكار المختلفة وكيف تعددت فيها وجوه المسائل والقضايا الفلسفية وما انتهت اليه في وقتنا الحاضر

ولدينا هنا مشكلة الانسان الآلة (man machine) ولكن هذه لم يثرها ديكارت بل خلقها فلاسفة القرن الثامن عشر الذي كان بنوع خاص خصباً بفلاسفة المادة وعلماء الطبيعة . الاّ ان فلسفة ديكارت كانت منشأ هذه المشكلة ومنبت غرسها واليك ايها القارئ بيان ذلك :

قضت فلسفة ديكارت بالفصل التام بين المادة والعقل وجعلت كلاً في دائرته الخاصة فلا تفاعل بينهما على وجه السببية ولا تداخل على الاطلاق . وقد ارتأى ديكارت هذا الرأي وجرّد الطبيعة من كل اثر للعقل خلافاً لمن تقدمه من الفلاسفة ليدع للعلم الطبيعي مجالاً لتفسير حوادث الطبيعة ونواميسها تفسيراً طبيعياً ميكانيكياً بحتاً . وعليه فلا يكون ثمّ من قصد في الطبيعة كما يزعم الفلاسفة ولا غاية لانه اذا سلّمنا بوجود قوة عقلية تدبر الكون فانتا نكون قد حكمنا بوجود العقل في الطبيعة نفسها وهذا غير ما يريد ديكارت . ثم ان ديكارت لم يقف عند هذا الحد بل اطلق هذا المبدأ حتى تناول العالم العضوي (organic world) ايضاً فجعل حياة الحيوان والنبات خاضعة لهذا الحكم وكذلك جسم الانسان لانه من العالم العضوي . فمنده ان حياة الحيوان ومثلها الحياة في الجسم البشري تتمشى على طريقة ميكانيكية بمحتة نظير الآلات الصماء كالساعة مثلاً او غيرها مما يدور بحركة ذاتية ميكانيكية غير ان الفرق بينهما ان المحرك في الساعة هو الرقاص اما في الجسم البشري فالحرارة المتولدة في القلب . ويقول ايضاً انه لا حاجة الى فرضاية قوة لتدير هذه الحركة الحيوية في الجسم فمجرد تركيب الجسم على هذه الصورة هو كتركيب ادوات الآلة كافي لتقوم الاعضاء بوظيفتها تماماً . وان وجود الدم والحرارة هو كل ما يقتضي لهذه الغاية يتضح مما تقدم ان ديكارت لم يطلق هذه اللفظة « الآلة » على الانسان بل على الحيوان فقط

فقال الحيوان الآلة (animal machine) لا الانسان . أما الفلاسفة الماديون الذين عاصروا فولتير مثل لامرتي وكونديتاك وتولاند وهارتلي وهولباخ وهلفيتيوس وديدرو وغيرهم من فلاسفة القرن الثامن عشر فانهم تناولوا هذه الفكرة ووجدوا فيها دعامة قوية لمقاصدهم ومبادئهم المادية فجلوها حجرة الزاوية واخذوا يبنون عليها ما شاء لهم التصور من غريب الآراء والافكار . وكان اول ما شرعوا فيه بهذا الصدد قولهم « اذا كان الحيوان آلة » فلماذا لا يكون الانسان ؟ « وما الدماغ » ؟ هو آلة الفكر كما ان اللسان هو آلة الذوق . وزعم هارتلي ان الفكر نتيجة اهتزازات ذرات الدماغ وهذه تتحرك تبعاً لنواميس طبيعية آلية . وذهب بريستلي وهو مكتشف الاوكسجين الى ان الاعمال والحركات الفكرية هي من نوع حركة الاجسام المادية . وقال كابانيس ان الفكر وظيفة الدماغ كما ان الهضم وظيفة المعدة وافراز الصفراء وظيفة الكبد . وفي سنة ١٧٧٤ وضع البارون هولباخ الالماني كتاباً في المذهب المادي تحت عنوان « نظام الطبيعة » يفسر فيه جميع النواميس الطبيعية وحوادث الكون بمجرد المادة والحركة فقط . ويزعم ان الفكر هو عمل الدماغ وليس خالداً سوى المادة . وانه لا يوجد شيء مما نسميه روحاً . ولا قصد ولا غاية في الطبيعة ولا خارجاً عنها . اما ارادة الانسان فهي غير حرة بل خاضعة حتماً لناموس الضرورة واحكام القدر وجملة القول ان هذا هو رأي الفلاسفة الماديين في العقل البشري وقد بنوه كما تقدم على نظرية ديكارت . ولما كان رأي ديكارت ايضاً انه لا علاقة ولا تأثير للعقل في اعمال الحياة العضوية تبادر لاذهان غلاة المادية انه اذا كان لا علاقة للعقل ولا تأثير في اعمال الجسم ووظائف الاعضاء فأى حاجة اليه . ان هو الا تابع من توابع المادة وخاصة من خواصها وليس له وجود مستقل عن المادة اصلاً

هذا وان للفلاسفة العقليين او الروحيين ردوداً حجة على آراء الماديين هذه ولكن ليس هذا مجال بسطها لاني قصدت بيان قضية الانسان الآلة حسبما تطورت بين ايدي فلاسفة المادة . على اننا اذا بسطنا رأي العلامة الفيلسوف الالماني هرمان لوتزي (١٨١٧ - ١٨٨١) وهو احد اعلام الفلسفة العقلية وقد حاول الجمع او التوفيق بين مختلف الآراء الفلسفية وخصوصاً بين الرأي الميكانيكي والمبدأ العقلي الروحي فانا نكون قد اشرنا الى رأي الفلاسفة العقليين بهذا الصدد وهو نقيض الرأي المادي المتقدم ذكره والى الاتجاه الفلسفي الغالب بعد القرن الثامن عشر يقول لوتزي « ليس الانسان مجرد مرآة تنعكس عليها صور الاشياء والحوادث الخارجية . ان العالم المادي الذي يسير سيراً ميكانيكياً لا يستطيع ان يفيدنا شيئاً عن الوجود المعنوي وأسرار الحياة العميقة ومقاصدها السامية . ان هذه جميعها لا يمكن ان يكون لها أثر في عالم ميكانيكي بحت . ومع هذا فلا بد من تفسير النظام الطبيعي وفقاً لهذه النظرية الميكانيكية . ان الجسم الحي انساناً كان او حيواناً يحيا ويقوم بوظائفه كما تقوم الآلة الصناعية بعملها تماماً ولا

فرق بينهما من هذه الجهة مطلقاً . ثم ان الفرق بين المواد الآلية وغير الآلية ليس بكون الاولى تمتاز عن الاخرى بوجود قوة حيوية فيها بل بتركيبها وترتيب أجزائها بنسبة بعضها الى بعض . وهذا الترتيب فيها هو نتيجة عوامل طبيعية تحدد لكل جزء صورته ووجهة تطوره وارتقائه . « وان رأياً كهذا اذا أخذناه بظاهره كما لا يدع مجالاً لحقيقة الانسان ومقاصده العظيمة ومطالبه السامية . غير أننا اذا تحرينا الاسباب الاولى والمقدمات التي نبني عليها الرأي الميكانيكي هذا نجد ان هذا هو غير الواقع . ذلك لان العالم الخارجي الذي نحاله ونعقده عالم الحقيقة اما هو عالم ظاهري فقط (phenomenal world) أي الذي تمثله لنا الحواس لا العالم الحقيقي بالذات — هو نتيجة شعورنا وادراكنا للمؤثرات الخارجية وتفسير العقل لها . بيد ان هذه الاحساسات والادراكات ليس الا تأثيرات عقلية في العقل نفسه ، وما الحس والادراك فينا بل والمبادئ العقلية التي نفسرها مختلف الحوادث والمؤثرات ، الا وظائف متنوعة في العقل الواحد الانساني اذا ما هو جوهر الاشياء الخارجية وبعبارة أخرى ماهي الحقيقة بالذات ؟ اننا اذا أنعمنا النظر وتحرينا الاسباب والمقدمات وجدنا ان الاستقرار يؤدي بنا الى نتيجة واحدة فقط وهي المبدأ التصوري (Idealism) ودليل ذلك ان الاشياء بالذات (١) (things-in-themselves) يجب ان تكون من طبيعتها ان تؤثر في غيرها وان تتأثر به . ان كائناً بهذه الصفة لا نجد الا في انفسنا فقط وما هو الا ذلك الجوهر في داخلنا والذي يؤلف وحدة الوجدان فينا وهو ما نسميه الروح او النفس . هذه الوحدة في الوجدان التي تستطيع ان تجمع بين مختلف التأثيرات الخارجية والداخلية وتؤلف منها أبدأ وحدة كاملة هي التي تحدو بنا الى الاعتقاد بوجود نفس فائقة الحس غير قابلة للتجزئة ومستقلة أو متميزة كل التمييز عن الجسد . وانه في النفس وفي النفس البشرية فقط نجد هذه الوحدة الدائمة بين الاشياء المتعددة والثبوت على حال واحدة وسط جميع عوامل التحول والتغير والنشوء لذلك فالجواهر التي يتكلم عنها العلم هي غير مادية بالمعنى المتعارف ولا يمكن تعريفها الا بانها أشبه الاشياء بوحدات لينتز (Leibniz's monads) او بانها مراكز قوة فقط كالتي نختبرها في أنفسنا . وحتى الدقائق التي في أدنى طبقات المادة ليست اشياء ممتدة جامدة كما توهم بل مملوءة حياة وحركة ونشاطاً . وان في الطبيعة درجات متفاوتة من الحقيقة ولكن أسماها العقل البشري بيد ان في أحط ضروب المادة أثراً من القوة العقلية ايضاً

هذا هو رأي الفيلسوف لوتزي في العقل والوجود المادي وهو يعبر به عن رأي معظم الفلاسفة العقلين فيما نعلم . ولعل فيه اشارة كافية لترينا ان في الوجود اسراراً لم تتجلى بعد للعقل البشري فلا يتوهمن الواهمون ان فلاسفة المادة فكروا الطلاسم وحلوا الانغاز ونفذوا بمادتهم الى اعماق الحياة . فهذه لم تؤت بعد للخلوق وأسرار الوجود لم تشرق بعد انوارها على عقول بني الانسان (١) هذا هو تعبير الفيلسوف الالماني كانت وهو يقصد به التمييز بين الاشياء كما هي في حقيقتها الاصلية وبينها كما تبدوا للحواس

العبقريّة والنبوغ

الفروق العقلية بين الوراثة والمحيط

للككتور - شربنف عبسيران

من الامور الظاهرة فروق البشر الجسدية فمنهم الطويل والقصير والاسود والايض والاصفر والبدن والنحيف واسود العينين وازرقهما الى غير ذلك . وكذلك نجد مختلف الفروق العقلية كالعبقري والاحق والذكي والابله والعاقل والمجنون والمفكر والجامد وهلم جرا . وليست الفروق العقلية اكثر من الجسدية فقط بل تفوقها شأنًا . نجد في كل امة وكل جيل افرادًا يسمون على اترابهم كما يسمو الجيل الشاخب على ما يحيط به من البقاع امثال كنفوشوس وسقراط والمعري وغليليو ونيوتن وباسكال وباستور وشكسبير والمنتبي وبهوفن وشوبرت والرازي واينشتين واضرابهم وهم معروفون عندنا . معرفة النجوم الساطعة في السماء . وتظهر امارات التفوق على المرء منذ ان يشب عن الطوق . فقد رجا باسكال والده ان يسمح له بدرس الرياضيات وهو صبي فرض طلبه ريثما يدرس اللغات والتاريخ وطالما كان يشاهده منكبا على درس الهندسة رغمًا عن مانعته لميوله الفطرية فاستطاع ان يحل عدداً من نظريات اقليدس . وكان يعزف موزارت الموسيقى في الرابعة من عمره والف قطعاً موسيقية وهو ابن ست سنوات . وظهرت بواكير بهوفن الموسيقية في الثانية عشر من عمره وكتب شلر روايته اللصوص وعمره ٢٣ سنة والف شكسبير كثيراً من رواياته وهو في الرابعة والثلاثين من عمره ^(١) ونظم المعري الشعر وعمره يقرب من الاربعة عشر سنة ومثله المنتبي

ونشاهد هذه الفروق بارزة في المدارس الابتدائية والعالية والجامعات فبعض الطلاب يحاولون اعوص المسائل الرياضية دون عناء ويعسر على غيرهم حلُّ أبسطها ويصل بعضهم الليل بالنهار درساً وسعيًا ولا يتوصلون الى درجة اقرانهم ممن لا يجهدون انفسهم بالدرس . ونعرف كثيرين ممن تبجروا في اللغة العربية وآدابها وتضلعوها من فلسفتها وصرفها ونحوها وبيانها وعروضها وسائر ما

يتعلق بها ولا يستطيعون رغماً عن ذلك نظم بيت من الشعر وزى آخرين يجهلون القواعد والقوافي ويأتون بمعجزات احمدة فالفرق بين مختلف الافراد ظاهرة في كل موهبة من المواهب في الموسيقى والشعر والرياضيات والتصوير وغير ذلك فالقوى العقلية محدودة في كل امرء بحسب وراثته ولا يفيدها التمرين الاً بقدر القوة المدخرة فيها

واول من اثبت ان العبقرية والمواهب العقلية وراثية هو السير فرانسيس غالتون وقد مرر بنا انه تتبع سير ٤١٥ شخصاً من مشهوري انكلترا يمتون الى ثلاثمائة اسرة ووجد في تلك الاسر ما يقرب من الالف مشهور

ويجدر بنا ان نقف ههنا لنميز بين العبقرية والنبوغ او الموهبة . ان ألسنة الناس والصحف والمجلات تلوك هذين اللفظين وتستعملهما في شتى المناسبات وتغدق بهما على لفيف كبير من البشر حتى ليخيل لنا ان ارضنا تهج بالعاقرة والتابعين فاذا نظم فلان قصيدة او كتب مقالاً في مجلة او جريدة دعتُهُ عبقريةً واذا ارادت التنويه بفضل فلان قالت عنه نابغة خرج هذان اللفطان عن معناها وامتنها اي امتهان

﴿ العبقرة ﴾ جاء في الطبعة الرابعة عشر من دائرة المعارف البريطانية تحت لفظة Genius انها من اصل لاتيني ومعناها المولود وكانت ترمز في العصر الروماني القديم الى عقيدة دينية خاصة وهي جونو Juno ربّة الزواج والولادة تقابلها لفظة هيرا Hera عند اليونان وهي ربّة النساء والزواج ثم انحرفت عن معناها الاصلي وصار يقصد بها العفريت أو الروح (Spirit) او الملاك الحارس وصارت تستعمل في الانكليزية مقابلة للفظه جن العربية وهي طائفة من الارواح الصالحة او الشريرة حسبما جاء وصفها في قصة الف ليلة وليلة^(١)

وجاء في تاج العروس : عبقر كجعفر بالبادية كثير الجن يقال في المثل كأنهم جن جعفر ثم نسبوا اليه كل شيء تعجبوا من حذقه او جودة صنعته وقوته وقال ابن الاثير قرية يسكنها الجن فيما زعموا فكلموا رأوا شيئاً فائثاً غريباً مما يصعب عمله او شيئاً عظيماً في نفسه نسبوه اليها وقبل العبقري الذي ليس فوقه شيء^(٢) وجاء فيه ايضاً تحت لفظة جن والجن بالسكسر خلاف الانس والواحد جني يقال سميت بذلك لانها تنقي ولا ترى كما في الصحاح وكانوا في الجاهلية يسمون الملائكة عليهم السلام جنّاً لاستتارهم عن العيون^(٣) . فنستنتج من هذا التعريف اللغوي ان العبقرة هو الجن وان العبقرية تقابل لفظة genius اللاتينية والانكليزية

﴿ النبوغ ﴾ جاء في تاج العروس نبغ الشيء كمنع ونصر وضرب اي ظهر نبغ الماء نبوغاً

(١) ملخص عن دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشر تحت لفظة genius

(٢) تاج العروس لفظة عبقر ص ٣٧٩ (٣) تاج العروس لفظة جن ص ١٦٥

نبيع بالعين ومن المجاز نبيع فلان ان قال الشعر وأجاده ولم يكن في ارث الشعر وفي اللسان ارثه الشعر ومنه سمي النوابع من الشعراء والنابعة الرجل العظيم الشأن والهاء للمبالغة^(١) ان لفظ نبوغ أكثر مقابلة للفظ Talent الانكليزية ومعناها الموهبة وبعد ان عرفنا معنى اللفظين اللغوي نأتي على تعريفهما العلمي : يعرف غالتون العبقري بأنه رجل ذو المواهب المتفوقة ويميز العبقرية عن المقدرة باننا لا نستطيع تجريد الاخيرة من اثر ذيب اما العبقرية فطبيعية تخلق مع المرء^(٢). ويجعل الشهرة مقياساً لتفوق الفرد ويقول يجب الانسان ان يظهر مقدرة بارزة في موضوع ما على الاقل ليحصل على شهرة عالية او ان يمتاز بآتي بشيء لم يستطعه غيره او ان يكون زعيم فكرة^(٣) ويجعل المتفوق او العبقري الرجل الذي يصل الى مرتبة لم يبلغها سوى ٢٥٠ من بين مليون او واحد من أربعة آلاف^(٤) ويفرق الدكتور لنزين العبقرية والموهبة او النبوغ. فالموهبة Talent هي أعلى مراتب من. أما العبقرية فمعددة المواهب والتفاوت بينها وبين الموهبة في التفوق العقلي كالتفاوت بين حق والاخرق في الانحطاط العقلي. ويوجد بين مليون شخص يختارون صدفه عدة نوابع موهوبين اما العباقة فقليلون جداً فكل عبقري نابغة او موهوب ولا يعكس. ومن رأيه انه ضرورياً ان يكون العبقري مبتكراً او مولداً Creative بل انساناً متعدد المواهب^(٥) العبقرية والجنون » يجعل بعض العلماء صلة بين العبقرة والجنون. وأول من قال القول العالم الايطالي لمبروزو وجاراه غالتون ولنز وغيرها ويأتون بشواهد متعددة على وجوبهم ان في أكثر العباقة والنوابع المشهورين ضرباً من الانحراف العقلي والانحراف على خاصة اذا كان لا يمكن الشخص من القيام بأود نفسه وحمايتها Self Preservation وتؤدي اهاب الشاذة الى حالة كهذه لان كثيراً من النابغين يقصرون عن القيام بتكاليف الحياة اليومية تسهل على الرجل المعتدل وما يصدق على الفرد من وجهة كفاء النفس في تحصيل العيش بق بصورة أكثر على الاسرة. فكثيرون من العباقة لا يتزوجون واذا تزوجوا كانت لهم الزوجية تسمية لانهم يفشلون في القيام بما تتطلبه الحياة الزوجية السعيدة فالنتيجة فناء تلك أسرة. ويوصف صاحب الحالة العقلية التي لا تمكن المرء من كفاء نفسه أو أسرته بـ « المضطرب Psychopathic » واقصى درجاته الجنون. وأغلب العباقة والنابغين لم يخلوا من ضرب من الاضطراب كفوقه وبسارك ولوتر ونيوتن وامير وفردريك الكبير وباسكال وروسو وشوبنهاور ووجنر ونيتمشه وتولستوى ونابوليون وأضراهم^(٦)

(١) تاج العروس لفظه نبيع ص ٣١ (٢) Hereditary Genius ص ٧ (٣) Ibid : ٩ ص ٩
المقدمة ص ٨ Ibid: (٥) Human Heredity p. 567 (٦) Human Heredity p. 609-613

ولا نسترسل في تحليل هذه الناحية لنعود الى موضوعنا الاصلي وربما عقدنا فصلاً خاصاً لهذا البحث في المستقبل . ينكر غالتون ان للمحيط تأثيراً في اكتساب القوى العقلية ومن أقواله المأثورة : إن التهذيب والمؤثرات الاجتماعية لا تؤثر في انماء القوى العقلية بقدر ما يؤثره التمرين في انماء عضلات ذراع الحداد . ويعترض البعض على غالتون بان ابناء المشهورين لا يكونون كآبائهم وحجة غالتون ان الفرد يرث ربع صفاته من أحد والديه والصفات الباقية من الأب الآخر او من أسلافه الماضين وإذا علمنا ان نطفة الذكر ونطفة الانثى تفقدان نصف عواملهما الوراثية قبل ان تتمزجا اتضح لدينا صحة قول غالتون . اضف الى ذلك ان عددًا كبيراً من العباقرة يموتون بلا عقب امثال بهوفن وشوبرت وغيرها

وقد توصل الدكتور فرديريك وودس في أميركا، (Dr. Frederick Adams Woods)^(١) الى نتائج تشابه نتائج السير فرانسيس غالتون فتتبع سير ٣٥٠٠ مشهور من مشهورى أميركا المدونين في قواميس كبار الرجال ووجد انهم يمتون بصلة قرابة بعضهم الى بعض بنسبة ١ — ٥

وإذا كان المحيط عاملاً في تكييف القوى العقلية فيجب ان يتساوى ابناء الملوك في هذه الناحية — ولا سيما أولياء العهد الذين تناح لهم جميع الاحوال الملائمة من تعليم وتهذيب وتدريب وثقيف وسائر المؤهلات التي تؤهل المرء ان يكون ذكياً خلوفاً مثقفاً . وقد تتبع الدكتور وودس المذكور في كتابه الوراثية في الاسر المالكة Heredity in Royalty فلم ير ان المساواة في المحيط التي تناح لكل فرد من الاسر المالكة تخلق منهم رجالاً متساوين في مواهبهم ويحسن الفرق بين الهوهنزولرين Hohenzollern المتفوقين بمواهبهم والهانوفرين العديمي الذكاء^(٢) وقد ذكر وودس على سبيل المثال فرديريك الكبير وايزابلا ملكة اسبانيا ووليم الصامت وغوستافس ادلفس Gustavus Adolphus مقابلة لهم مع غيرهم من المنحطين من نفس الطبقة

ولا ينكر ان الفرص تقسح المجال أحياناً لبروز المواهب الكامنة كما زاد عدد علماء الالمان في نصف القرن الاخير فلا تعزى هذه الزيادة الى ازدياد معدل ولادات هذه الطبقة بل ان تقدير العلم كان حافظاً لا يبرز تلك المواهب

وقد ناقش كاتل J. McKeen Cattell نظرية المواهب في درسه الف عالم من علماء أميركا وقال « لو ولد دارون في الصين سنة ١٨٠٩ لما كان دارون ولو ولد لنكن هنا (يقصد أميركا)

في نفس اليوم الذي ولد فيه ولم تكن الحرب الاهلية لما اصبح لنسكن . فلو استبدلنا الاثنين لما كان دارون في اميركا ولا لنسكن في انكلترا . . . » وقصده ان يبرهن ان الظروف هي التي تخلق الرجال . صحيح ان للظروف اي المحيط تأثيراً ولكنه تأثير ثانوي او يسير بالقياس الى المواهب الطبيعية . ربما لو ولد دارون بأميركا لا يكون دارون الذي نعرفه الآن ولكنه على كل حال ما كان يموت مجهولاً فالمحيط لا يخلق الرجال بل يبرز مواهبهم . فلما ساواة في المحيط تريد الفروق بين البشر أكثر مما تنقصها ^(١) ويجب ان يكون هناك مساواة في المحيط ليصبح كل امرئ ميسراً لما خلق له ودرس الدكتور بيركس ٢٠٠ ريبياً دفعوا الى من تبناهم حين ولادتهم او في السنة الاولى من العمر ^(٢) وقابلهم مع مائة ولد نشأوا في احضان آبائهم الحقيقيين ومن السهل تمييز تأثير الوراثة في الفئة الثانية لعدم وجودها في الاولى وكان تمييز ذكائهم وتأثير المحيط والحياة البيئية ممكنين فيهم فلو كان للتدريب وتقليد الآباء والمحيط تأثير في تكيف الاولاد لكان لزاماً ان يشبه الابناء المتبنون الذين تبنوهم مشابهة الابناء لآبائهم الحقيقيين ولكن النتيجة لم تكن هكذا بل ظهر ان تأثير الوراثة في هؤلاء الاولاد بنسبة ٧٥ — ٨٠ بالمائة وتأثير المحيط البيئي بنسبة ١٧ بالمائة . والمحيط البيئي اهم من المحيط المدرسي في امتحانات الذكاء ^(٣)

﴿ القياس ﴾ اذا كان للمحيط تأثير فيجب ان يصدق على اليتامى الذين يربون في الميتم اذ يعيشون في محيط واحد ويدربون نفس التدريب ويجب ان يختلفوا عن غيرهم ممن يختلف تربيتهم باختلاف الاسر التي يمتون اليها . وقد جاء درس الف يتييم في تكساس مخالفاً لهذه الفكرة لان الفروق بين اليتام الذين عاشوا في محيط واحد وتربوا تربية واحدة كانت كالفروق بين سواهم من غير اليتامى مما يدل على ان الوراثة لا المحيط هي الاصل في تكيف الشخصية

﴿ اللقطاء ﴾ وتتبع بعض العلماء في انكلترا عدداً من اللقطاء الذين أدخلوا المعاهد الخاصة فور ولادتهم فكان معدل ذكاء ابناء التجار وارباب المهن منهم ١٠١ بينما كان معدل اولاد الصناع labourers ٩٢ مع ان الفريقين تربوا في محيط واحد ولم يحتكوا بآبائهم وقد اتخذوا ضابطاً لهم control اولاداً من لندن عاشوا في احضان آبائهم وتربوا في المدارس العامة فكان معدل درجة ذكاء الطبقة العليا منهم ١٠٥ والسفلى ٩٦ وهكذا جاءت نتائج درس التوائم من وجهة

(١) Applied Eugenics p. 17

(٢) اختبروا في هذا السن لسببين « ١ » افساح الوقت الكافي لتأثير المحيط ان كان له ذلك التأثير

« ٢ » خشية اختيار العائلات الذكية الاولاد الاذكياء

(٣) Applied Eugenics p. 3

الاجرام وامتحان الذكاء والامراض وغيرها من العوامل مؤيدة لفكرة ان الوراثة هي العامل الاكبر في تكييف الفرد

﴿تلامذة المدارس﴾ قابل داف Duff ٧٣ تلميذاً من الممتازين بلغ حاصل ذكائهم ١٣٦ فما فوق سنة (١٩٢١-١٩٢٢) مع فئة اخرى حاصل ذكائها مائة اتخذها ضابطاً وتتبع سيرالفتمين في المدرسة فكانت نسبة الذين دخلوا المدرسة الثانوية من الفئة الاولى اكثر من الثانية ونال ٥٥ بالمائة منهم جوائز بينما لم ينل احد من الفئة الثانية اي جائزة. ولما قوبل بعض افراد الفئة الاولى الذين لم يدخلوا المدرسة الثانوية مع الذين دخلوها من الفئة الثانية فاقوهم في التهجئة وحسن التعبير وجودة القراءة ونطاقها وروح الطموح ولم يتقدم احد لنيل الشهادة الثانوية من الفئة الثانية عدا واحد بلغ درجة حاول بها نيلها بينما نال ٣٠ بالمائة من الفئة الاولى الشهادة و٧ لم ينجحوا و١٠ بدلوا مدرستهم و٢ كانوا صغاراً ولم يحاولوا دخول الامتحانات واثنان تركوا المدرسة . وذكر هولمز ولداً امتحن ذكاءه هولنورث بطريقة «ستانفورد- بينه» وعمره ٨ سنوات فقال ١٨٧ درجة وبلغت درجاته بعد مضي عشر سنوات ٤٤١ بينما كان معدل درجات هذا الامتحان ٤٤٠ فخرج من المدرسة بدرجة شرف ونال جائزة Phi Beta Kappa ^(١) ونال درجة معلم علوم وهو ابن ١٦ سنة ^(٢)

وقد حاولت مس أوتس تزييد ذكاء بعض البنات الناقصات العقل اللواتي تجاوزسنهن السادسة عشرة بتمرينهم تمرينات خاصة على القراءة وغيرها ولما امتحنتهم بطريقة «ستانفورد بينه» وجدت درجة ذكائهم تقدمت ونشأ هذا التقدم من مفردات الكلام وفهمه لا من تحسن ذاكرتهم او عاقلتهم (reasoning) ولم تستطع تقدير تقدمهن من هذه الناحية لانها لم تكد تتقدم ومتى كانت القوة العاقلة مفقودة فلا سبيل لمرينها

وتتبع الدكتور تيرمان ومساعدوه سيرة مائة ولد ذكور وأناث بلغ حاصلهم الذكائي ١٤٠ فما فوق ولا يبلغ هذه الدرجة من مجموع طلاب المدارس الا النزر اليسير فدرسوهم درساً مفصلاً من جميع النواحي قبل عهد الدراسة وبعدها فوجدوا أنهم تفوقوا بدروسهم طيلة حياتهم المدرسية ولم يرسب منهم احد بأي موضوع من الموضوعات ونالوا أحسن الجوائز وغير ذلك من الميزات التي يناها الممتازون. وظهر من تتبع سجلات أجدادهم أنهم كانوا يمتنون المهن التي تتطلب معدل المقدرة العقلية

(١) شارة اميركية ممتازة في الجامعات تدل على التفوق الجامعي

(٢) The Eugenic Predicament p. 72

أحد العدد الأكبر منهم من هذه الطبقة وكان أباء عدد منهم من رجال الأعمال وفريق يسير من رباب المهن الرفيعة (Skilled) وواحد بالمائة فقط من ارباب المهن الوضيعة (Unskilled) (١)
وقد فحص بيترس W. Peters الاختصاصي بعلم النفس تقارير عدد كبير من أولاد المدارس ووجد على الاغلب مشابهة بين الآباء والابناء وقابل تقارير الآباء مع اجداد الاولاد وتوصل الى نفس النتيجة فاستنتج ان أثر المحيط (كالتهديب اليبقي وما أشبه) ضئيل جداً في حياتهم التعليمية. وأجرى تجارب نفسية على عدد من التلاميذ الذين يمتنون بعضهم الى بعض بصلة نسب وقابلها مع تقارير آبائهم فوجد الفروق بين الابناء كبيرة حينما تكون كذلك في الآباء والعكس بالعكس وقد درس بيرسون وشستر والدزن تقارير خريجي جامعة اكسفورد وقابلوها مع تقارير آبائهم فوجدوها متقاربة

﴿ التوائم ﴾ فحص ثورنديك ٥٠ تماً فحصاً نفسياً فوجد ان مشابهم بعضهم لبعض ضعف مشابهة الاقارب غير التوائم ولكنه لم يميز بين التوائم المتماثلة وغير المتماثلة
ودرس المس غوردون ٢١٦ تماً في أحد ميّاتم كاليفورنيا فامتحنهم بطريقة « بينه » وكانت نتائجها قريبة من نتائج غيرها ولا يمكن ان تكون الفروق العقلية ناشئة عن المحيط في الميّاتم لان المحيط واحد

وذكر بونو حادثة تثبت ان مات أمهما وعمرها أسبوعان فحضر احداها ربيب من الحضر وبقيت في المدرسة مدّة أربع سنوات ثم انصرفت الى الاعمال التجارية وصارت أمينة لاحدى لشركات وكانت وظيفتها تقضي عليها بالتعجّال أحياناً في غير بلادها . ونشأت الأخت الاخرى في الريف وأنهت تحصيلها المدرسي ثم دخلت الجامعة وتزوجت عقب مدّة قصيرة من دخولها ورزقت بولد ثم انتظمت في سلك التعليم ومع ان هاتين الاختين عاشتا في محيط مختلف فانهما كانتا متقاربتين في عقليتهما وطباعهما (١)

﴿ الاسر ﴾ من المعروف لدى أكثرنا ان المواهب تسري بين الاسر سرانها في الافراد وأكثرنا يعلم عن كثير من الاسر العربية التي اختصت بموهبة من المواهب كأسر تي اليازجي والبستاني بالادب واللغة وأسرة المعلوف بالشعر . ونأتي الآن على ذكر بعض الاسر التي اختصت ببعض المواهب كالموسيقى والرسم والشعر والرياضيات والعلوم وما أشبه فمن هذه

The Eugenic Predicament p. 73-74 (١)

Human Heredity p. 558 (٢)

الاسر أسرة باخ Bach التي نستطيع ان نتبع مواهبها الموسيقية مدى خمسة أجيال في الذكور .
وظهر بين أولاد Johan Sebastian Bach ما لا يقل عن خمسة موسيقيين . ويستطيع المرء ان
يتبع الموهبة الموسيقية عدة أجيال في امرتي موزارت وفبر Weber واحداهما تمت الى الاخرى
بنسب وقد جمع H. Kurella مستندات عن ٢٨ أسرة استطاع ان يتبع فيها مواهب متفوقة في
الموسيقى مدى أربعة أجيال امثال أسرة بهوفن وشوبرت ولزت Liszt واسوء الحظ ان بعضهم
كبراهمس وبهوفن وشوبرت ماتوا عقيمين

﴿ الرياضيات ﴾ ومن الاسر المشهورة بالموهبة الرياضية اسرة Bernouillis التي اشتهر بها على
الاقل ثمانية رياضيين بارزين او تسعة

﴿ الصناعة ﴾ ومن الاسر المشهورة بالاختراعات الصناعية اسرة كروب الشهيرة بصنع الاسلحة
فقد ظهر تفوقها بهذه الناحية في النساء والرجال

وقد ذكر غالتون في كتابه التبوغ الوراثي بعض الاسر التاريخية المعروفة بمواهبها العسكرية
والسياسية امثال اسرة اسكندر الكبير ووليم اورانج . والكيمياء والطبيعي الفيلسوف Boyle المعروف
١٤ نسبياً من ذوي المواهب الخارقة . ومن الاسر المحتازة بمواهبها العقلية اسرة دارون وغالتون .
فالسير فرانسيس غالتون ابن عم شارلس دارون مؤلف كتاب اصل الانواع وغيره من الكتب
القيمة . واسرة ارasmus دارون Erasmus Darwin معروفة بتفوقها فاولاده (١) روبرت
دارون كان طبيباً معروفاً وعضواً في الجمعية العلمية الملكية (٢) وكان يرحى لابنه شارلس دارون
الذي مات بسن العشرين مستقبلاً باهر . وشارلس روبرت دارون الذي تنسب اليه نظرية التطور
هو ابن روبرت وقد تزوج Ema Wedgwood^d وقد كان والدها من مشهورى المؤسسين لصناعة
الحزف بانكلترا فولدت اربعة اولاد وهم فرانسيس دارون النباتي الشهير وجورج الفلكي المعروف
وهوراس المهندس البارع وليونارد المؤلف في السياسة والاقتصاد ورئيس جمعية تحسين النسل
سابقاً . وتبع Primfall سيرة ٩٥٦ عالماً من علماء اميركا وتوصل الى نتائج تقرب من نتائج غالتون
ووجد علاوة على ذلك ان تزواج لذوي المواهب امر متعارف الى حد ما فنحو من ٢١ عالمة من
عالمات اميركا تزوجن علماء بعلم ايوان

هذا وشل من بحر من هذا الموضوع الواسع وفيه البراهين الساطعة على ان الوراثة هي
العامل الاكبر في تكوين الشخص وان اثر المحيط ضئيل اليها وقد اكتفينا بهذا القدر خشية الملل

تفرق المجرات

مفاتيح الموضوع

إذا ثبت الرأي الحديث في ظاهرة تفرق المجرات كان اكتشاف هذه الظاهرة الفلكية عجيبة في الطبقة العليا بين المكتشفات العلمية الباهرة في جميع العصور . ذلك ان الصورة الكونية التي رسمت وفقاً لهذا الرأي تمثل لنا الكون وقد اخذت أجزاءه الكبرى في الابتعاد بعضها عن بعض ، بسرعة تزيد في بعضها على سرعة دقائق « ألفا » المنطلقة من الراديوم . فكأن الكون فقاعة الصابون ، مضت تتنفخ وتتفخ ، حتى غدا ما على سطحها وما فيها من ذرات وجزيئات يتبدل من بعضه عن بعض بسرعة عظيمة . وقد طلع هذا الرأي على العلماء فجأة فأخذوا به حتى كادوا يكون انفسهم ، وعجزوا عن تفسيره تفسيراً مقبولاً عند جمهورهم ، لما فيه من الغرابة والجرأة هذا الموضوع يعالج من ناحيتين ، إحداهما ناحية الحقائق التي اثبتتها العلماء بالرصد والتصوير الثانية ناحية الآراء التي تفسر بها هذه الحقائق

كان هبل Hubble^(١) زعيم هذا البحث الجديد . وكان هيوماسون Humason ساعده^١ . أما كيف دخل هيوماسون ميدان البحث الفلكي وصار من أعلامه ، فقصه عجيبة . كان والد هيوماسون كان صاحب مصرف في كاليفورنيا . ولكن الولد كان راغباً عن دراسة وعن أعمال المصارف . وكان يرى من سهول باسادينا بكاليفورنيا قمة جبل ولسن مشهورة فذهب الى فندق قائم على مقربة من المرصد المشهور ، وجعل يخدم فيه ، وأنا يسوق لارته ومركباته لنقل ما يجب نقله اليه من المدينة عند السفح . وأنا يساعد موظفيه وخدماته في الأعمال . وعهد اليه في أحد الايام بأن يسوق مركبة تجرها بقال ، وكانت المركبة تنقل حمولة علمية ثقيلة الى المرصد . فالتصل ببعض رجاله ، فعطفوا عليه وكان يسدعي للقيام ببعض أعمال في حجرة الساعات او في حجرة التصوير . وما لبث الفتى حتى برع في أساليب تصوير الضوئي Photography^(٢) ثم تزوج ابنة أحد رجال المرصد ومن ثم أكب على دراسة

(١) راجع مقتطف ابريل ١٩٣٨ صفحة ٣٥٥ مقال « المجرات » (٢) فضلاً استعمال لفظي التصوير الضوئي « على » التصوير الشمسي » لان التصوير قد يتم في ضوء المغنيزيوم مثلاً لا بضوء الشمس

علم الفلك وغدا يعتمد عليه في كثير من أعمال التصوير النجمي وفي سنة ١٩٢٢ بلغ من تقدير مدير المرصد لبراعته ان عينه في منصب رسمي بين رجال المرصد وأتاح له استعمال المراقب الكبيرة

بعد ان أثبت هبل — على نحو ما بينا في المقال السابق — ان وراء مجرتنا عوالم لا تحصى النفت هو وهيو ماسون الى موضوع فلكي جديد كان قد طرقه أولاً عالم فلكي آخر هو صليفر Slipher مدير مرصد فلاغستاف بولاية اريزونا الاميركية وهو المرصد الذي كشف فيه أولاً السيار التاسع « بلوطو »

كان صليفر قد عني بدراسة طيوف المجرات الحلزونية وهي المجرات التي خارج مجرتنا لانه وجد ان قياس بعدها بطريقة اختلاف الزاوية لا يجدي . فالتفت الى دراسة طيوفها لعله يستطيع ان يبين حركتها من خطوط الطيف . وهذه الطريقة تعود الى العقد السابع من القرن الماضي وصاحبها الاول عالم انكليزي يدعى هجنز Huggins وهي قائمة على مبدأ طبيعي اكتشفه أولاً عالم بوهيمي يدعى كرستيان دوبلر Doppler في سنة ١٨٤٦ ويعرف بمبدأ دوبلر . ولعل خير وصف لمبدأ دوبلر هذا ضربٌ مثلٌ عليه . ذلك ان القطار الصافر اذا كان مقترباً منا علا صفيره واذا كان مبتعداً عنا انخفض صفيره . فأمواج الصوت في الحالة الاولى تتلاحق في مدى يقصر باقتراب القطار فتقصر اذا قصر فيرتفع الصغير . أما اذا كان القطار مبتعداً فان أمواج صفيره تتلاحق في مدى آخذ في الاستطالة بابتعاد القطار عن السامع ، فتطول الامواج فاذا طالت انخفض الصغير . وقد كان مبدأ دوبلر مقتصر على عالم الصوت وأمواجه . ولكن اللون في الضوء يقابل الارتفاع والانخفاض في الصوت . فالاحمر في الضوء اقل تذبذباً وأطول أمواجاً من البنفسجي في الطرف الآخر من الطيف . فاذا طبقنا مبدأ دوبلر على الضوء قلنا انه اذا كان هناك جسم مضيء ضوئاً يقترب منا تلاحقت امواج ضوئية في مدى متقاصر فتقصر الامواج فيتحرف فيه اللون من الاحمر الى جهة البنفسجي . وعلى الضد من ذلك اذا كان جسم مضيء ضوئاً بنفسجياً يبتعد عنا تلاحقت امواج ضوئية في مدى متطاول فتطول وينحرف فيه اللون من البنفسجي الى جهة الاحمر . ولا يخفى ان في طيوف النجوم خطوطاً مميزة لها . فاذا قلنا الآلية المتقدمة وكان لدينا طيف لجسم مضيء ووجدنا في هذا الطيف الخطوط الطيفية المميزة في غير مكانها المألوف وانها حادت الى جهة الاحمر ، قلنا ان ذلك الجسم مبتعد عنا . واذا كان الحيود الى جهة البنفسجي قلنا ان ذلك الجسم مقترب منا . ومقدار الحيود يدل على سرعة الابتعاد او الاقتراب

واذن ففي وسع الباحث الفلكي ان يتخذ من مقدار الحيود مقياساً لسرعة ابتعاد الجسم المضيء او اقترابه . وقد كان هجنز اول من اعتمد على هذا المبدأ في دراسة حركة الاجرام

السموية . فأخذ طيوف بعض الاجرام السماوية وتبين فيها الخطوط المميزة لبعض العناصر فيها . ثم قابل مواقع هذه الخطوط بمواقع الخطوط المقابلة لها في طيوف اجسام منيرة ثابتة على سطح الارض . فوجد ان الخطوط المميزة للعنصر الواحد في طائفتي الطيوف لا تتوافق . فأُسند الخلاف الى حركة الاجرام السماوية وثبوت الاجسام التي على الارض . فلما أعلن رأيه هذا في سنة ١٨٦٨ قوبل بكثير من الريب . ولم يَقم له الوزن الصحيح الا بعد ان أُعيدت تجاربه واتقنت وسائل تصوير الطيوف ودراستها . وعلى هذه الطريقة اعتمد صليفر في دراسة احدى المجرات الحلزونية فوجدها تدور بسرعة عظيمة . فطرف منها يقترب من الراصد الارضي بسرعة لان الخطوط في طيفه تحيد الى البنفسجي والطرف المقابل يبتعد عنه بسرعة لان الخطوط في طيفه تحيد الى الاحمر واجتمع لديه في سنة ١٩٢٨ حقائق عن حركة ثلاثة واربعين سديماً من أقرب السدم الى الارض فظهر له انها جميعاً آخذة في الابتعاد عنا . الا ان صليفر لم يدرك مغزى هذه الارقام فلما اتجه اليها هبل وعني بها تبين صلة غريبة وثيقة بين سرعة ابتعاد هذه السدم وابعادها . وان سرعة الابتعاد كما تقاس بالحيود الى جهة اللون الاحمر في خطوط طيوفها تزداد وفقاً لبعدها عن الارض . فالسدم البعيدة أسرع ابتعاداً من السدم القريبة . فهل هذه الصلة بين البعد وسرعة الابتعاد سرعة اساسية ؟ وهل يمكن تطبيقها على الآفاق الكونية التي وراء ما بلغناه بمراقبتنا ومصورتنا من رحاب الفضاء ؟ وهل جميع السدم آخذة في الابتعاد عن الارض ؟

ما كادت ترسم هذه الاسئلة في ذهن هبل حتى ثبت له ان لا بد من امتحان هذه الصلة ليعلم حقيقة أساسية هي ، ام ظاهرة عارضة ؟ وان هذا الامتحان يجب ألا يقتصر على السدم التي في نطاق ما بلغناه بالآتنا من الفضاء ، بل يجب ان يشمل كذلك أبعد ما يمكن ان نبلغه بها . واذن فالامر الاول الذي يتعين عليه هو ان يقيس ابعاد السدم بالاعتماد على الطريقة التي كشفها المس لقيت — طريقة المتغيرات القيفاوية (مقتطف ابريل ١٩٣٨ ص ٣٥٥) — وثانياً عليه ان يعين مقدار الحيود الى الاحمر في طيوفها بالطريقة الطيفية التي ابتدعها هجنز وجاراه فيها صليفر . أما العمل الاول فأخذه على عاتقه . وأما العمل الثاني فعهد به الى صاحبه هيوماسون . وأنبأ مدير المرصد بما ينوي فأتاح له استعمال المقرّب الكبير الذي قطر مرآته العاكسة مائة بوصة

ليس من السهل ان ترسم طيوفاً للضوء القادم الينا من سدم تبعد عنا ملايين من سني الضوء بل ان سنة الضوء نفسها صورة ذهنية لا تكاد ندركها معنى بالقياس الى الابعاد على سطح الارض لان سرعة الضوء ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية الواحدة . وفي السنة ٣١٥٣٦٠٠٠ ثانية على اعتبار السنة ٣٦٥ يوماً . فكيف بنا اذا شئنا ان نتصور مليون سنة ضوئية او عشرة ملايين او مائة مليون ! وكذلك كان على هيوماسون ان يقي الضوء الواصل في سديم معين ، مخترباً هذا

الجو الحافل بالسدم والنجوم ، واقعاً من أنبوب المرقب على شق ضيق في المطياف المتصل به . ثم انه كان يتعين عليه ان يرقب ذلك الضوء الليل كله حتى يبقى انبوب المرقب مسيراً لمصدر الضوء مع دورة الفلك ، فلا يحيد عنه والا اختلط ضوءه الواقع على المطياف بأضواء أخرى

نعم ان للمرقب اجهزة ميكانيكية غاية في الدقة ، يمكن ضبطها فتحفظ المرقب مسيراً للجسم المرصود ، ولكن سرعة حركة المرقب تتغير قليلاً بتغير الحرارة ، فلا بد من المراقبة الدقيقة للفوز بالتناجح الدقيقة . ثم يأخذ الليل في الانقضاء ، ويقرب الفجر من الانبلاج ، فيجب حينئذ ان تعطى لوحة التصوير الحساسية ، حتى الليل التالي ، وكذلك حتى الليل الذي يليه ، حتى يتم تصوير السديم ، وهو كثيراً ما يستغرق من سبعين الى خمس وسبعين ساعة ، اي من ثماني ليالٍ الى عشر ليالٍ من العمل المضي . وليس بالسهل ان تقضي سبع ساعات او ثماني ساعة كل ليلة مدى ثماني ليالٍ او عشر ، وانت ترقب نقطة من الضوء الخفي ، ولكن هيوماسون نهض بهذا العمل الاخاذ ، ولم يقتصر على سديم واحد بل صور عشرات ومئات

بعد ذلك يؤخذ الفلم المصور ، ويحمض ويثبت في حجرة خاصة بالمرصد ، ثم تؤخذ صورة الطيف ويبدأ البحث فيها عن الخطوط المميزة للعناصر ، ليعلم هل هي في مكانها ، ام هي حائذة عنه الى جهة ما ، وما مبلغ الحيود . وهذا الضرب من العمل دقيق الدقة كلها . لان طيوف النجوم والسدم ، حافلة بالخطوط الدقيقة المتلازمة ، فكيف بها اذا كان الطيف في صورة طولها عشر بوصة . وكثيراً ما كان هيوماسون لا يتبين شيئاً واضحاً فيعيد عمل التصوير من اوله . فاذا تبين خطوط معينة معروف مكانها في طيف جسم مضيء ثابت ، قابل المكانين وعين مقدار الحيود وعلى اساسه تقدر سرعة السديم

كان تقدير سرعة السديم ، وعلاقة ذلك ببعده عنا ، منوطاً بالذكور هبل . ولم يكن هذا العمل بالعمل العادي . هنا رأي يقول انه كلما بعدت السدم زادت سرعة تباعدها . وهذا صور دقيقة فيها خطوط مبهمه تدل على انحراف الخطوط الطيفية . فهل يثبت الحساب ، ان السدم جميعاً آخذة في الابتعاد عنا وفي الابتعاد بعضها عن بعض ، وهل يثبت الحساب كذلك ان سرعتها تزداد بالقياس الى بعدها عنا ؟ لذلك كان البحث في كل صورة من هذه الصور ، وكأنه استكشاف سيار جديد . وكانت النتيجة ان جميع الصور ايدت الرأي السابق — اي ان السدم جميعاً آخذة في الابتعاد . وابتعادها عنا اسرعها ابتعاداً

ومضى هبل وهيوماسون في سبر اغوار الفضاء واستخراج النتائج من الصور التي تتجمع عندها . ثم اخذا يرتبان تلك النتائج في جدول . هوذا السديم المرقوم N.G.C. 385 في صورة الفرس الاكبر بعده عنا ثلاثة وعشرين مليوناً من سني الضوء وهو آخذ في الابتعاد بسرعة ٢٤٠٠

ميل في الثانية . ثم هناك سدم أبعد من السديم السابق وأسرع . فتمة السديم المرقوم N.G.C. 2562 في عنقود السرطان بعده عنا تسعة وعشرون مليوناً ونصف مليون من سني الضوء وسرعة ابتعاده عنا ٣٠٠٠ في الثانية . أما السديم في فرساوس فبعده ستة وثلاثين مليوناً من سني الضوء وسرعة ابتعاده ٣٢٠٠ ميل في الثانية . والسديم N.G.C. 4884 الذي في شعر برنيقة بعده خمسة وأربعون مليوناً من سني الضوء وسرعة ابتعاده ٤٧٠٠ ميل في الثانية . وفي صورة الدب الأكبر عنقود اكتشفه ولتر باد من بضع سنوات وقدر بعده بخمسة وثمانين مليوناً من سني الضوء وهو بحسب هذه الصور العجيبة أخذ في الابتعاد عنا بسرعة ٩٥٠٠ ميل في الثانية . ولما كشف عنقود الاسد في سنة ١٩٣٠ وعرف ان بعده ١٠٥ ملايين من سني الضوء صور طيفه فاذا الصورة تقول انه يبتعد عنا بسرعة ١٢ الف ميل في الثانية . وفي التوأمن عنقود يبعد ١٣٥ مليون سنة ضوئية ويبتعد بسرعة ١٥ الف ميل في الثانية . وفي العواء عنقود فيه سديم يبعد ٢٢٠ مليون سنة ضوئية وسرعة ابتعاده بحسب هذه الصور ٢٤ الف سنة ضوئية في الثانية **ميل في الثانية**

عدد السدم التي رصدت وصورت	سرعة الابتعاد بالاميال في الثانية	المسافة بملايين سني الضوء	الصورة السموية
٢٣	٧٠٠	٦	العذراء
٤	٢٤٠٠	٢٣٥	الفرس الأكبر
٤	٢٩٠٠	٢٤	السمكتان
٢	٣٠٠٠	٢٩٥	السرطان
٤	٣٢٠٠	٣٦	فرساوس
٨	٤٧٠٠	٤٥	شعر برنيقة
١	٩٥٠٠	٨٥	الدب الأكبر
١	١٢٠٠٠	١٠٥	الاسد
١	١٣٥٠٠	١٢٠	الاكليل الشمالي
٢	١٥٠٠٠	١٣٥	التوأمن
١	٢٤٠٠٠	٢٢٠	العواء

هذه هي حقائق الموضوع . اثبتها بالرصد والقياس باحثان متسكنان . فما مغزاها ؟ أعني ان الكون أخذ في التفرق والتشتت ؟ وما صفة هذا الكون وما صورته ؟ هذا موضوع المقال التالي

الشيخ ابو علي

ابن سينا

بقلم مؤرخ مؤدب زاده

صاحب جهره نما الايرانية

— ٢ —

ان أبا علي كما نرى في سيرته كان من نوابغ عصره الذين لا يشقُّ لهم غبار فان عبقرية الفذة مكنته من أن يتقن في زمان قليل علوماً لم يتمكن غيره من فهمها واقتنائها إلا بعد عناء شديد وممارسة تحتاج الى زمن ليس بالقليل . نعم ان هذا الرجل اللوذعي العظيم قد حوى ما استصى على الناس من العلوم والمعارف في ابان شبابه وأحاط بها إحاطة تامة وفهم مسائلها وأوضح ما أشكل منها وكشف غطاء أسرارها وشرح نكاتها الدقيقة ولم يترك باباً من العلم إلا طرقة ولم يبق مسألة إلا نظر فيها وبلغ به الامر انه لم يحصل له اي تفاوت في زمن الكهولة عن زمن الشباب الذي هو أوان الطيش والعيش تضطرب فيه الافكار وتزل في الاقدام فكان له في شبابه ما للشيوخ من الافكار والمسائل في شتى العلوم والمعارف

ومن هنا قال بعضهم ان دماغه كان مخلوقاً للفلسفة ومعجوناً منها بل في وسعنا ان نقول ان دماغ أبي علي كان خلوقاً للفلسفة وموجداً لها . فقد كان للرجل ذكاء وفطنة قويان نادران قلما وجدا في شخص فكانا عاملين قويين في استخراجاته ومستنبطاته في الطب ومعالجة الامراض فقد استنبط بفضل هذه المواهب ما ربما عجزت عنه اليوم الافكار مع ما في متناولها من الوسائل السكاملة التي جهزها بها العلم

يقال انه أصيب مرة بهداع فخيّل اليه ان مادة من المواد قد توجهت الى دماغه فاذا لم يدفعها بأضمة ولطخات خارجية احدثت قرحة في دماغه فبادر الى مداواة نفسه ونجح فيما استنبط وفضلاً عن هذا الذكاء النادر والفطنة التي فاق بها أهل عصره كانت جميع قواه في حد الاعتدال والكمال فكان متفرداً في القوى المادية والمعنوية وملتصفاً بها . ولاجل هذا يمكن



ابن سینا
کاتخیلہ و رسمہ جبران خلیل جبران

ان يقال عنه انه كان انساناً معتدلاً تام القوى ونحن نعلم حق العلم ان لا اعتدال القوى المادية اثره الفعّال في اعتدال القوى الفكرية . والفلسفة الجديدة تبرهن على هذا وتثبتنا لهذا وكان أبو علي من الوجهة الفكرية من أعدل الفلاسفة المشائين وكانت طريقته أقرب الطرق للبرهان والحقيقة وفضلاً عن هذا فإن القوى المذكورة قد اكتسبت الرجل قوة من الاجتهاد والمثابرة على الاعمال تناسبها تمام المناسبة ولذلك زاده قد تمكّن من اعمال القوة المادية والروحية واجتني منها ثماراً ناضجة وأحرز منها نتائج باهرة لا يستهان بها بل لا يحصر مداها . فقد روى لنا أبو عبيد : قال عند ما وصل منطق كتاب النجاة الى شيراز أورد عليه علماء تلك المدينة بعض إشكالات أرسلوها للشيخ على يد أبي القاسم الكرماني فتناول الشيخ الرسالة وراح يشتغل بأمور كانت لديه وكان وصوها عند الاصيل فقضى الشيخ تلك الليلة مع أبي عبيد ولكن أبا عبيد يقول لم يتنفس الصبح حتى وجه اليّ فخضرت ووجدته جالساً في مصلاه فناولني الجواب وكان مكتوباً على خسين صحيفة

ويروي لنا هذا الرجل أيضاً ان ابا علي قد ألف مبحث الآهيات والطبيعات من كتاب الشفاء سوى مبحث النبات والحيوان في مدّة لا تزيد على عشرين يوماً ولم يحتج في تأليفه الى مراجعة اي كتاب واليوم لا يمكننا ان ندرس ونتفهم ما كتبه هذا العبقري في أقل من سنتين . فانظر الى حافظة هذا الرجل واستحضاره للمسائل والمطالب ثمّ تصوّر شخصيّة الفدّة . ولعلّ هذه لقوى والحافظة والذكاء النادر وتمكنه من ممارسة العلوم والاحاطة بجميع المسائل وفهم المطالب أكسبته في مجالس الدرس والتقارير تلك الحدّة التي طالما أشار اليها المؤرخون وصرّحوا بها في كتبهم ومؤلفاتهم . فقد ذكر الشهرزوري في عدّة مواضع من كتابه تاريخ الحكماء ان أبا علي كان يحدّ ويكثر من ذم العلماء ولذلك كثير أعداؤه والحاقدون عليه وأخذوا يسعون بشق طرق في احتقاره واستصغاره . وزى كل هذا واضحاً مكتوباً في رسالاته ومنها رسالته المسماة بالأضحوية وقد قال في أولها «وقد اتابني حوادث وصيّت عليّ مصائب ونحن لو أصيبنا بها لجبال الرّواصي لتصدّعت وانددت منها »

ومنها معارضة أبي علي لأبي القاسم الكرماني وأبي علي المعروف بمسكويه وهي دليل على هذه الدعوى . يقال ان أبا علي مرّ يوماً على مجلس درس لمسكويه فرمى اليه بحجزة وقال له ما مساحتها ؟ فناوله مسكويه رسالة كان ألفها في علم الاخلاق وقال له يجب عليك أولاً ان تسعى في تهذيب أخلاقك

لا ريب في ان الامر لا يخلو من مبالغة وان أكثر هذه الامور قد نسبها اليه أعداؤه خصومه الكثيرون في حياته وبعد مماته

وكيف يمكن ان يصدق ان رجلاً بلغ من العلم والحكمة مبلغاً فاق به الاقران والارباب
يكون على جانب عظيم من سوء الخلق والحدة التي تلوث سمعته ؟

فاذا سلطنا جدلاً بما يقال عنه فانا لا يمكننا إلا أن نعتز بأن أبا علي كان من أعظم الفلاسفة
بل كان على رأس اولئك الذين ثقفهم المدنية الاسلامية الزاهية وأحجبههم ذلك العصر الذهبي
الزاهر . فقد درس فلسفة أرسطاطاليس من دون إلمام باللغة الاغريقية او اللاتينية ففهمها بفضل
قواه النادرة وذكاؤه العجيب ومع انه لم يكن لديه إذ ذاك سوى تراجم ناقصة فقد تمكن من أن يتكلم
فيها ويقررها أحسن تقرير ويدينها بياناً ما عليه من مزيد حتى نسخت مؤلفاته كتب المتقدمين
ورغب فيها الناس ورغبوا عن كتب أرسطاطاليس فاحتلت هذه مكانها

ولم ينكر المتقدمون ولا المتأخرون مقامه هذا وقد أقروا له بالفضل واعترفوا له بأنه أحق
استاذ قرر تعاليم أرسطاطاليس وقد عرضوا عليه كل مسألة أشكلت عليهم واخذوا برأيه وجعلوا
أقواله وآراءه مستنداً لهم في اثبات المسائل الفلسفية والحكمية . ومن جملة فلاسفة الاسلام
وعلمائهم الذين يشار اليهم بالبنان ابو حامد الغزالي فقد قال في مقدمة كتابه (تهافت الفلاسفة)
ان أقوال المترجمين لكلام أرسطاطاليس لا تخلو من تبديل او تحريف يحتاج الى تفسير او
تأويل وقد صار هذا سبباً للنزاع بينهم وبين اكبر فلاسفة الاسلام نقلاً وتحقيقاً اي الفارابي وابن
سينا ، ولذلك فنحن نبذنا ما اختاراه وقالنا بصحته لاتنا لا نشك فيما لم يختاروه ان يكون
سقيماً أو مختلاً

ولاجل ذلك يعتقد بعض العلماء ان الغزالي لم يقدم على تأليف كتابه هذا الموسوم
بتهافت الفلاسفة إلا وهو يريد هدم آراء ابي علي الفلسفية والتحامل عليه والخط من مقامه
وكذلك كتاب المصارعة لمؤلفه محمد بن عبد الكريم الشهرستاني فهو يحكي لنا الصراع الدائم القائم
بين مؤلفه والشيخ أبي علي بن سينا . وقد جاء في بعض الرسائل الفلسفية أنهم اتفقوا على ان
أبا علي قد تفرّد وفاق الاقران في الحكمة وأصبح في الفلسفة علامة دهره فلم يبلغ شأوه احد
ولم يشق له غبار وكل من ادرك كلام أبي علي وفهم معناه فقد فاز بقصب السبق ونال أعلى مقام
في الحكمة والفلسفة . وكان عمر الحياشي من فلاسفة القرن الخامس والسادس من الذين يعتقدون
بأبي علي أي اعتقاد وقد سأله بعضهم شأن الاعتراضات التي اوردها ابو البركات البغدادي على
آراء ابي علي في الفلسفة والحكمة من الصحة والبطلان فأجاب الحياشي ان أبا البركات
لم يفهم كلام ابي علي بعد

وقد بلغ المقام بأبي علي في الفلسفة والحكمة حتى أصبح تعلم مؤلفاته وتعليمها من الامور
الضرورية المسلم بها حتى أصبح المقصود من درس الفلسفة على مر الزمان هو دراسة كتب ابي

ليس إلا ولذلك هدأت الحركة الفلسفية وتوقف سيرها الى حدٍّ ما قال ذلك الى انحطاطها القرون الاخيرة فقام بعض العلماء وعارض اقوال ابي علي وآراءه وأورد عليه ولم يكن ذلك أظهرأ للفضل والعلم وشمر آخرون للدفاع عنه وعن تأليفه وكتبه . ومن المعارضين للشيخ الموردين على كتبه شكوكاً كثيرة الامام فخر الدين الرازي الشارح لاشارات ابي علي وقد رد آراء الشيخ ومبانيه حتى سمى بعضهم هذا الشرح (بالجرح)

ثم جاء نصير الدين الطوسي من جلة حكماء القرن السابع وقرر اقوال الشيخ احسن تقرير بطل اعتراضات فخر الدين الرازي وحسبها واهية وانتقد كتبه وجرحها بأشكال مختلفة . كذلك محمد بن عبد الكريم الشهرستاني فقد كرر في كتابه المصارعة آراء ابي علي وأقواله عترض على أكثرها اعتراضات واهية حسبها واردة وقد يتجاوز هذا الرجل في بعض الاحيان ما فيعد كلام ابي علي كالجنانين والمجدوين وقد رد الحواجة نصير الدين على كتابه المسمى مصارعة بكتاب سماء (مصارع المصارع) وابطل اقوال الشهرستاني وانتقد اخلاقه ولامه على ضده للشيخ بما لا يليق من الكلام ولعمر الله ان نصير الدين لعلى حق فيما يقول

ولما شاعت وانتشرت فلسفة المشائين ومعتقداتهم على يد ابي علي وكتبه واذعن لها تقريباً رجل من اعظم علماء ايران معارضاً لهذه المعتقدات وجاء بالعقيدة الاشراقية وهي التي تعرف بالحكمة الاشراقية وجعل يقررها ويشيد لها صرحاً على انقاض اصول المشائين التي أوشكت تنقرض ويأفل نجمها . وقد راجت الحكمة الاشراقية وكثر تابعوها وكسدت سوق لفات ابي علي ورغب عنها الى حدٍّ ما وذكر تفصيل ذلك في تاريخ الفلسفة للقرن السادس

وقد حاز ابو علي فضلاً عن الفلسفة مقاماً شامخاً في الطب ووقف منه موقف الاستاذ فقد نسخ كتابه المسمى بالقانون كتب المتقدمين وقضى على تعاليمهم . وكان ابو علي يتعجز لارسطاطاليس ميل اليه ويتحامل على جالينوس ويحقّره في كتبه وبسميه احياناً (فاضل الاطباء) ويقول أن فاضل الاطباء جالينوس هو طيب غير انه يجب ان يتفلسف

أما محمد بن زكريا الرازي فكان جالينوسياً ولم يكن يعتقد بأرسطاطاليس كثيراً — طريقة ابي علي التابع لارسطاطاليس في تدوين الطب وتقريره له منطقية بينما طريقة الرازي بلمطابقة والعمل

فلما شاع منطق أرسطاطاليس بين الناس ولم يكن الاشتغال بالتشريح والتجارب الكيميائية من الهين كان لتقرير ابي علي وقوة بيانه أحسن تأثير في انتشار طريقته وأقوى عامل مامن للاخذ بها فنسخت طريقة جالينوس التي نشرها محمد بن زكريا وغيره من الذين عرفوا

بالزندقة وعدم التمسك بمذهب فصار كتاب قانون ابي علي يدرس في جميع مجامع الطب والمجالس التي تعقد لدراسة هذا العلم وغدا الكتاب الذي يعتمد عليه . ولم يقتصر أبو علي في الطب على التقليد بل كانت له تجارب وآراء وتأملات وكان أكثرها في معالجة الامراض ومداواتها وقد ذكرها في القانون وقد فقد ما كان منها على صورة مذكرات لم تدون بعد في كتاب — هذا ما يرويه لنا ابو عبيد

وقد ظن بعضهم أن أبا علي — كما يستفاد — من كتبه لم يكن إلا تابعاً لأرسطاطاليس وقد قلّد المعلم الاول في آرائه قوةً وفعلاً وخصوصاً في المنطق وكتاب التعليم الاول . ولكن الامر على خلاف ما ظنوه فقد كان للشيخ في كل قسم من اقسام العلوم التي اخذها عن ارسطاطاليس آراء اودعها في كتاب مخصوص سماه (الحكمة المشرقية) واما الخطة التي كان قد قررها لنفسه في تأليفه وكتبه كالشفاء فهي تقرير آراء المشائين ليس إلا ولذلك لم يتعرض لرد آراء شيعة أرسطاطاليس وتضعيفها بل على العكس من ذلك سعى في تأييدها جهد طاقته وقد اتبع نصير الدين الطوسي الذي خلفه هذه الخطة في كتبه التي ألفها في تقرير آراء المتكلمين والحكماء من الاشراقين والمشائين . ومع ان الشيخ أبا علي يقول كل من أقر بشيء وآمن به بلا دليل لديه فهو خارج من الفطرة الانسانية منسلخ من الطبيعة البشرية زاه عند اثباته للنبوة أجاز للفرد الكامل اباحتها صيت مخالفه ودماءهم . ولعل آراءه هذه حملت المؤلفين على ان يعتقدوا فيه التكتم ولكنه لم يكن معروفاً بذلك في عصره بل كان معاصروه يرمونه بالكفر والالحاد والزندقة . والذي يلوح لنا من سيرة حياته أنه لم يكن منكراً للعبادى الدينية وكان كلما وقعت له مسألة لم يفهمها دخل المسجد الجامع وسأل الله تسهيلها وكشفها له . ولما أيقن بالوفاة تاب الى الله ووهب امواله للفقراء والمساكين ولعل ما اتهم به المعاصرون من الكفر والالحاد جعله يعتقد في كتمان الحقائق الفلسفية وعدم البوح بها وقد اوماً في آخر كتاب الاشارات بكتمانها والرضن به على غير اهله وأن لا يظهر عليه إلا من كان أهلاً له . وأما من الوجهة التعليمية فقد كان يشابه أرسطاطاليس كل الشبه . ولم يأخذ برأي فلاسفة الهند الذين يعتقدون ان عمران الروح لا يكون إلا باضعاف الجسم وهدم بنائه . وقد اخذ بهذه العقيدة بعض المتصوفين ولكن أبا علي لم يقدم على هدم قواه الجسمية بل تمتع بقواه الروحية والجسمية كما يقول المحققون والفلاسفة والعرفاء أن الانسان يجب ان يكون جامعاً وذا عينين ويهتم بكل من مراتب الوجود في حدة . فكان كما يقول اهل العرفان : « لا الكثرة تمنع وحدته ولا الوحدة تحجب كثرته »

الجيش المصرى

والاستكشاف في أفريقيا

للملازم الاول عبد الرحمن زكي

— ٢ —

اقليم هرر

اذا تحولنا من بلاد الصومال الى مديرية هرر التي زارها الرحالة الانجليزي برتون R. F. Burton بين عامي ١٨٥٤ و ١٨٥٥ وجدنا ان النتائج العلمية التي حصل عليها كانت قليلة جداً ولا يصح الاعتماد عليها ويمكن ان نتحل بعض الاعذار لهذا الرحالة فنقول ان الاحوال التي احاطت به أثناء اضطراره برحلته جعلت اقامته في هرر لا تزيد على عشرة أيام. ثم انه تعدر عليه ان يستعمل من اجهزة البحث الا بوصلة الحليب وساعة وثرمو متر ومع ذلك فقد أدت له بعض الفائدة (١) ويحتوي كتاب برتون بجانب تخطيط عام لهرر على خارطة اخرى لا قيمة لها البتة من الناحية الجغرافية تبين الطريق الذي سلكه الى هرر. وقد كان الموقع الذي أثبتته لمدينة هرر أصح من الموقع الذي اثبت هاريس واعوانه الذين قاموا برحلة الى شوا (٢) او الرحالة كراتندن (٣) ولقد ظلت مهمة الفوز بمعلومات صحيحة عن داخلية تلك البلاد شاقة جداً زمناً طويلاً لغيره الاهالي الوطنيين وتعصبهم. فكانت المعلومات المكتسبة مبنية على التخمين والرواية ليست مؤسسة على التحقيق العلمي. وظلت الاحوال على هذا المنوال مدة عشرين عاماً عقب يارة برتون. ولم يحاول احد خلالها ان يقوم بفتح داخلية البلاد حتى ظهر المصريون وأفلحت جهودهم في عام ١٨٧٥ وحينذاك سهل القيام بالرحلات. فتجمعت تدريجياً المعلومات والنقط الرئيسية للارشاد والمرة الاولى عملت خرائط لاقليم كان بالامس مجهولاً تماماً. واستطاع

R. F. Burton. First Footsteps in East Africa. London 1856. p. 62 (١)

W. C. Harris. Highlands of Aethiopia, 3 Vols. London 1844 (٢)

C. J. Cruttenden. J. R. G. S. Vol XIX. 1849 pp. 49-76, also-J.R.G.S. (٣)

Vol. XVIII, 1848. pp. 136-139.

الضباط المصريون بقيادة البكباشي مختار ان يزوها بعملهم الانساني فانتشلوا هرر من الظلام الجغرافي الدامس الذي رقدت فيه قروناً كاملة

لقد وصل المصريون الى نتائجهم الباهرة التي لم يصل اليها أحد من قبل لانهم كانوا يشرفون على ادارة تلك الاقطار ولانهم كانوا ايضاً يتمتعون بمزايا لم يتمتع بها غيرهم من المستكشفين . وقد استفادوا من تلك المزايا بدليل النتائج الغزيرة التي حققوها والتي نراها أمام أعيننا اليوم

ففي عام ١٨٧٦ بعد ان انتهى البكباشي محمد مختار من جولاته لاستكشاف بلاد الصومال^(١) نشر مع زميله فوزي باللغة العربية الخارطة الاولى لهرر والبلدان المجاورة . وقد ظهرت في مجلة اركان الحرب . وكتب ايضاً الضابط فوزي مقالاً طويلاً عن نتائج أعمال الكشف الذي قام به المصريون في مقاطعات شعوب العيسى وجالا وهرر^(٢) . وتمتاز الخارطة المذكورة بدقة ما احتوته من الحقائق كالمحطات المهمة والمدن وطرق التجارة ومقاطعات القبائل وأهم اوصاف الارض الطبيعية ومعالمها^(٣) . وفي هذه الخارطة أثبت موقع هرر كما يأتي :

٤٨° ٢٢' ٩٠° من خط العرض و ١٥° ٢٠' ٤٢° من خط الطول^(٤) . واثبت هذا الموقع لا يختلف الاً بضع دقائق الى الشمال ومثلها الى الشرق عن موقعها الجغرافي الذي أثبت أخيراً بغاية الضبط كما يختلف شيئاً قليلاً عن الموقع الذي أثبتته رءوف باشا في تقريره عن مدينة هرر وضواحيها^(٥) . ففي تقرير رءوف باشا أثبت موقع المدينة على خط عرض ٢٠° ٩٠° شمالاً و ٤٢° ١٧° طولاً كما أثبتته برتون . ولكن لم كان الاختلاف بين تقرير القائد العام للحملة الى هرر وبين تقارير ضباط هيئة اركان حربه ؟ هذا مما صعب فهمه

والخارطات الهامة الاخرى التي أحرز فيها مختار وفوزي نجاحاً باهراً خلال الاعوام الاولى للاحتلال المصري هي أول تخطيط عمل لمدينة هرر (١٨٧٦) وقد بيّنا عليه أسوار المدينة وأبوابها وقلاعها وأهم الايضاحات الطبوغرافية ورسمها قطاعاً واضحاً يقطع المدينة في اتجاه شمالي جنوبي تقريباً^(٦) . وهذا الرسم (قياس ١ : ١٠٠٠) يعتبر عملاً فائقاً من الطراز الاول من ناحية التفاصيل الموضحة عليه ومهارة العمل ودقته اذا قوبل بأي عمل آخر تم فيما بعد لهذه المدينة

(١) راجع النبذة التي كتبها البكباشي مختار على استكشافه في بلاد جاديبورسي المدرجة في العدد السابع من القسم الاول من مجموع الجمعية الجغرافية (٢) مجلة اركان الحرب — السنة الثالثة — المجلد ١ — الجزء ٥ — القاهرة ١٨٧٧ ص ٣٨٥ — ٤٠٠ وجزء ٦ ص ٤٦٢ — ٤٧٩ (٣) أحمد فوزي — وصف عمل الاستكشاف في العيسى والجالا وهرر — مجلة اركان حرب — السنة الثالثة ١٨٧٧ — المجلد ١ ج ٥ ص ٣٩٢ . ومحمد مختار — الجمعية الجغرافية — ملاحظات عن مقاطعة هرر — السلسلة ١ — ص ٣٦١ (٤) في هذه الخارطة يعتبر خط الطول المار بباريس صفر (٥) رءوف باشا : تقرير عن مدينة هرر وضواحيها — مجلة اركان حرب ١٨٧٦ — السنة الثالثة : المجلد ١ — جزء ١ ص ٤٤ (٦) محمد مختار واحمد فوزي : خارطة مدينة هرر عام ١٨٧٦ — مطبعة اركان حرب العامة — القاهرة ١٨٧٧ — مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ١٨٧٧ — السلسلة ١ رقم ٤

ونذكر ايضاً في هذا الصدد — الخارطة العربية — لبلاد الصومال التي رسمها الضابط فوزي وعرضها في المؤتمر الجغرافي بالبندقية عام ١٨٨١^(١). لكن مما يؤسف له أن تلك الخارطة قد فقدت. ومن المحتمل أن تكون قد أودعت في مكان وظلت فيه منسية بمهولة

عود الى الصومال وبربرة والحبيشة

وقبل اختتام هذا البحث نعود الى ذكر بعض الاعمال الجغرافية التي قام بها الضباط المصريون في افريقيا. فقد رسم الملازم الاول عبد الرزاق نظمي وكثير من زملائه من ضباط اركان حرب الجيش ميناء بربرة وضواحيها الى جبل دوبار. وكان المستر « سدي أنسور » مكلفاً أمام البحث فيما يختص بالبناء سكة حديد بين دنقلة والفاشر

ولما نشبت الحرب بين مصر والحبيشة (١٨٧٦) رسم بعض ضباط اركان الحرب برآسة الاميرالاي لو كيت عدداً كبيراً من الخارطات التفصيلية للبلاد الحبيشية ورسموا خارطة عامة للبلاد الواقعة بين مصوع وهضبة الحبيشة. ويعتبر هذا العمل من أهم وأفضل ما اشتغلت به هذه الجماعة المنتخبة من اكفاء الضباط المصريين. كحقيق البكباشي عبد الله فوزي (باشا) حدود الحبيشة الشمالية والطرق بين مصوع والخرطوم ثم رسمت خارطتها^(٢)

وفي عام ١٨٧٨ عهد الحديو اسماعيل الى الكولونيل جريفز (Col. Graves) والقائمقام محمد مختار بارتداد شواطئ الصومال على المحيط الهندي لاختيار موقع يقام فيه فنار لارشاد السفن نخطط القائمقام مختار بك خارطة هذه الجهة ومكان الفنار وهو يقع على بعد ثمانية اميال جنوبي رأس جردوفوى^(٣) وعلى مسافة ثمانمائة متر من مصب نهر صغير يجري فيه الماء العذب. لكن لم ينشأ الفنار لانهاء حكم اسماعيل في يونيو سنة ١٨٧٩. وفي عام ١٨٨٠ كان الاميرالاي محمد مختار قد جاب نواحي السودان الشرقي لما كان رئيساً لأركان حرب السودان يصحبه من ضباطه خليل بك فوزي والملازمان محمد خير الله وعلي خيري وقد نشر بحثاً مسهباً في تخطيط أبو حراز والقضارف (ابوسن) والقلابات وطومات وأميديب وغيرها من مدن السودان الشرقي^(٤)

الاعمال الختامية

وتتجه الآن لدراسة آخر اعمال الخرائط التي انجزها الضباط المصريون في هرر التي تعتبر تقدماً بآهراً على الاعمال التي سبق عملها بمعرفة مختار وفوزي وغيرها: ففي أواخر عام ١٨٨١ مسحت هرر وملحقاتها من جديد بتفصيلات متقنة وايضاحات اكثر مما جاء في المحاولات التي تمت من قبل

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ١٨٨٢ — السلسلة ٢ — رقم ١ — ص ١ — ٢١ (٢) عبد الرحمن الرافعي — عصر اسماعيل — ص ١٧٩ (٣) مجلة الجمعية الجغرافية بمجموعة ١ عدد ٩ (أغسطس — نوفمبر ١٨٨٠ ص ٢٩) (٤) مجلة الجمعية الجغرافية بمجموعة ١ عدد ١١ — فبراير ١٨٨١ ص ٥

وقد قام بهذا العمل البكباشي أحمد وعدي والملازم الاول عبد الكريم عزت . وكانت مصر في ذلك الحين قد أخضعت بعض قبائل من الوطنيين الذين لم يقبلوا التسليم في بادئ الامر . وكان كلما اتسع الافق السياسي امتدت أعمال الكشف وازدادت . ولذلك جاءت الخارطات الجديدة بطبيعتها اكثر استيفاء للمعلومات من سابقتها او التي اعقبها وانجزت في احوال صعبة في ذلك الوقت الذي عادت فيه هزر الى حكم أمراءها السابقين واخلاه المصريين لتلك البلاد (١٨٨٤ — ١٨٨٥) وأخيراً لما أصبحت هزر تحت الحكم الحبشي (١٨٨٧) . ففي خلال عامين كان عمل الضابطين وعدي وعزت قد تم . ويمكن الاطلاع عليه في مجموعات خارطات الجمعية الجغرافية . وقد عرف « بولتشي » قيمة تلك الخارطات العلمية والجغرافية واثني على العمل الفني الذي اضطلع به الضباط المصريون في هزر كما انه امتدح جهود الضباط مختار وفوزي وعزت^(١) وبينما كان هؤلاء الضباط النابهون يقومون باكتشافاتهم كان الجنرال ستون^(٢) يشرف في القاهرة على رسم خارطة كبيرة شاملة للاملاك المصرية قياسها وكان الغرض من انشاء هذه الخارطة جمع النتائج المتحصلة في خلال ثمان عشرة سنة انقضت كلها في الفتوحات والاستكشافات والمباحثات والمراجعات . وقد كتب عنها الجنرال : ستون : — « ان مسطح الارض التي شملتها تلك الاعمال يعادل مجموع مساحة فرنسا وامبراطوريتي المانيا والنمسا . وقد قضت هذه الاعمال على حياة ضابط وعالم ألمانيين واثنين من الفرنسيين ومثلها من الاميركيين ومثلها من الطليان ومثلها من المصريين وجميعهم استشهدوا في سبيل الاخلاص للعلم . هذا غير من اخزارهم الموت من « الجنود البواسل الذين رافقوا الضباط وأهل الريادة . فانهم لقوا حتفهم في تلك البلاد المجهولة مثل زملائهم الذين صحبوا البعثات العلمية المحضة ايضاً »

وليس في وسع احد ان يتجاهل ما كان لمصر من شأن المتقدم وفضله في ميدان الاستكشاف الجغرافي في بلاد الصومال وافريقيا الشرقية وجميع انحاء السودان وصحارى مصر^(٣) . وهذه الاعمال الخالدة صفحة مجيدة تفاخر بها كل أمة حية . وهي جهود اعوام متتالية كما وصفها الجنرال ستون قامت كلها على اكتشاف الضباط المصريين في صمت وهدوء وتواضع وكفاح مع الامراض المتوطنة في تلك الاقاليم البعيدة والتي كانت في يوم من الايام قطعة من ارض الوطن

(١) Paulitschke. pp. 575—591

(٢) هو شاراس بومري ستون رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصري من عام ١٨٦٩ الى عام ١٨٨٢ . وقد كان كولونياً في الجيش الاميركي نذبه المغفور له الحديو اسماعيل باشا لرئاسة بعثة عسكرية اميركية لاصلاح الجيش المصري كما ذكرنا في صدر المقال . راجع مقالة ابائه باشا بعنوان الجنرال ستون ومقاتلنا بالقتطف ج يوليو بالجلد ٩١ ص ٢٠٢ — ٢٠٨ (٣) من مقال الاستاذ مصطفى طاهر بك رئيس قسم الجغرافيا بالجامعة المصرية وكان انفس مرجع لنا في كتابة هذا الموضوع

الياس فياض

وقصيدة النجوم

لموسى البعيني

مضى خمسة أعوام وأزيد على وفاة الشاعر الرقيق الحساس الياس فياض ذلك الببلر
الغريد الذي فتن بأناشيده أبناء العربية على السواء . وكنت طوال هذه الاعوام أمني النفس
بكتابة كلمة ضافية عنه لا لشيء بل قدراً لروحه الكبيرة وإنصافاً للشعر العربي الذي أحببته
وآثرته على الآداب الاخرى لما في اوزانه من رنين ، ولما في الفاظه من حب لم يحب نوره
ولم تترمده جمراته !!

أما أدلتي على ذلك فهي تلك المقاطع الساحرة التي رددها تحت سماء الشرق المقمرة
عُمر بن أبي ربيعة ومجنون ليلى وغيرها من شعراء الحب والغرام . . . وقد طوت أشعارهم
الحقب الخوالي طافية كالأحلام فوق أمواج الدهور دون ان يفقدها تقادم العهد تلك النشوة
المسكرة ، وذلك الديب المستحب

على انني لا احاول في هذه الكلمة الموجزة أن أعطي للقارئ صورة شفاة عن الياس
فياض ، ولا ان أحهد نفسي بتبين اسرار شعره السائق للذند . . . كلاً فأننا لا أقصد هذا
ولا ذاك . . . بسيد اني أريد التحدث عن قصيدة « النجوم » التي كانت ولا تزال موضوع
إعجاب وفئة لدى ادباء العربية في كل مكان !

وقبل ان ابدأ بمديتي أحب ان أطلع القارئ على إني أصرف اكثر أيامي وليالي بين
الكتب . فمطالعة الكتب عندي لذّة لا تعادها لذّة في الحياة . . . ولذلك توفرت لدي ثروة
أحاديث ادبية طريفة ، روة لا حدود لبحورها ولا تخوم . . . وعلى هذه القاعدة امسيت
واقفاً على سير الادباء ، ليس عند العرب فحسب ، بل عند كثير من الامم الغربية التي تتذوق
الادب الرفيع ، وتقدر الفن والجمال !!

ولطالما عثرت في مطالعاتي على ما خذ ادبيّة جمّة ، ما خذ شعريّة ونثرية ، فكنت امضي في سبيلي وهو سبيل الاديب الذي لا يطلب من مطالعاته الا اللذة الشافية وإشباع ميوله وعواطفه بروحانيّة علوية سامية . وظلّ عهدي كذلك حتى وقع بين يدي ديوان — الياس فياض — وهو من أفضل الدواوين الشعرية التي اصدرتها المطابع العربية في مستهل هذا الجيل لكونه مطبوعاً بطابع يختلف عن غيره ويتهادى في موكب من الجدّة والانسجام. وقد حرّمت من هاتين الميزتين أغلب دواوين الشعر في تلك الايام

قرأت الديوان فأسكرتني قصائده المذبة وعلى الاخص قصيدة — النجوم — تلك القصيدة الرائعة المؤثرة التي قلّدها جمهور من كبار شعراء العربية في مصر ولبنان . وهؤلاء لم يقلدوها الا لما تحمل في ابياتها من حرقه ، هي حرقه الشاعر الظالم المتألم الذي يتعانق فجر الحياة ومساؤها في ظلال اجفانه !!

وهذه هي القصيدة :

قلتُ للسيرات ذات مساء	أُتري أنتِ مثلنا في شقاء
ساهراتُ الجفون — هل لفراقٍ	خافقاتُ الضلوع — هل للقاء
هائماتُ مع المجرّة تجر	ين الى غير غايةٍ او رجاء
مثل سربٍ من القطا ظمائم	حول ماءٍ يُمْنَعَنَ ورد الماء
أو عذارى من حولٍ نعش حيارى	في صلاحٍ ما تتقضي ودعاء
إنّ في لحظك الشجيّ حنيناً	نافذاً سهمهُ الى احشائي
وأرى نورك الضئيل كدمع	سائلٍ من محاجر ييضاء

أنفوره كئيبة ام جراح	أنتِ في اللانهاية السوداء
أنتِ يا جدّة الخلائق ام الد	هر يا ربة الهدى والضياء
أنتِ تبكين يا نجوم ؟ أجابت	نحن في عزلةٍ بهذا الفضاء
بيننا البحر من قديم فلا يفرز	ك منا تقارب الاضواء
كلّ نجم منا يعيش بعيداً	عن أخيه في وحشةٍ وجفاء
محرقاً نفسه بغير انتفاع	ذاهباً نوره سدّى في السماء

قد فهمتُ الذي تقولين يا شهب فأنتنّ انفس الشعراء
هكذا نورها يضيع بأفقٍ نزلت منه منزل الغبراء

لا ترى الانفس القريبة منها ما بها من توقد وذكاء
فتير الظلام حيناً وتمضي في ثياب الخلود نحو الفناء

ولكنني لم أكذ استعديها حتى علمت بأنها مأخوذة عن الشاعر الفرنسي المشهور —
ولسي برودوم — وأحييت أن ابنه المرحوم الياس فياض الى هذا المأخذ الصريح فكتبت
رسالة لطيفة طويتها على إعجابي به وعلى تبيان الحقيقة . وعلى الرغم من تقادم العهد فأنا لا
أزال أذكر من تلك الرسالة جملة مقتضبة فيها جمال وإغراء وهي : —

أخي الحبيب الياس ،

أجتمعت ريشتك الساحرة من رياض الجنة ومعطرة بأنفاس الخلود . . . أم قصتها من
حب الانبياء حتى جاءت تقطر في جراحات القلوب ما تقطره ، وتسكب على الاجفان
دابة ما تسكبه ؟ فليله درك من شاعر حنون اذا ما أهاب بأوتار قيثاره مشت رعشة برياض
لعر وبلا بله

بعثت اليه بتلك الرسالة نازقاً في مراسفها عاطفة من عواطف المرتعشة كزنبقة الغور عندما
لامسها نسيم الاودية وهي اول رسالة بعثت بها الى شاعر يلمع اسمه في سماء الادب اذ
كنت أنقل خطواتي ايامئذ بحيرة واضطراب كافي الفرخ بهم للطيران من اخوصه واهياً ضعيفاً
ما انتظرت ان يحين مبيناً لي الحقيقة . ولكنه اجابني رحمه الله بكتاب ضاف ينم
عن ادب سام وروح معذبة ترهقها اشباح الشاعرية . وهذا الكتاب لا ازال احتفظ به كأثر
لله قيمته المقدسة

اليك بعضه :

أخي !

أي نغم موجه مؤثر هو هذا النغم الذي جئت تسمعي اياه ؟ لقد أيقظ في صدري حملاً
مدا كنت أحسبني رقدت معه يوم ودعت الشعر وقبعت صامتاً الى ان يسمح الله بغيث شمس الحياة
تسألني يا أخي عن قصيدي — النجوم — وتلح علي بتبيان حقيقة أمرها . لقد قلت
انها وقعت من نفسك في العربية موقعاً اللطف منها وهي في الفرنسية . لماذا لم تسكتف بهذه
مذلة قانعاً بها وحدها ؟ أما وانت تريد ان تعرف اسرارها فما علي اذاً الا ان احدثك بأسباب ،
هذا الحديث يرهقني كثيراً لكوني مريضاً اليوم بداء قديم سوف لا يبارحني إلا وحياتي

قبضته !

من عشرين عاماً تقريباً كنت أدرس الحقوق في باريس — باريس المدينة الشعرية الفاتنة —
 فعرفت فيها فتاة جميلة شقراء على جانب كبير من الثقافة والتوسع في الفنون . وكثيراً ما أنشدتني
 الرائع من الشعر الفرنسي . ومن بين ما أنشدتني اياه ، وكان له تأثيراً عميقاً على عواطفني
 وافكارني ، قصيدة — سولي برودوم — المسماة (المجرّة) فقد رسخت هذه القصيدة في
 فكري رسوخاً امتزج بقلبي وروحي

وبعد مضي زمن طويل على هذا الحادث عدت الى الاسكندرية . وفي ذات ليلة اشتدّت عليّ
 آلامي النفسية فرحت أبحت عمّاً يعزّيني . ولما لم ألق في الاسكندرية من أبشئ مصابي بكيت
 متألماً !! ولم يكن امامي الاّ النجوم اشكو اليها كآبتي . فقابلت بين احتراقها في الظلام وبين احتراق
 نفسي الحزينة فحاش الشعر في قلبي . . . ولم يطلع الفجر حتى كنت أتمّ آخر بيت من قصيدة النجوم
 هكذا نظمت قصيدة (النجوم) وأنا أحسب أنها من توليدي . ويمكنك الاعتقاد يا يوسف انني
 لم أكن انتظر ان أحجّ على أبيات بكاملها من قصيدة الشاعر الفرنسي المجدّد ، وان نبرة تلك
 الفتاة الحسنة ما زالت تتردّد في خيلتي . . . ولذلك لم أقل في ديواني انها مأخوذة !
 (أخوك الياس)

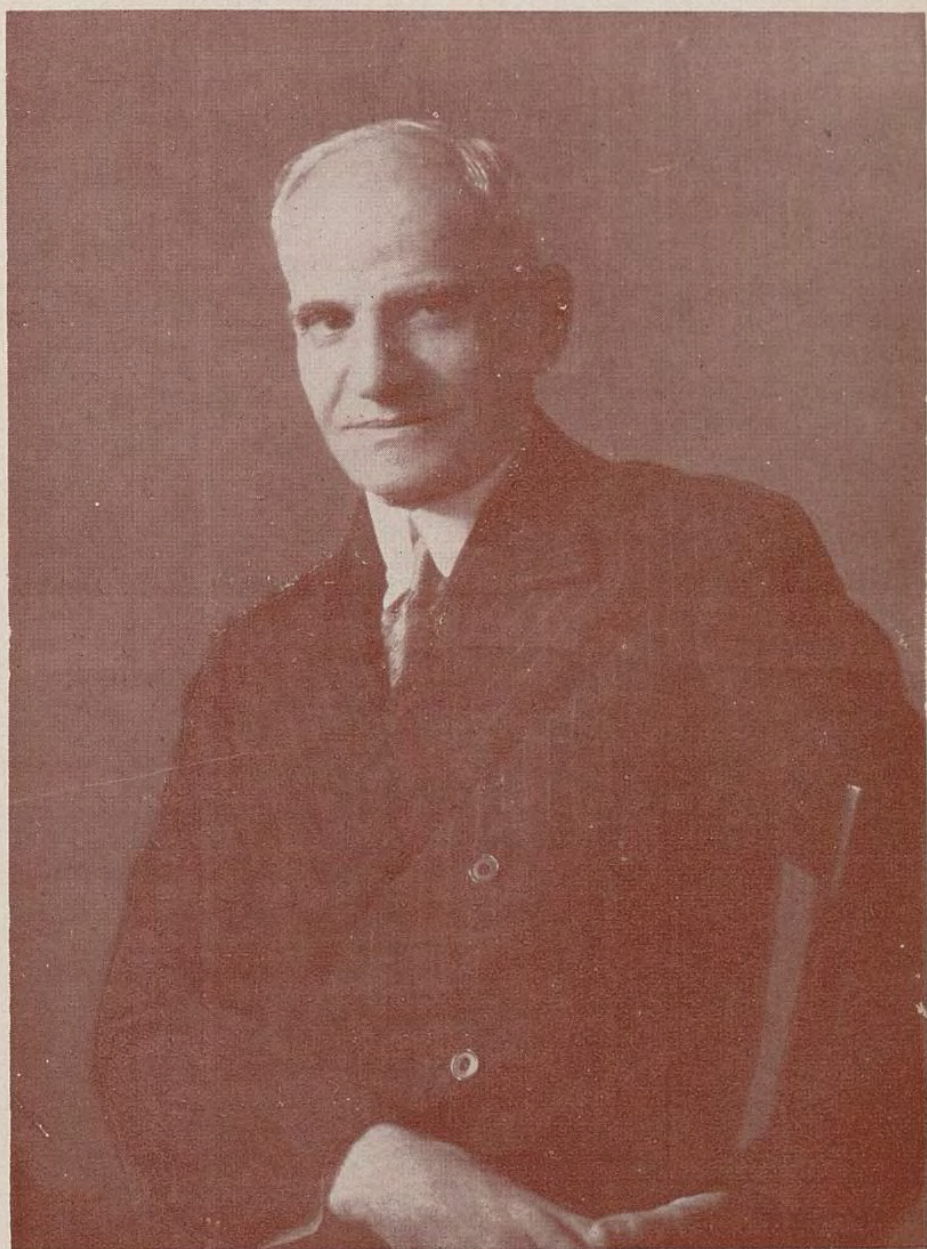
بعد شهرٍ على تسلمي هذه الرسالة قرأت في جريدة كانت تصدر في بيروت — جميعاً
 على الياس فياض من قلم أحد أدعياء الادب والفن يعيب فيه قصيدة النجوم ويتهم الشاعر
 الحسّاس بالسرقة والتقليد . لقد أذهلني ذلك التهجم وتلك الإغارة لكوني واثقاً بأن معارف
 الناقد المستتر وراء امضاء مستعار هي معارف لا تتعدّى البسيط من الادب والنقد والمضحك ان
 الناقد اخذ الخبر عن المرحوم الياس ذاته ثم رفع عقيرته بالسباب والشتائم ، وهي غالباً ما تكون
 شيمة الاديب المقصر العاري من الفن والعبقريّة

ولكن الامر الذي يدعو الى الدهشة والعجب هو ان اديبنا الكبير الاستاذ — امين الريحاني —
 ترجم قصيدة النجوم الى اللغة الانجليزية دون ان ينتبه الى شيء . . . وقد لاقت ترجمة صديقي
 فيلسوف الفريكة استحساناً عاماً من ابناء هذه اللغة . وذلك لان الياس فياض سكب عليها شعوره
 فراح تتراهى بين انامل المترجم العبقري في حلتين ساحرتين ، حلة الشاعر اللبناني الرقيق ،
 وحلة الاديب الفرنسي الطريف — سولي برودوم — الذي نفح الشعر العالمي بقصائده هي تماثيل
 خالبة في هياكل الارواح

الركنور صرُوف

كان حضرة صاحب السعادة أسعد باسيلي
 باشا قد تبرّع بمائة جنيه للمقتطف لتوزيعها
 جوائز أدبية على الذين يفوزون في مباراة
 تقترح موضوعها ، احتفاءً بذكرى الدكتور
 صرُوف ، واجتمعت لجنة النحّكم في يناير
 الماضي وأصدرت قرارها (المنشور في مقتطف
 فبراير صفحة ٢٤٤) ورغبت فيه الى الواهب
 » ان يتي هذا المبلغ من المال رهن عمل أدبي
 آخر رأت اللجنة ان يكون على غير أساس
 المباراة بأن يهدى الى كتاب مختصين بكتابة
 فصول في موضوعات مختلفة وان يوزّع عليهم
 هذا المبلغ مكافأة لهم ، ثم تقوم ادارة المقتطف
 بطبع هذه الفصول في كتاب تهديه الى
 مشتركيها باسم سعادة الواهب لذكرى الدكتور
 يعقوب صرُوف . ويسرُ ادارة المقتطف ان
 تذيع انها تلقت من سعادة أسعد باسيلي باشا
 انه مغتبط بالنزول على رأي اللجنة . وقد
 شرعت الادارة في اعداد المعدادات لهذه الفصول
 بارشاد حضرات اعضاء اللجنة وستوزع مجموعتها
 هدية على حضرات المشتركين





أ-عرب-با-پای-باشا

اسعد باسيلي باشا

بقلم نقولا شكري

رجل مثقف ، هادئ ، قوي الارادة ، واسع أفق التخيل شديد الملاحظة ، متسعر الذكاء ،
ثقة من وثاقة العقل وقوة النفس ، وشدة الطبع ، وسعة الحيلة ، ما لم يبرز كثير
تقايه فلتقي رجلا من الطراز الاول ، في العقد السابع من العمر ، نحيف الجسم ، معتدل
القامة ، متواضع السمات ، تبدو عليه مخايل الثقة العظيمة بالنفس ، والرغبة العميقة في ان يعمل
ون ان يتكلم ، على وجهه الباسم النبيل الهدوء العجيب ، والركة والحزم معا ، يحدثك في صوت
هادئ ، وبعبارات سهلة ، فيهرك بوفرة معلوماته ، لانه دائم الاطلاع على الحركات الفكرية في
العالم ، فلا تقوته بأدرة من حوادث العالم ، وقد درس فلاسفة عصره وكتبابه العظام ، من أميل
ولا الى تواستوي . ذلك هو مجموع الخطوط الرئيسية التي تتألف منها صورة صاحب السعادة
اسعد باسيلي باشا

وشخصية اسعد باسيلي باشا الى هذا كله فيها سهولة وفيها تعقيد ، وفيها جوانب لا تدق
الباحث ، وفيها جوانب اخرى تدق على المستقصي ، ولكنها في الحالين شخصية الحيل
ي قلما تتكرر . وهي شخصية فيها ما يجتذب الاديب ، وما يجتذب الفيلسوف ، وما يجتذب
الاجر ، لانها جمعت اليها الواناً من الخصائص التي اتاحت لها ان تكون جذابة ، وان تكون مؤثرة
اولئك وهؤلاء

واني — مع عرفاني البالغ بهذه الشخصية الكبيرة — لن ازمع للقراء اني استوعبتها
ناولتها من وجوها جميعاً ، لن ازمع ذلك فما هو بالهين ان يضم هذا الفصل اليسير خصائص ،
ما هو بالامر الهين ان يكون البحث وراء هذه الشخصية وليد السرعة والايجاز ، ولكني
ذلك سأحدث عن اسعد باسيلي الاديب والباحث والتاجر . واني لأرجو ان اكون في

دراسته موفقاً بعض التوفيق ، وألاً يدخل في روع احد اني أقرضه الثناء ، فما لشيء من هذا كله أتحدث عن اسعد باسيلي ولكني أتحدث عنه لأنه كما أسلفت شخصية قلما تتكرر في جيل واحد . . .

ويطيب لي ان اتناوله من مرحلة شبابه ، تلك المرحلة التي اكتملت فيها اسباب التكوين لهذه الشخصية الممتازة ، فأقول ان اسعد باسيلي لم يكن من أولئك الذين يعيشون في ظل محدود ، وفي موطن محدود ، وأما كانت له اطاع الرجل الذي انتبه الى خصائصه وفطن الى ما فيها من جلال ، وما لها من روعة ، فاتخذ منها مشعلاً لنفسه وكان هذا المشعل باهر الضوء ، رائع الشعاع . ثم كان من شأنه ان يمضي في كنف هذا الضوء وان تكون خطواته لا تعثر فيها ولا تتواء ولقد كانت مرحلة شبابه مقترنة بهذا البعث الهائل لتلك الرسالة الضخمة ، رسالة التجديد الشامل في بعض مراميه ، المتحفظ في كثير من اغراضه ، وقد تمثّل نصيبه من ادائها أيام دراسته في مدينة طرابلس الشام حين كان يتولى الاشراف على التعليم في مدرسة « مار الياس » كمضو بارز في الجمعية الخيرية الارثوذكسية ويراسل امهات الصحف في بيروت والقاهرة

واكبر الظن عندي ان تأثير هذه المرحلة كان التأثير القوي الفعال ، فهذه شخصية أسعد باسيلي قد بدأت تعمّر الفضاء الرحيب ، متجاوزة حدود مدينة طرابلس ومتجاوزة مع ذلك حدود الطلاب الذين بهرهم هذا القائد الشاب ونحن في هذه المرحلة حيال ناحيتين : تتمثل الناحية الاولى في جهاده كباحث واديب وقف حياته لهدم الركيك من القديم . ولبت الآراء والمبادئ الجديدة في مجلة « الجامعة » التي تولى اصدارها الكاتب الاجتماعي الكبير المرحوم فرح انطون في وسع الذين يميلون الى مراجعة الابحاث العلمية التي كانت تنشر في أثناء النهضة الاخيرة ان يطلعوا على نخبة من الموضوعات الفلسفية التي كان أسعد باسيلي الاديب يعلن فيها وقتئذ رأيه في « العلم والدين » وما الى ذلك من الآراء الجريئة التي كان يجاري فيها مذهب الفيلسوف « سبنسر » ومذاهب غيره من الفلاسفة ويبنى على احكامهم

وتتمثل الناحية الثانية في الحقبة القصيرة التي قضاه في تجارة الاخشاب مع شقيقه المرحوم انطونيوس باسيلي في طرابلس الشام . وأنها لناحية جزيلة الاثر في حياته ، فقد استطاع بمواهبه ، وبأعماله الحافلة بمشاهد الصدق والاستقامة ان يوقظ في بني وطنه عاطفة التوقير لمقامه التجاري

هاتان الناحيتان — ومكانة أسعد باسيلي منهما هي مكانته — قد أيقظتا في شخصيته الجوانب التي أصارتها فيما بعد رجلاً في الطبقة الاولى بين الرجال

واخذت شخصية أسعد باسيلي بعد ذلك تتجاوز البيئات الخاصة وتفرض نفسها على الحياة العامة من ذلك اليوم الذي أبحر فيه الى مصر مع مواطنه الاديب الكبير فرح انطون لاصدار جريدة يومية يبتان فيها آراءها الجريئة ولكنهما لم يلبثا ان اختلفا على تفصيلات هذا المشروع ففضى هذا الخلاف الى انصراف اسعد باشا عن الصحافة الى ميدان التجارة حيث برزت كفايته التجارية وأطلت على مصر من هامة الاوج . وآثر فرح انطون ان يظل في ميدان الكتابة التأليف ويسير فيه الى آخر الشوط

ونعتقد انه لو تخيّر اسعد باشا وقتئذ ان يكون ذلك الصحفي البعثة المشتغل بالمباحث العالية كان أقل توفيقاً وربما كان نجاحه يعود على الجيل بنتائج شديدة النفع والاثـر

اذن لم يسلك أسعد باسيلي سبيل العمل المادي إذ ذاك بعقلية محدودة كأكثر المشتغلين بالتجارة ، وتخلّيه عن سبيل العلم والادب انما يرجع الى مذهبه الوضعي وعقيدته التي لا تؤمن بالأحقاق الملموسة . على ان مذهبه الوضعي باعتباره من رجال الاعمال لم يحل دون تدينه صدق ايمانه وهو ممن يرون « ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لا سطحية كما يتوهم البعض أن هناك حقيقة أساسية قام عليها بنيان الاديان »

اما فنه في الكتابة فمع انه كان محتفظاً فيه بشيء من الرشاقة الا أنه أصبح مسبوفاً بطائفة من الكتاب المحدثين الذين أصبحهم تطور العصر . ولكن رسائله ستبقى على الزمن لانها من صميم الالاعلى . . . وقد كان كاتباً منوعاً كثير الابواب ، جم الاحاطة ، بالغ التفوق ، فقد كتب في أدق مسائل الاجتماع ، وأعم مسائل الحياة ، فله رسائل قيمة في العلاقات الزوجية ، وبحوث أدبية شائقة . ولما تخلص نهائياً عن الاشتغال بالدراسات الادبية والعلمية الرفيعة ، وأقبل على تجارة الخشب ، أحرز في الزمن القصير مقاماً وثقة واتساعاً في الاعمال لا تتوافر لغيره في الزمن الطويل

أقبل أسعد باشا على تجارة الخشب في الاسكندرية والسوق التجارية ممتلئة بجبابرة التجار ودهاتهم . ولكنه لا ينقصه النشاط الذي يكافح به ، وعرف كيف يقاوم العوامل العديدة التي تعمل على محاربة التاجر الناشئ ، وهزيمته ، فقد وقف وحده غير مبال بضروب النضال التي

حشدت لمقاومته ، واستطاع ان يهزم خصومه بأسلحة أشد من أسلحتهم ، تساعده في ذلك ارادة صلبة وخبرة واسعة وذكاء متوقد

وقد ظل يشق طريقه بين الصفوف حتى سيطر على سوق الخشب وربما قامت وارداته مقام الضعفين من واردات سائر التجار . وحسبنا ان نعترف بأننا لا نستطيع الاشارة اليه دون ان نلقبه بملك الخشب

وبعد ، فقد تمتد الطريق وتطول أمام الذين يبتغون الوصول الى الغاية . ولكن الذين لا يكونون ولا يقفون يخلفون من وراءهم خطا مستقيماً هو سبيل النجاح في الحياة ، هو الخط نفسه الذي يخلفه البطل بين الصفوف ، دليل جهاده المقرون بالفوز ، وهو الخط الذي يتركه في التربة محراث المزارع مبشراً بالانتاج

قلنا ان الطريق تمتد وتطول أمام الذين يبتغون الوصول الى الغاية . ونضيف الى ذلك ان الاقدام رأس النجاح ، وفي أمثال الاميركيين المعاصرين ان فرضاً على المرء ان يخاطر وان عاقبة هذه المخاطرة حمودة لانها تعلم الجراءة ، والتاجر الجريء موفور النجاح لان لا جراءة بلا بصيرة

وما زال اسعد باشا رغم مشاعله التجارية الكبيرة يعطف على الفكر والادب . فن عاداته ان يأوي بعد الغداء الى مكتبته الانيقة ليعيش فيها بين كتب الادب والاجتماع ، ثمرة أذهان جيل اوزيريد نحوطة وتشارفة . فلا يحرم من الجوال الذي لا يموت فيه الذهن ، ولا تصدأ فيه القرية ، وفي هذا ولا ريب عزاء الادباء بعد اعتزاله ايام

ومن الحق ان نقول ان العمل التجاري لم يمنع هذا الرجل المفكر من ان يطل على الناس الحين بعد الحين . ولم يحل بينه وبين عرض الصور التي تلوح في ذهنه على الجمهور ، واخراج ثمرات قريحته كلما رأى الفرصة سانحة والزمن مواتياً ، فقد قرأنا له في العام الماضي بحوثاً طريفة في الازمة الاقتصادية بعث بها الى جريدة المقطم من اوربا وهكذا أقام الدليل على انه لم ينس الناس ولم ينصرف عن الجمهور شأن كثيرين من أهل الفكر بلغوا الذروة في التجارة ، او قعدوا مقاعد الحكومات ، وتولوا الوزارات والرئاسات ، فقد كانت لورد بيكونسفيلد على رأس الوزارة الانجليزية فلم يمنعه منصبه على خطورته ان يضع ذهنه في كل مكتبة ، ويعيش في خزانة كل قارىء . فبينما هو ينشئ المحالفات ، ويوقع المعاهدات ، ويرأس الوزارات ، اذ هو طارح عنه كل ذلك عائد الى حجرته ، ليغيب في تفكيره ، يأخذ في وضع رواياته ، ثم نحن لانسى ايضاً

ان جوته كان وزيراً ورئيس بلاط دوق فيمار فما كان ذلك ليقتل فيه الروح المضطربة في جانحته ، والنزعة الفكرية التي تتقد في فؤاده . ثم لا ننسى كذلك اداء العرب الذين عاشوا في قصور الخلفاء ، وولوا الولايات ، فأبوا الا أن يظلوا مع ذلك اداء وكتباً أكثر منهم ولاية وحكوميين ...

وأسعد باسيلي باشا قد شق طريقه الى المجد باقدامه وشجاعته ، وهو قدوة صالحة لمن ينبغي ان يسلك سبيل التجارة او الاقتصاد ، وهو يجمع الى مواهبه وصفاته الممتازة حباً للخير وللإنسانية ويرى في الاحسان وسيلة تقوى بها ارادته في العمل ، وحياة الضمير في دائرة العمل المادي أقوى منها في سائر الاعمال الاخرى ، فهو أريحي كريم ، والتاجر الكريم عنصر غريب في أهل صناعته ، لان أكثر التجار يستمكون بالاخلاق التجارية في الحياة العامة لانهم يدخلون أموالهم في الدفاتر والسجلات ولعلمهم يرون خروج شيء منها ضرباً من التكلفة والمشقة وفساد النظام . ولكن المبرات التي يخرجها التاجر من فضل ارباحه هي وسيلة جميلة من وسائل الزيادة فيها ومباركتها ، وانت ترى روكفلر الاميركي ملك المال ، قد كان له من ملائحته العديدة غنى عن التماس حب المساكين ، واكتساب قلوب المنكوبين في الحياة ، لان له متاجر ضخمة لا تعد وأموالاً مركومة لا تنفذ

ولكن الحياة لا قيمة لها اذا خرج الانسان منها ولم يستطع ان يكتسب قلباً واحداً من قلوب هذه الارض ، ولو كان روكفلر هذا قصر عنايته على ماله وراثته ، فلم ينشئ الملاهي والمعاهد والمستوصفات والجامعات ، ولم يخرج من دفتاره جزءاً كبيراً مما دخلها ، لخرج هو الآخر روكفلر فقط ، ولكن روكفلر عرف معنى الحياة وأدرك قيمة المال في نفسه ، فاشترى بكل ثروته كلمة واحدة اراد ان يذهب بها الى الابد وهي كلمة « روكفلر محسن »

وعلى هذا المبدأ سار أسعد باسيلي فهو يتفق جزءاً كبيراً من ارباحه على الفقراء والاحتاجين واعانة الاسرات التي ادرکها البؤس ، فلم يلبث ان اصبح محبوباً من الناس ، جميل الذكر بين الطبقات ، وكان من ذلك ان انتخب رئيساً للمجلس الطائفي للروم الارثوذكس المصريين ، ورئيساً للجمعية الخيرية السورية الارثوذكسية ، ووكيلاً للفرقة التجارية المصرية ، وقاضياً محلفاً بمحكمة الاسكندرية المختلطة ، ثم عرفت الحكومة المصرية مكانته السامية ، فطلبت الى مجلس الوصاية الموقر الانعام عليه برتبة الباشوية الرفيعة ، فأصدر المجلس امره بهذا الانعام السامي وسبق آخر الامر ، ان أعترف اليك ايها القارئ بانني لا أعرف رجلاً أعذب حديثاً ، ولا أبعد شراً ، ولا أقرب خيراً ، ولا أحلى خلقاً وروحاً ، من أسعد باسيلي باشا

تقدم الري بمصر

في العصر الحديث

لعالى حسين سرى باشا

اقتطف «المقطم» ما يلي من المختصر النفيس الذي وضعه معالي حسين سرى باشا وزير الاشغال: تمّ بإنشاء القناطر الخيرية وضع الحجر الاساسي في بناء الري المستديم في الوجه البحري وأمكن بواسطتها امداد هذه الاراضي بما يلزمها من الماء مدة الصيف مما ساعد على تحويل المساحات الحوضية لتروى بطريقة الري المستديم وكانت مساحة الاراضي التي تزرع فيها بعض المحاصيل الصيفية لا تتعدى مليوني فدان وقت البدء في بناء القناطر فزادت بعد ذلك الى ما يربى على ثلاثة ملايين تتمتع بنظام الري المستديم ولا يخفى ما كان لهذا التوسع من اثر في زيادة مقدار المحاصيل وما ترتب عليه من ازدياد موارد البلد وازدياد ثروتها بارتفاع ثمن اراضيها وبذلك تكون الجهود المتواصلة التي بذلها المغفور له محمد علي باشا قد اثمرت وتحقيق الامل الذي تطلع اليه . كذلك كان انشاء ترعة الابراهيمية الخطوة الاولى في ادخال نظام الري المستديم في مصر الوسطى . اذ لما لمس سكان هذه المناطق أثر محصول القطن في الثروة الزراعية عملوا على زراعته في بعض مساحاتهم الحوضية وكانوا يحيطون هذه المساحات بحسور تقيها طغيان الماء عليها مدة الفيضان ويرفعون ما يلزمها من الماء بالآلات اما من النيل وإما من الآبار الارتروازية . ومن ثمّ امتد العمل جدياً الى تحويل جانب من اراضي مصر الوسطى الى الري الصيفي فجاءت بأطيب الثمرات . ولعلنا نجد بين سطور الجدول الآتي ما يكفي للتدليل على مقدار ما جنّته البلاد من الربح منذ أن أدخل المغفور له محمد علي باشا زراعة القطن في مصر بازدياد مقدار هذا المحصول سنة بعد اخرى

السنة	قنطار	بالة	السنة	قنطار	بالة
١٨٢٠	٩٤٤	٢٣٤	١٨٨٠	٢٧٩٢٠٠٠	٦٩٨٠٠٠
١٨٣٠	١٦٨٦٧٥	٤٦٦٦٩	١٨٩٠	٤١٦٠٠٠٠	١٠٤٠٠٠٠
١٨٤٠	١٩٣٣٠٧	٤٨٣٧٧	١٩٠٠	٦٤٤٠٠٠٠	١٦١٠٠٠٠
١٨٥٠	٣٨٤٤٣٩	٩٦١٠٠	١٩١٠	٧٥٠٠٠٠٠	١٨٧٦٠٠٠
١٨٦٠	٥٩٦٢٠٠	١٤٩٠٠٠	١٩٢٠	٦٠٣٦٠٠٠	١٥٠٩٠٠٠
١٨٧٠	١٩٦٦٠٠٠	٤٩١٥٠٠	١٩٣٠	٨٢٧٦٠٠٠	٢٠٦٩٠٠٠

وقد بلغ محصول القطن في عام ١٩٣٦ ما يزيد على تسعة ملايين من القناطير وهي أكبر مقدار أنتجته الأراضي المصرية منذ عهد ادخال زراعته الى الآن . على ان زراعة الاراضي مدة الصيف تتطلب ريه في هذا الوقت الذي تقل فيه تصرفات النيل ويعجز ايراده عن ان يعدها فاجاتها من الماء لذلك كان على القائمين بامر التوسع في كل مرحلة ان يفكروا في توفير الماء لازم للمساحات الصيفية ومن هنا عادت فتجددت فكرة التخزين وحجز مقادير من الفيضان الزائد على الحاجة والاستفادة به مدة الصيف وسبق ان قلنا ان اول من فكر بتخزين الماء هم ملوك الاسرة الثانية عشرة وبدت هذه الفكرة من بعدهم لمحمد علي باشا مهندس لبنان باشا بدراسة هذا المشروع

وفكر هذا في منخفض بحيرة موريس القديم غير انه عدل عن هذه الفكرة لما رآه من التكاليف الباهظة التي تلزم لتنفيذها . ثم رأى اقامة قناطر عند جبل السلسلة لتخزين الماء أمامها الا ان ضعف القناطر الخيرية بعد بنائها لم يشجعه على المضي في تنفيذ هذه الفكرة ولقد وجدت فكرة تخزين الماء عند جبل السلسلة مرة أخرى ثم عاد الرأي فأنحرف عن هذا الاتجاه الى منخفض وادي الريان وهكذا الى ان استقر على استخدام مجرى النهر نفسه للتخزين أخذت الحكومة في بحث هذا الاقتراح وعهدت الى لجنة من المهندسين الاختصاصيين باختيار موقع الموافق لهذا الخزان فقررت اللجنة بعد دراسة مجرى النيل بين حلقا والقاهرة — ان أنسب موقع يبني عنده هو شلال اسوان بحري جزيرة أنس الوجود وكان تصميم السد في دى الامر يسمح بالحجز عليه الى منسوب ١١٦ متر أو تبلغ سعة الخزان عندها المنسوب نحو ثلاثة آلاف مليون من الامتار المكعبة الا ان الرغبة في المحافظة على معبد أنس الوجود الذي يقع بحوض الخزان حالت دون ذلك واقتصر في بناء السد الذي تم في سنة ١٩٠٢ على جعل منسوب تخزين ١٠٦ امتار وبذلك لم ينشأ الخزان الا ليسع ملياراً واحداً فقط

وللاتفاف بماء التخزين رأى رجال الري في ذلك الوقت ان يعملوا على رفع منسوب ماء النيل عند قم ترعة الابراهيمية ليتمكنوا من اعطاء مصر الوسطى نصيبها من هذا الماء مدة الصيف . كانت هذه التركة تغذى من النيل بدون قنطرة تساعد على رفع الماء أمامها للدرجة التي تكفي لامداد الزمام المترتب ريه عليها بالماء اللازم له ولمعالجة هذه الحال استقر الرأي على اقامة قناطر على النيل عند اسبوط وتم بناء هذه القناطر سنة ١٩٠٢ وكذلك أمكن لترعة الابراهيمية ان تأخذ نصيبها من الماء مدة الفيضان والصيف دون ان يكون لمناسيب النيل تأثير كبير فيها

وفي سنة ١٩٠٣ تمت اقامة قناطر زفتى على فرع دمياط لتغذية أراضي شمال مديرية الدقهلية الجزء الشرقي من الغربية في الفترة الحرجة وقت طفي الشراقي واشتداد الطلب على الماء

وامتدت الجهود بعد هذه المرحلة الى العناية بتحسين وسائل الري في أراضي مصر العليا التي تروى بطريقة الري الحوضية ولما رؤي ان أراضي مديرية قنا تحتاج الى تحسين حالة ريهها فكسّر في اقامة قناطر اسنا على النيل لترفع أمامها ماء الفيضان بحيث تكفي لغمر هذه الحياض وبدى في اقامة هذه القناطر سنة ١٩٠٦ وتم بناؤها سنة ١٩٠٨

ولقد جرت العادة في الماضي ان يقام سنوياً سدان من التراب في كل من فرعي النيل أحدهما بالقرب من ادفينا والاخر عند فارسكور ثم أبطلت اقامتهما في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر حتى كانت سنة ١٩٠٠ حيث أعيد انشاء السدين ومنذ هذا التاريخ درجت مصلحة الري على ان تقيمها سنوياً لمنع دخول ماء البحر المالح الى المجرى وتلوث مائه بها ولتتمكن من ان تحجز أمامها ماء الرياح الذي يتسرب من الاراضي الزراعية للانتفاع به في الري عند اشتداد الطلب . ويبدأ العمل عادة في انشاء السدين في ديسمبر ويتم قفلهما في أواخر فبراير او أوائل مارس وتختلف هذه التواريخ باختلاف تصرف النهر الطبيعي ويبني حسابها على قاعدة قفل السدود قبل التاريخ الذي يجب ألا تمر بعده قطرة من ماء النهر الى البحر او بمعنى آخر التاريخ الذي يقابل البدء في تفريغ خزان اسوان ويستمر كل منهما قائماً حتى يقطعاً عند حلول ماء الفيضان في يوليو او أغسطس

ولقد دعت قلة الايراد الذي أتت به السنوات الشحيحة في اوائل القرن الحالي الى إعادة التفكير في تخزين مقادير أخرى من الماء واتجهت الانظار الى خزان اسوان للعمل على رفع منسوب التخزين به لعله بذلك يسد النقص في الايراد الطبيعي للنهر عن احتياجات الاراضي الزراعية . وانهى هذا التفكير الى البدء في تلية خزان اسوان الاولى التي تمت سنة ١٩١٢ وأصبحت سعة الخزان بعدها حوالي ٢٥٠٠ مليون متر مكعب وقد استخدمت كمية الماء الاضافية في تحسين حالة الري وفي التوسع في جانب من الاراضي البور في الوجه البحري ولما تم الانتفاع بهذه الزيادة كانت مساحة الاراضي المنزرعة بالدلتا ٣,٣٠٥,٠٠٠ فدان ومساحة الاراضي التي تروى رياً مستديماً في مصر الوسطى ١,٠٥٠,٠٠٠ فدان وبذلك يكون قد أمكن الانتفاع بماء التخزين كله عند اسوان في استصلاح نحو ٣,٠٠٠,٠٠٠ فدان من اراضي الدلتا وفي تحويل حوالي ٤٥٠,٠٠٠ فدان من حياض مصر الوسطى الى الري الصيفي . وفي سنة ١٩٣٠ تم بناء قناطر نجع حمادي على النيل في وسط المسافة تقريباً من قناطر اسنا الى قناطر اسيوط وذلك لضمان الري الحوضي في مديرية جرجا ولا مكان تحويل الاراضي الحوضية بمديرتي اسيوط وجرجا الى الري المستديم بعد اتمام اعمال التخزين . وتم حفر ترعتين تأخذان من امام هذه القناطر أحدهما بالبر الايسر للنيل وهي ترعة الفؤادية والاخرى بالبر الايمن وتسمى ترعة الفاروقية

جَدِيقَةُ الْمُقْتَطَفِ

رولا

من أروع قصائد الفريد دي موسيه
ترجمته فليكس فارسي



رولا

من أروع قصائد الفريد دي موسيه
ترجمة فليكسي فارسي

تمهيد

إنَّ الفكرة والبيان لعزیزان على كل كاتب ، وقد تكون غیرته على بیانه أشدَّ من غیرته على تفكيره ، والكاتب یرید آراءه وأحكامه أقوالاً في كل مجال فلا یلوي علیها في حين ان صفحة تدبجها یراعته تسقط عن شخصيته سقوط الجبین عن أحشاء أمه ، فكل ذي بیان حریص على بیانه حرص الحياة على مظهرها ، وما تدرك الحياة نفسها الا على معاكس شخصيتها

إنَّ في بذل البیان لتفكير الغير كثيراً من التضحية لكاتب اندغم تفكيره في بیانه ، لان هذا البذل یستلزم إقامة حاجز بين القوة المبدعة مما کمن فيها تذكاراً وتنسيقاً ، علماً بالاستقراء وعلماً بالحس الباطن ، وبين قوَّة التعبير تصويراً وتلویناً وتنغیماً . وفي هذا الفصل من الجهد ما لا یدركه الا من یعانيه . ولا یعاني هذه المشقة كل من یقتحم الترجمة اطلاقاً ، فان من الترجمة ما لا تتعدى الاقتدار على النسخ وليس هذا النوع ما نعني ، فللترجم الذي یقل عن لغات الغرب کتاباً یرى بحث صناعة او مسألة اقتصادية لا یرى عمله اذا هو امثلک ناصية اللغتين الا عبارة عن كتابة ما سطرته الریشة من الشمال الى اليمين بکلمات یخطها القلم من اليمين الى الشمال ولمثل هذا العمل قیمته ولا نکر غیر انه جدَّ بعيد عن مجال البیان الأدبي ، وليس فيه غیر أثر الجهد والاطلاع والدقة اذ لا یمکنه ان یضمن أشياء من شخصية المترجم الادبية

شأن اذا بین من یرجم ومن یسلخ انشاءه عن تفكيره لیسکون هیكلًا سويًا من البیان تحتله روح مؤلف مبدع فان لك ان تعهد الى اي مهندس شئت بان یقل لك خارطة مهما تعددت خطوطها

وتشعبت تعاريجها ، فانهُ ليستعين بالمسطرة والبركار فيأتيك بنسخة عنها لا تفرق عن الاصل بشيء ، ولو عهدت الى عشرة مهندسين بهذا العمل لآثاك كل واحد منهم بنسخة لا تفرق عن نسخ الآخرين . ولكنك لن تصل الى النتيجة نفسها اذا أنت عهدت الى رسامين اثنين برسم صورة انسان او حيوان او زهرة او منظر من مناظر الطبيعة . ذلك لان رسم الجُماد يستلزم العمل بصناعة ثابتة الاصول ورسم ما تتجلى فيه الحياة يستلزم العمل بالفن ، وما الفن الا قوة متغلغلة كالحياة نفسها في أعماقٍ يحجل الفنان نفسه أغوارها

ناقل المعلومات الوضعية والقصص والاحاديث العادية من لسان الى لسان مترجم كلمات بكلمات أما ناقل البيان الفني والشعري ففنان وشاعر يعبر ببيانه بلغته ويتنازل عنه لتفكير عبقرى يستحق أن يسكت الناقلُ تفكيره أمامه ويطوي لديه شراع خياله والهامه

وبعد ، فهذا تعبير بالعربية عن قصيدة من أروع قصائد الفريد دي موسى ان لم تكن اروعها جميعاً ، تصبّتنا بالهاما وفننا فاقبحنا ايرادها بالعربية ناثرين نظيمها معرضين عن قوافيها ، اذ لو اردنا تقييدها بالنظم العربي لآضفنا الى غموض الاصل غموضاً آخر يُبعد الشقة بين إلهام موسى وبيانه ، ونحن باعتمادنا النثر كنّا اقرب من الشاعر نفسه الى إلهامه وشاعريته

لاح لبعض كبار كتّابنا ان لا فائدة من ترجمة الشعر لانه قائم على عناصر لا يمكنها اجتياز حدود لغتها للدخول في حدود لغة اخرى ، ونحن مع اعترافنا بما للنظم من ميزة لا نعتقد ان الوزن والقافية هما اهم عناصر القصيدة بل قد تتضاءل قيمتهما حتى ليصبحا في حكم المعدوم في القصائد التي يسودها الشعر العالي وروعة الموسيقى الفنية في إحكام ألفاظها . فانك لو قرأت لموسى صفحة من انشائه المرسل لتحس بالهزة نفسها التي تستولي على مشاعرك حين تقرأ أجمل قصائده

وهناك ظاهرة أخرى تدلك على ان ما يشجيك من سماع القصيد ليس موسيقى الساكن والمتحرك في التفاعيل او (التكمّ والتّم) بتعبير آخر بل هو انتظام الالفاظ في سلك البيان وتلاؤم النبرات ، وهذه الظاهرة تتجلى لك في طريقة إنشاد

الفنانين للشعر فهم لا يقرأونه سوائاً أعريباً كان أم أفرنجياً على الطريقة القديمة التي تدخل التفاعيل الى الاذن كأنها نقرات الدفوف بل يلقونه بالمد والقصر تبعاً لموسيقى النثر الكامنة في النظم متجاوزين حدود القوافي ليشعروك بروح القصيدة دون تقطيعه

ولو انك سمعت ملقياً من كبار فناني الفرنجة ينشدك قصيدة فانك لا تميز لاول وهلة هل ما يلقيه من المنظوم او من المنشور

لذلك لا نرى ما يراه البعض من الاستغناء عن ترجمة القصائد الخالدة من اللغات الاجنبية الى العربية بحجة انها تفقد ميزاتها وروعها ، فاننا نرى بالعكس ان المترجم اذا ملك ناصية البيان يمكنه ان يزيد في جلاء القصيدة وجمالها بتوجيه موسيقاها ومراميها توجيهاً اقرب الى الفن المطلق من توجيه المؤلف نفسه . لان المؤلف الناظم قد اكرهته الاوزان والقوافي على مجازاة قيودها

ان الفريد دي موسه لا قدر من تسلط على الالفاظ فانتادت له بأوزانها وقوافيها ، ومع ذلك فقد رأينا في قصيدته (رولاً) يضطر احياناً الى الانقياد لأوزانه وقوافيه فتتحكم بألهامه وتجبره الى ترسيمها بخطوات تخرجه عن سبيله ، وكنا نحن غير مقيدن إلا بفكرته وعواطفه وأسلوبه ، فأمكننا ان نرجع خطواته التائهة الى مواقعها وما نحتاج الى مثل هذا الجهد عندما نترجم من نثره ونثر غيره من أرباب الفن الخالدين

ويلوح لنا ان اللغة العربية بما فيها من مرونة والفاظ موسيقية أليق من اية لغة باستيعاب فنون الامم جميعاً ، ذلك لاننا نقرأ ما يترجمه الفرنجة عن لغاتهم وعن لغتنا ونشعر بتمرد الاصل يغالبه المترجم فلا يتوصل الى دمه بطابع له . وما نشعر بمثل هذا القصور عند ما نطالع ترجمة كبار كتابنا

لقد حاولنا ان ننقل قصيدة رولاً فأعزناها بياننا واذا كان توفيقنا لم يتعد حدود اقتدارنا ، فحسبنا اننا اقتحمنا مسلكاً غير معبد لن يصعب على عابرقنا تذليل صعابه

رولا

مهرارة الى محمود نجور

— ١ —

أيشجيك الزمان الذي كانت الارض فيه مسرحاً للسماء فتغصّ بطغيات الآلهة :
آلهة الاساطير ، حين نفرت الزهرة من احشاء الغمر وهي تنفض بلل دموعه
وتشبّ عاقصة ضفائر شعرها لتسمرع الدنيا بلواقحها . . .

أيشجيك الزمان الذي كانت فيه الحور الهائمات تداعبن شعاع الشمس طافرات
بين ازاهر القدران متحرّشات بأرباب الحقول المتراخين تحت ظلال الغاب ، حين
كانت الينابيع ترتعش لقبلات الاله الذي انقلب على ضفافها نرجساً نديّاً ، بينما كان
هرقل الجيّار المدثر بعباءته الدموية يمد على الارض وارف عدله ، وبينما كان آلهة
الغابات يطلّون من بين أغصان السنديان الخضراء المتأودة ويرددون أغنية السابلة
بأصداء الصغير .

ذلك زمن كانت الألوهية فيه تغلغل في كل شيء حتى في صميم آلام الناس ،
فكانوا يعبدون ما ينحرون في هذا الزمان .

ذلك زمن كان له اربعة آلاف إله ولم يكن فيه جاحد واحد : زمن تمتع فيه
الكل بالسعادة فما حرم منها الا (بروموته) شقيق ابليس الهابط بهبوطه .

لقد مضى ذلك العهد فتبدلت السماء كما تبدلت الارض والانسان ، فاذا مهد
العالم يستحيل له لحدّاً ، وقد هبت أعاصير الشمال على انقاض روما فكفنتها
بأوشحتها السوداء .

أيشجيك الزمان الذي توارى فيه عصر البربر مخلفاً عصرًا ذهبيًا شهد العالم
القديم يصعد لحدّه ليهبّ حين هبّ العازار من قبره مطلقاً على الدنيا وقد التمع
جبينه بأنوار الشباب

ايشيچيك الزمان الذي كانت اغانيها القديمة فيه تنشر اجنحتها الذهبية لتجول في آفاقها الساحرات ، حين كان كل ما لنا من صروح ومعتقدات يشعح يياض البكارة والظهور حين كان كل شيء بُعث من لحدّه بعد ان بسط عيسى عليه راحتيه ، حين كان بيت الكاهن وقصر الامير يرفعان كلَّ على جبهته صليباً يمد بذراعيه الى الآفاق ؟ ايشيچيك زمن كانت فيه بيعة السيدة في كولونيا وبيعة الحواري بطرس في ستراسبورغ تنهضتان كأنهما اكوام صخور جاثمة في خشوعها الى اناشيد الشعوب تسبح الله مستقبلة طلائع العصر الجديد ؟ ذلك زمان كان للحياة فتوتها فيه وكان الموت فيه راسياً على الرجا .

أي ، عيسى ، ما انا ممن تحملهم خطواتهم المرتعشة الى معابدك لتأدية فروض الصلاة . لست ممن يتسلقون مرتقى الجلجلة لينظروا امام صليبك مقبلين اقدامك الدامية ، انا ممن يلبثون وقوفاً امام ابوابها كلك المقدسة ، بينما تهبّ المدائح على جماعات المؤمنين قتلويهم كما تلوي الرياح متأودات الغاب ، فيترامون على الركب متممين كلمات التسليم لمشيئة الله

أنا لا أؤمن بكلمتك ، أيها المسيح ، وما أنا الا قادم متأخري بقدم عالمياً تجاوز حد الهرم ، وهل يلد جيل لا امل له الا جيلاً وقحاً لا خشية في قلبه ؟ لقد أفقرت سماء هذا الزمان فأقلت كواكبها ونجومها وما يسود الا الصدف العمياء على من انتقصوا من اوهامهم وهم يندفعون شتية مروعاً على مراكض الاشباح
لأن الروح القديمة تهب على ردموم العالم مشوّهة ما في السماء من اجناد قاذفة بهم الى أعماق الانوار

لقد نخلخلت مسامير صليبك تحت مستندك عليه ، وزلزلت الارض تحت جدران مدفنك ، فأين مجدك أيها المسيح . ان مجسمك قد استحال رماداً على صلبانا السوداء ..

أستميحك أيها السيد أن أضع قبلة على هذا الرماد ، انا ابن هذا العصر الجاحد ، دعني أسح دموعي على هذه الارض الباردة التي وهبتها الحياة بموتك وها هي ذي صائرة بعدك الى الموت

من سيعيد اليها حياتها ، وقد كنت احييتها بدمك الطاهر . من سيأتي الى العالم مرة اخرى بما اتيت به ، من سيعيد اليها الشباب نحن ابناء الامس المثقلين بأوصاب الشيخوخة والهرم . وحال العالم اليوم كحاله يوم ولدت وهذا الجيل يتوقع ما توقعه ابناء عهدك ، على ان ما فقدناه نحن قد تجاوز ما فقدناه الاولون
إن العازار هذه الازمان مسجى في قبره الفسيح ، فأين المخلص يدرج الحجر عنه ؟ ابن الحوارى بولس الشيخ يقف كما كان يقف بين ابناء روما حين كانت عيون الشعب معلقة بأطماره ؟

اين نحن من عليّة العشاء السري ومن سراديب أوائل المؤمنين ؟
من منا يحمل هالة النور على جبينه . وعلى اقدام من ستنكسب عطور المجدلية ؟
في أي جوّ سيصدو الصوت الخففت لأصوات البشر ، من منا سيرقى مرتبة الالهية ؟

لقد عادت الارض الى هرمها وقديم انحطاطها فهي ترتعش اليوم كما ارتعشت حين ظهر يوحنا في الصحراء وهتف هتفته القدسية ، غير ان الارض المحتضرة احست في ذلك العهد بالخاض لندائه وتحرك في احشائها عالم جديد
أفليس عهدنا كهمد كلوديوس وطباريوس ، وقد أخلق الدهر كل شيء وارتوى كيوان من دماء ابنائه . لقد تعبت الانسانية من توليد الآمال ، وهذا ضرعها يتدلى خاوياً لكثرة ما أرضعت فهي الآن ساجية تطلب الراحة في عقمها

— ٢ —

وكان جاك رولاً أضلّ فاسق في باريس : في المدينة المجلية بين مدن العالم باندفاق رذائلها وابتذال فحشائها . وما لاح بين اعمدة مواخيرها ولا أنارت مصابيحها الحاسنة ولدأعربداً كرولاً على موائد ميسرها وولائمها
وما كان لرولاً من قائد غير شهواته وقد أسلم لها زمام حياته وهي تنساب أمامه طليقة كقطيع نام عنه راعيه ، فأصبح يتطلع الى ايامه كوسنان ينظر الى ذاهبات الماء في القدير

وانحصرت حياة رولاً في شهواته فاستقرت في جسده كنزلاء فندق سادهم السكر يتلهون تارة بتخديش الجدران وتحطيم الأسرة متناوشين في الظلام متمازقين

كالجآ ذر والمصارعين ويتجمعون تارة متعاطين الكؤوس متناشدين كسرب اطيّار
دفعهم الرياح الى شجرة مزهرة في أرض قاحلة
وكان والد رولا وهو من صعايك البلهاء ربى ولده تربية من سيرت ميراثاً
ضخماً وقد تناسى انه بدّد هو نفسه اكثر من نصف ثروته
ووجد رولا نفسه في ليلة من ليالي الخريف سيداً يتولى زمام نفسه وهو لا
يحسن صنعة ولا يعرف فناً ولو انه أحسن اي عمل لما أطاق القيام به، وهل يحمل
نفسه مشقة من يرى السعي للرزق جديراً بالخدام، ومن لا يقابل الناس إلاّ بابتسامة
لا يعرف احد الآه معناها ؟
وذهب رولا يتمتع بالزهيد الباقي له إراثاً عن أبيه محتفظاً بغرور السيد لا اعتقاده
بأن الله قد ابدعه سيداً

قيل ان هرقل جلس يوماً وقد تعب من جهوده في عمله الابدي على مفرق
طريقين تناديه الفضيلة من أحدهما وتراوده ملذات الفسق من الآخر فاتبع الفضيلة
إذ لاحت له أبهى وأجل من اللذات
ذلك زمان كان فيه قبحٌ وجمال أما الآن فلا جمال لا في الخير ولا في الشر،
وليس لهذا الجيل ان يقف مشككاً حائراً بعد ان سبقته أجيالٌ اختطت لها جادتها
الكبرى بين طريقين اندثرت معالمهما حول المسلك الجديد ...
وما كان رولا وهو يتبع هذا المسلك في العشرين من عمره إلاّ مقتفياً خطوات
من تقدموا عليه من آباءه

ما يستقبل انظار الداخل الى المدن إلاّ مجازرها وأسوارها ومدافنها، وهكذا
من يتجه الى المجتمع لا تلوح له عند اقترابه منه إلاّ نفاياه، فالطهر والعفاف محجبان
في حين ان الرذيلة والابتذال يتعانقان أمام عين الشمس . وما يرحب الناس بآبن
جلدتهم اذا هو تقدم نحوهم شاهراً النصل القاطع الذي وهبته إياه السماء ليدافع به
عن نفسه فهم لا يفسحون له مجالاً إلاّ اذا غمس هذا النصل أولاً في نهر
الضلالة والاقذار ...

وكان جاك صريحاً جسوراً رائع الجمال يألف من الانطباع على الحياة ولا يعرف له آلهة غير الشمس ، عاش ثلاث سنوات مخصصاً لكل سنة كيساً من الذهب ، فلم تر الأرض من مشارقها الى مغاربها آدمياً مثله ينثر احتقاره على الشعوب وأسيادها مشى رولاً بنفس عارية في مساخر هذه الحياة معربداً صاحباً بحراً اذبال غروره فما جهل احد انه بدد جميع ما يملك في سنواته الثلاث ، وكان الناس ينظرون اليه مبسمين فيعلن لهم انه أعد قذيفة يلهب بها دماغه حين ينتهي به شوطه الى الاملاق وكان هذا الفتى الجموح ابي النفس ساذجاً كالاطفال عطوفاً كالاشفاق عظيماً كالامل لا يبالي بالدهر ولا يحسب له حساباً وهو يعتقد انه مدبر للحادثات زرداً لا يقنيه الزمان

عندما يشرد فرس القفر الجموح في الصحراء وتمر الايام تتلبه بالسعار القاتل يتطلع عيناً الى السماء متوقفاً منها رذاذاً يبيل النخيل المقتنع بالغبار وقد تدلت اغصانه من وهج السماء المشتعلة كأنها غداثر النواذب ، فيذهب مقتشاً على الآبار وقد نزعها السنة النار ، وتلوح له الآساد منطرحه على الصخور تعج بالاثين وقد هتت قواها الظلم ، عندئذ ، يفرس الفرس منخرجه الداميتين في الرمال ، والرمال المحرقة تمص دماءه فينطرح على القبراء وينطفئ النور في عينيه فتدور به ذرات الرمال الصفراء لتلفعه بأكفانها الصامتة ابدأ في طيها ونشرها

لو علم هذا الفرس ، عند ما مرت به القافلة قرب الساج ، انه باستسلامه لحداة العيس واقتفائه آثارهم ينجو بحياته لكان ادلى بعنقه وكبت جموحه فوجد في بغداد معالف القضب الندي المزهر وآباراً لا يدرك الطرف غورها

اذا كان الله قد جبلنا من طينة واحدة ، فلا ريب انه انشأ من صلصال غريب من يشبهون العقبان بتمردهم ولعله التي بخزفهم ليحفظ تحت اشعة شمس لاذعة ، فجاؤوا الحياة بأجنحة لا تلوى ورؤوس لا تنخفض ، فعاشوا في الدنيا وما امتلكوا منها الا كلمة الحرية

— ٣ —

أعلى ثلج أم على دمية من رخام يتلاعب اشعاع المصباح الذهبي على الستائر
الزرقاء المتهدلة فوق السرير ؟ لا . . ليس للثلج ولا للرخام مثل بياض هذه الطفلة
النائمة تتردد انفاسها كالنسيم المهوّم على اعشاب البحار
هي طفلة ما صرّ بها الا خمسة عشر ربيعاً ولما تنضج انوثتها بعد . والملاك
المنعطف عليها يرتاب فيها فلا يدري اهو اخوها أم هو عاشق لها
لقد انفرط شعرها على جسمها فكان له دناراً وهي قابضة على صليب عقدها
كانها تُشهِد الليل على انها رفعت الى الله صلواتها قبل استسلامها للكرى وانها
ستكرر هذه الصلاة عند ما تفيق مع الضحى .

لقد استغرقت في نومها وتألّق جبينها بهالة النبل والطهر فكان السماء قد اغدقتها
رذاذاً من العفاف الأعلى .

هي نائمة عارية وراحتها مبسوطة على قلبها ، فيا لروعة هذا الجمال هابة الليل
فارتعش وشاحه الاربد أظلالاً يداعبها النور فتتد الاظلال خاشعة عن هذا الجمال

يا لا نفاس هذه العذراء تورت الرهبة كأنها صدى خطوات عابد خاشع امام هيكله .
في الغرفة ازهار ليون ناضرة ، ونول وكتب ، وعلى الحائط غصن مقدس
يتدلّ حزيناً فوق صليب قديم ، فما اطهر ك يارقاد الطفولة وقد القت اليك السماء
بدرع الجمال ، وهل عاطفة الطفولة الا صلاة خاشعة كأنها محبة الارواح .
أفأ يشعر من يتقدم الى هذه الطفلة الراقدة بأن فوق سريرها ملاكاً يرتعش
جناحه وهو ساهر عليها

أهي امك ايتها الفتاة ، هذه المرأة الجالسة قرب سريرك تردد انظارها على
الساعة النابضة وعلى الموقد المستعر ، فتدفع بذاهب صبرها من حين الى حين .
ماذا تراها تنتظر في مثل هذا الهزيع من الليل ، وعلى م تنهض لتعانين بابك وشرفك ،
اذا كانت هذه المرأة أمك ، فمن تنتظر غير أليك ، وأبوك قد مات منذ زمن طويل .

لمن هذه الكؤوس وهذه المائدة وما عليها من الطعام ، لمن أشعلت هذه الشموع
ومن هو القادم يا ترى ؟

ليأت من يشاء ، فأنت مستغرقة في رقائك ، ولست أنت الحليّة المهيأة للعاشق
المنتظر . ومن يجسر ان يتلفظ بالقرام أمامك وهذه أحلامك مشرقة بأنصع من
ضياء النهار في ظلمة ليالك

لمن هذا الدثار تسمح المرأة الساهدة عنه ما علق به من أمطار وأوحال
انه لذار صغير فهو اذاً دثارك ، يا ماريا ، وهذه آثار البلل على شعرك ،
واحمرار التعب على خديك . فأين كنت ذاهبة تحت العاصفة في هذا الليل
لا . . . ان هذه المرأة ليست أمك

سكوتاً . . . ان ما وراء الباب أصواتاً خافتة ، وقد لاح من فرجة دقيبه نساء
نصف عاريات تشعث غداً رهنً وهنً ينزلقن انزلاقاً في السرداب المظلم
في الغرفة المحاذية مصباح تنضاءل أنواره على كؤوس متساقطة فوق الخوان
المضرج بثلاث الخمور وعلى نقايا ما تمتعت به الفحشاء
أغلق الباب وتعاليت من ورائه قهقهات مروعة

انها لاشباح أحلام ، يا ماريا ، فكل شيء يرقد حولك بسلام ، وهذه المرأة
الساهرة قربك هي أمك ، وما يعبق حولك الا عرف الازهار ، وليس على شعرك
الا بلل الزيت المعطر وما احمرار وجهك الا تورّد من دماء قلبك
سكوتاً . . . لقد قرع الباب ، وأقلق سكّون الظلام وقع أقدام تطأ الدهليز ،
ولمع نور جسّاس يتقدّم شبّحين

هذا أنت ، يا رولا . . . ما ذا أتيت تفعل في هذا المكان

أي فوست . . . أفأ كنت مستعداً لمبارحة الارض في تلك الليلة المفجعة حين
تقدّم اليك الملاك المطرود من الجنان ملفعاً بدثاره الناري فخملك ليجول بك في أبعاد الافياف
أفأ كنت قذفت بلعنتك الأخيرة ، وضربت بعرض جدرانك المتهدمة جبينك

المجعد بفضون ستين عاماً ، حين سمعت من بعيد نبرات الاناشيد المقدسة فارتعشت
والسموم تحول على شفتيك والموت يواكبك وأنت ترتكب الكبائر حتى وصلت الى
آخر مرحلة من انتحارك البطيء ، فانفجر قلبك وقد أخلفه الزمان كما يتفتق الصخر
من لوافح الحر أيام الصقيع

لقد كانت دنت ساعتك أيها الشيخ ، وكنت تواجه الفناء بلحبتك وقد رعى سوادها
المشيب وهزت الحياة جذورك لتقتلعها ، فاذا بملاك الموت يقف حائراً بك ، حين
قطرت من ساعدك النحيل قطرة من دمك تريقها كهده لا بليس ليردك الى الدنيا
يا له من نسيم بديل مرّ على رأسك المجلل بالبياض ، أي فوست ، عند ما قضى
لك ان تعود الى الدنيا لتتعلق بأهداب طفلة في الخامسة عشرة من ربيع الحياة ...

خمس عشرة ربيعاً ، هو عمر جوليت ، اي روميو ، عند ما كانت قبلاتكما
تمازجان مع نشيد القنابر ذاهبة معها على أجنحة النسفات
خمس عشرة ربيعاً ، هي شجرة الحياة في الواحة الخضلة بين كئيبان الرمال
خمس عشرة ربيعاً ، هو عمر حواء عندما نشأت من راحة الله فأودعها خلود الاجيال
لقد كنت زهرة الجنة ، أيها المرأة الاولى ، فراك الذبول وقادتك الحيانة
الى الحرمان . لقد كان سيدك خالداً فأوردته الموت وما تناقص حبك له ، ولئن
أعيد اليك جنانك ، فلن تترددي في اضاعته مرة ثانية ، لأنك تعلمين ان من
يعبد الرجل هو انت ، وأنت تريدينه طريداً منفياً التكو في عزاءه في شقائه وموته

وأنتي رولاً بنظراته الكئيبة الحاسرة الى ماريا المنطرحة على سريرها المديد ،
فارتعش كأن قوة سرية راعته فهزته هزاً

ان ما سيؤديه لقاء تمتعه ليلة واحدة بما راي المبلغ جسيم وقد اضطر الى بذل
آخر دنائيره في سبيلها ، وكان اصدقاء رولاً عارفين بما اقدم عليه وقد اعلن لهم قبل
مبارحتهم ان احداً لن يراه بعد حين يشق الضحى ظلمات هذا الليل
لقد مرت به السنوات الثلاث وهي خير مراحل شبابه ، ثلاث سنوات مليئة بالملذات
والعريضة والسكر ، مرت كحلم وتلاشت تغاريدها كالحن طير عبر في الفضاء وتواري

انها لا آخر ليالي رولا هذه الليلة ، ليلة الموت التي تنطبق فيها شفتنا المحتضر على آخر توسلاته ، وتغفر فيها الروح كل شيء اذ ترى كل شيء يتقرب الى الحق حتى ليكاد يندغم فيه . ورولا قد جاء يقضي ليلته الاخيرة هذه بين احضان فتاة ساقطة ، على سرير طفلة تنتظره كفصن ذابل يترامى على نعشه المفتوح

يا للاختلال الابدني ... يا للجريمة تدفع بالطفولة الى مهاوي الفحشاء ...
أفأ كان خيراً لهذا الجسم الضعيف الصغير المستسلم للدعارة ولا من يدافع عنه
ان يتناوله منجل الحصاد فيتره بترأ وان تمد يد الى عنقه فتفكك عظامه فكراً ؟
أفأ كان خيراً لهذا الوجه ان يُسطل بالخير ويُشد فوقه قناع من حديد من
ان تحيي الفحشاء فتحوله الى غدير صاف تنعكس على سطحه الازهار ونجوم السماء
وفي قعره قطرات الغسلين ؟

يا له من جمال يغالب القبايح فيبقى جمالاً . . . ويا للكنز المهتوك . .
آية قبله غرام بهم على هذه الشفاه . وآية اثمار تنهياً للانفقاد على هذا الاملود
تهب عليه نسيمات السماء بل أي لهب يكمن في هذا المشعل الطاهر تراوده لوافج الفحشاء

أيها الفقراء ! . . أيها الفقراء ، انت هو القواد الذي ألقى على هذا السرير بهذه
الطفلة التي كانت اليونان القديمة ترفع امثالها الى هيكل (ديانا)

لقد أدت فرض صلاتها قبل ان رقدت امس ، ولمن وجهت هذه الصلاة ، يا لله !
أفأ كان الاولى بها ان تركع امامك أيها الفقراء لاجئة الى رحمتك متوسلة اليك .
أفأ انت من جاء ذات ليلة مع عاصفات الرياح مقتحماً الاعوال الساهد في المسكن
الحقير لتقول للام (إن ابنتك عذراء ورائعة الجمال ، والبكارة تباع والجمال يباع)
أفأ انت من غسل هذه الطفلة ، أيها الفقراء ، وأرسلها الى المهرجان ، كما تغسل
الاموات لتدرج في الاكفان ؟

أهي أم أنت ، أيها الفقراء ، من التف بالدثار الصغير وترا كض تحت لمعان البروق
قاصداً باب المهر والابتذال

من يدري ، لو أنك جدت عليها بالرغيف ، ان كانت ستلقى ما قدر لها على غير هذا الباب

ما كان هذا الجبين الناصع جبين فتاة لا حياة فيها . وما كان لهذا القلب الطاهر ان ترعاه جرائم الفساد وهو يستقبل شفق الحياة ويلهذه الطفلة تدفع الى مهب العواطف المضللة الجباشة وعاطفتها لما نزل راقدة لقبوها بماريون وهي ماريًا... والقوا بها الى هاوية الفحشاء ، وماغرّها لمعان الذهب ولا استهوتها حياة الاغنياء ، انها بائسة لا تطلب الا قوتاً وما تستسلم تحت هذه الستائر المروعة على هذا السرير ، سرير العار الا تعود الى أمها بما جنته من عذابها عليه ...

أين شفقتك ، يانساء المجتمع ، الرسائل احتقار كن في العيش المرح على كل من لا يتمتع بما تتمتع به من حبور ورخاء ؟
أين شفقتك ، ايها الامهات ، الموصدات الابواب على البنات في الحدور والساترات العشاق تحت أسرة الأزواج . ؟

إن عشقتك ذهبي الاحلام تنفخ الحياة فيه جامحات الخيال
ولكم فيكن من تباهي بمثل هذا العشق لانها ليست معروضة بين البائحات اعراضهن لمن يشاء ، ان مثل هذه المرأة لم تشهد شبح الجوع يتقدم ليرفع غطاء سريرها منشداً طروباً يلصق شفثيه على فها متقاضياً قبلة لقاء كسرة خبز ...

ايها الجليل ، اترك ذاهباً في ما تبك ذهاب الاحيال المنصرمة قبلك تندفع كالنهر الصاخب حاملاً جثثاً عائمة على مجراك مترامية الى بحر السكون ، في حين ان هذه الارض الهرمة تشهد هذه المآسي بين الولادة والموت فتستمر دائرة حول الشمس دون ان تتجاوز مدارها لتصعد نحو خالقها شاكبة اليه هذا الشقاء

لك اذاً ، أيتها المومس الجميلة ان تبكي وتمزقي ستر نهديك ، فالحمرة تشع متدفقة في الأكواب ونسمات الليل تهز مهدلات الستائر وقد لاح ارتعاشها في مزانتك انهضي انها ليلة رائقة بذلت لها ما تستحق من ثمن ، وما كان المسيح ليشر أثناء عشائه السري بقدر ما أشعر من جذل وحبور في عشائي الاخير
هيا تعالي ، وليحيا الحب الثامل العرييد ، دعيني أتناوق خرة الاندلس في

رضابك ، ولتجعلنا ملائكة اللذة على معاصمها الى حيث لا صواب ولا شعور
 هيا بنا ننشد الحب والجنون خير أغانينا ونشرب نخب الزمان الغابر ونخب الموت القريب
 تعالي نكرع الحمرة ونسلو كل شيء الا الحمرة والجمال ، فلا يتصاعد هتافنا
 الا لتبجيل الحرية والحياة

— ٤ —

اي فولتير ، اترقد الآن بسلام ، ولما تزل بسمتك القبيحة تلوح على موضع
 الثغر من جمجمتك البالية

قالوا ان عصرك لم يكن ناضجاً ليفهمك ، فهلا راقك عصرنا وقد ولد فيه رجالك
 لقد عملت راحتك العريضتان طويلاً في زعزعة ذلك الصرح الرفيع فتداعى
 ولسكنه هوى علينا بأنقاضه نحن ابناء هذه الايام .

لقد انتظرك الموت ثمانين حولاً وهو يتشوق اليك وأنت تراوده تغزلاً
 وتشبيهاً فما كان غرامكما الا شرارة من الجحيم .

أفلا تنسحب احياناً ، اي فولتير ، من فراش عروستك بنت العدم بين ديدان
 القبور لتذهب بجحيمك الشاحب تأمهاً بين أنقاض الاديرة واطلال القصور .

بماذا تراها تناحيك هذه الصروح المقفرة والهياكل المهتمة وانت نفخت عليها
 فأقوت وغدت خاوية لا حياة فيها .

بماذا تناحيك الصلبان ، وما يقول لك المخلص المشبوح عليها ، افتدسى جراحه
 عندما يتقدم شبحك اليه في الليل محاولاً اقتلاعه كما تُقتلع الزهرة الذابلة عن معارsherها ؟
 أفراض أنت ، يا فولتير ، عن عملك رضى المبدع حين فرغ من الخلق فرأى
 حسناً كل ما أبدع .

أما وأنت الراضي المبتهج بما أتيت ، فاني ادعوك الى وليمة في هذا المساء ،
 نهض من مرقدك فما عليك الا ان تضرب الباب بلا استئذان وتدخل الى حيث
 احد اتباعك يتناول عشاءه الأخير .

أما تسمع قبلات هذا الفتى وهذه الفتاة ، أفأيلو حان لك وقد تمتطى كل منهما بساعدي
 رفيقه جسداً واحداً بروحين وقد زفرت شفاههما المرتجفة بشهيق كأنه نحيب وإعوال .

كلاهما فتى وكلاهما رائح الجمال ، وهذه صرخة الغرام بينهما تستهوي المساء لتنزل
بستائرهما الذهبية على عناقهما المديد .

فتش على الحب بين هذين المتعاقبين ، لإنهما ما عرفاه من قبل وما يعرفانه الآن ..

وهذه الكلمات الرائمة الساحرة أين تلقناها ، وليس إلا لنشوة الحب ان
تقفوه بها بين الشهبى والزفير ؟

يا للمرأة من أداة جبور ومن أداة تعذيب ، يا لها من هيكل سرى تعالى فوقه
همسات المصلين وصخب اللاعنين ...

أين ترى تجول من الاجواء او من الاصدااء هذه الكلمات الابدية التي لم
تزل تعربد منذ خمسة آلاف سنة على شفاة العاشقين ؟

يا للمطاوله الكافرة : ليس من حب هنا ، وهنا ملا كان وقلبان ما أحقهما
بالاعتلاء في صفائهما الى أيهما الأعلى مع طفئات الالام

ليس من حب هنا ، وهنا زفير في الليل ، بل هنا الطبيعة بأسرها ترتعش ثائلة
من خمرة الغرام

هنا عبقات بخور وأقداح مبعثرة ، هنا تصدو قُبلاً لا عداد لها ، ولعل
هنا ، ويا للشقاء ، يتكوّن مخلوق تعس سيعلم النور

اذا كان لا حب هنا ، فما هو هذا الشبح الرائع كأنه الحب بعينه ؟ ..

يا مساكن العزلة تحت قباب الاديوار ، أيها المدافن المظلمة ، ان الحب كامن فيك .
وما من شفة ألفت قبلة ملتهبة على أعمدتك وأحجارك دون ان ترتعش بنشوة الحب العبق
تعالى أيها الصروح ، صروح المنعزلين ، تقدمي واهتكي أستارك أمام هذا
الفتى وهذه الفتاة وهما يلتهمان بشوق النشوة على سرير لا يصلح إلا للرقاد وللموت
اضربي بقلبيهما عرض جدرانك ، أيها الصروح ، واغربي فيهما أشواك ما فيك من
مسوح دامية وارسلي على جبينهما رشاش مياهاك المقدسة ، قولي لهما كم يجب على أمثالهما

من سجدة على اللحد ليدركوا حقيقة الحب كما يدرك بين جدرانك أيتها الاديار . . .

انكم لتكرعون ثمالة كدوسكم فترسلونها الى اعماق قلوبكم ، أيها المترهبون ،
انكم ترون وجه الخالص عند ما يراد النعاس أجفانكم . وعند ما ينفلق الصباح
تلهس عيونكم هذا الوجه ايضاً على زجاج النوافذ المذهبة بالنور ، وأنتم تصغون
الى ما تهتفون مع الارغن من أناشيد الصلاة
هذا هو حبكم تتفانون في سبيله فتجدون السعادة فيه

أي فولتير ، أنظر الى هذا الشاب المتدفق قوة وحياة يترامى بأحر قبلاته على
هذا الصدر البديع ، انظر اليه انه سيسجى غداً في لحده الضيق ، فهل لك ان تغبطه
لقد قرأ هذا الشاب ما كتبت للمجتمع فلن يجد سلواناً ولا أملاً بعد ان أصبح
علمه حجباً ، فلك غداً ان تضمه الى رفاتك دون ان تهتك حرمة قبرك
أفترالك تمتد ، يا فولتير ، لو استبقيت في نفس هذا الرجل شيئاً من الايمان
انه كان سيلتقي باحتضاره على فراش الفحشاء ؟

ليتك أبقيت له الاعتقاد بأن الموت اجتيازٌ معبر الى قرار ، لكان اذن
لا يبالي ولا يخاف اقتحامه فينظر الى ملاك الموت نظره الى عروسة تتعالى في
السحاب حاملة مفتاح قلبه الذهبي لتطرحه عند عرش الله الحي

هذه صنعتك ، يا فولتير ، هذا هو الانسان كما أردت ان يكون ، فان التاريخ
لم يشهد الا منذ أمس من يموت كما يموت رولاً . . .

عند ما وقف بروتوس على أنقاض روما صارخاً (ما أنت الا كلمة أيتها
الفضيلة) لم يكن يرسل لعنة او يتفوه بتجديف

كان بروتوس فقد كل شيء ، ولم يبق له لا وطن ولا مجد ولا أمل ولا حرية ،
بعد ان توارت عنه (بورنيا) وفارقه (كاسيوس) ، بعد ان أراق دمه وتفرق
جنده من حوله ، فامتنع عليه ان يؤمن بشيء على وجه الغبراء . ولكنه عند ما
رأى نفسه وحيداً ولا مقعد له الا قطعة من الصخر ، رفع أبصاره الى السماء فما

تفقد شيئاً في مداها الفسيح ، بل تنفس قلبه منها نسبات الامل فأدرك ان آسفته
لم تزل وان سيفه لم يزل في قبضة يده
اما نحن ، قلة الآلهة فأى شيء بقي لنا ؟

لمن تعملون ، ايها الهدامون الاغبياء ؟ ..
اي شيء تريدون ان تزرعوا على قبر المسيح اذا انتم اسقطتموه عن هياكله
وقد قم بالحمامة البيضاء الى المهاوي المظلمة .
لقد طمعتكم الى خلق الانسان من جيلتكم وتكوينه على مثالكم وعلى هواكم ،
لقد اردتم اقامة عالم جديد ، فيها هو ذا العالم الذي اردتم
ان تملككم رائح وانسانكم متفوق كامل ، لقد هدمتم الجبال وافسحتم مدى
السهول واستنبتتم شجرة جديدة للحياة .
لقد كسحتم كل حائل فهدتم طرقكم على الحديد .
كل شيء عظيم وكل شيء رائع ، ولكن هذه الاجواء تكتم الانفاس وتشد
على الصدور وقد ذهبت اقوالكم الرنانة على الرياح الموبوءة تزعزع كل معبود ،
فروعت الاطيوار وشردتها ..
لقد قضي على الرياء ، فما يبق بالكهنة احد ، ولكن الفضيلة نهار وقد انتشر
الجحود على انقاضها

اين النبلاء يباهون بطارف امجادهم ، بعد ان اصبحوا يعرضونها للابتذال في الموخير ؟
لقد اصبح التفكير حرّاً وأطلق البيان على مسارحه ، غير ان الشعب أصبح
يتوق الى الميادين تتصارع عليها الثيران
لا الفقير اذا عزّت نفسه عليه ولا الغني اذا اجتاحتته المحن يلجأ الى الرهينة
في هذه الايام ، فهما يعتبران هذا الانعزال جنوناً ويفضل كل منهما ان يشعل
فخاً في غرفته ويوصد نوافذها ليخشق بسمومه

— ٥ —

ولاحت لعين رولا أوائل اشعة الشمس على السطوح فذهب الى الشرفة يتطلع منها
الى الطريق وكانت العربات الضخمة قد بدأت تهتز بانقائها على المنعطفات ، فاحنى

رولاً جبينه الشاحب وقد حكمة الدهول امام السماء يشق الضحى فيها سائر الافق الحمراء .
وكانت على الساحة جوقة من رطاع المغنين تنشد أغنية قديمة .

يا للاغنية يسمعها الانسان في ساعات محنته بعد ان تغنى بها في مرح طفولته .
انها لتجوك كل ما انطبع بعدها في التذكار فتحفر بين ماضيه وحاضره هوة سحيقة
واذ يشعر ببعدها عنه او ببعده عنها ، اذ يشعر بتقادماها او بتقادمه ، يحني رأسه
المتعبة على نبراتها حزينا واجماً .

ان هذه النغبات القديمة لا تنفاس ما في المرء من اطلال ونحيب ما فيه من ملائك
التذكار ترف على احلام الطفولة وحبا البرى .

انها لتهب نبراتها على أزاهر الزمان المنصرم فتنورها وتعالى باكية فوق مضجع
احتضارنا بعد ان غرّدت فوق مهودها .

وادار رولاً رأسه فرأى ماري مستسلمة للكرى وقد ارهقها السهاد .
هكذا كانت الطفلة تفزع الى عالم الرؤى والرجل يفزع الى عالم الفناء .
عند ما تمزق الغمام شمس الخريف لتقع على ركام الثلوج ، تبدو هذه الركام ملتهبة
كانها صدر الصباح تعلوه حمرة الخجل من قبلات النور المحرقة .
هكذا يتورد إهاب العذراء من دم قلبها عند ما تمسسها الشهوة باطراف جناحها .
أي كوكب النهار ! ما الارض الا معشوقتك الهائمة وما تحتفظ أنت بشبابك
الا لتسكب عليها روعة الجمال الى الابد .

اي ، أطيّار السنونو المتطيرة في الافق متعالية متهاوية ، خبريني لماذا قضى
عليّ أن أموت . . .

أيّه ، ما أقبح الاتجار . . . ويا ليت لي جناحين لامدها في هذه الاجواء
الصافية فأذهب طائراً طليقاً

علّمني ، يا أرض ويا سماء ، ما هو معنى الضحى ، وما هي قيمة يوم جديد في
هذا العالم الهرم القديم .

قولي لي أيّتها المروج الخضر وأيتها البحار السحيقة لي شيئاً يتجلى فيك اذا

كنت انت محرومة من الشعور ليهتز القلب اهتزازاً امامك وتجنو الركاب عندما
توهج آفاقك بأنوار الصباح . . .

من أوثق رباط الخطوبة بينك وبين كوكب النهار أيتها الارض .
ماذا تقول الاطيار في تغاريدها وعلى من تبكي أنداء السماء ؟
لماذا تحدثيني عن حبك الآن ، وماذا تريد الكائنات مني وانا اطلب الفناء .

آية قوة كانت تدسّ في خيال رولا كلمة الحب فتجول فيه بكل روعتها . بل
اي هاتف كان يلقي بهذه الكلمة في أذنيه والموت منتصب أمامه .

اي معنى لكلمة الحب تقال لفاسق عاش يوماً فيوماً مستقلاً من ختمارة الى
ختمارة محقراً للحياة مباهياً بتحقيق كل عاطفة تمت الى الحب بسبب .

أتقال له هذه الكلمة وما وقعها في مسمعه الا وقع إهانة توجه الى قلبه المتحجر حيث
لم تنبت زهرة واحدة وهو يعرضه قاحلاً على الناس كما يعرض الجندي جرحاً قديماً .
أذكر الحب أمامه وهو من لا خليل ولا سكن له وهو من عاش في ملاعب
الرياح متحدياً تصاريق أقداره مسلماً شبيبه لكل زعرع ينفضها نفصاً كأنها اوراق
ذابلة على شجرة جفّ جذعها .

من تُرى تذهب به الفتحة الى الوقوف امام هذا المحتضر ليذكره بالحب بعد
ان كرع ثمالة كأسه والتقى الى ليل الابد بأخر شرارة من حياته وها هو ذا في ساعته
الاخيرة يفتش على سرير ما خور ينطرح عليه ليلفظ آخر انفاسه ويدفع بأخر لعناته .

عند ما تبارح أنثى العقاب وكنها يتقدم فرخها الى حافتها متحفزاً فكأنه
يحس باقنذاره على نشر قوادمه والانطلاق في الفضاء

من ترى يهيب به الى الطيران ويشجعه على اقتحامه وهو لم يفرج غلباً ولم
ينشر جناحاً من قبل . انه يعلم بنسبه وأن له أن يقتحم الرياح عندما تدغغه لفحاتها
على ان تحت الشمس منابت للارواح السافلة كمنابت الكلاب ونبات آوى
والافاعي ، تستنبت هذه الارواح كما تستنبت هذه الحيوانات فتتوت حيث ولدتها
امهاتها وكلها تحمل في احشائها جرائم سلاطاتها الدينئة كان الطبيعة تستبق على
اجناسها سماً تسمد به التراب حول القبور ، ولكن لهذه الطبيعة قوتها السرية

تعمل بها على خلق طبقة من الاحياء نبيلة تمر على الحياة فلا تعلق بها ارجاسها
ومن حبه الفطرة هذا الصفاء ، فانه ليمرغ في الحماة وتدور به الشرور
خائفة سريره طوال ثلاث سنوات دون ان تقضي عليها اذ يجيء يوم ينتبه فيه ضميره
فينفض قلبه انتفاض عبدان (سان دومينيك) الذين مرّت عليهم الاحقاب حتى تمكنوا
من اقتلاع سلاسلهم من ارض العبودية حين عصفت بهم زعازع التمرد ونسبات الحرية
هكذا تنتبه أفكارك الآن ، يا رولاً ، محاولة تحطيم قيودها فهي تصبح بك
وقد لاحت في دياجر الفقر مشاعل الحياة ذاهبة الى ما وراء الحياة
أي رولاً ان هذا العدم الذي تمسك به يدك ان هو الا وهمٌ يتبدّد ، انما
العدم خيالٌ قائمٌ لا تنظفي أمامه أنوار الارض حتى تتوهج لمعاتها في الابدية
انك ما أحيت من قبل ، فانك لن تحب الى الابد

وعلا وجه رولاً الشحوب فأغلق النافذة وهو يرتعش فاذا بيده تصدم زهرة
ناضرة فتقصفها واذا بالزهرة تهتف في اعماق روحه :
أحب وأموت . . : لقد ألهني النسيم تقبيلاً فنورٌ تويحي وتساقطت أوراقى ،
لقد لبست له الزهو والبهاء فجاءت القبلة تهني الحياة ، وما بهم الزهرة انسحاق
قلبها بعد ان تفتحت اكمامها

احب ... هذه هي الكلمة التي تلفظها الطبيعة بأسرها لتحملها اجنحة الرياح
والاطيار ، هذه هي الزفرة المفجعة ترفرها الارض عند ما يحين لها ان تدفع
الى أغوار الظلام
وهل تهين السكواكب بغير هذه الكلمة الحزينة الرائعة وهي ذاهبة في مدار
اجوائها ؟ ان أضعف النجوم اندفعت منذ ابدعها الخالق متجهة الى حبيها كوكب
النهار ، واندفع وراءها ما يشاقها من الاجرام فسارت العوالم منذ الازل متجاذبة
بالحب في أفلاكها

ووجم رولاً أمام الفتاة الراقدة متفرساً في ملاحها ، تأخذه منها روعة الجمال

وتعيد إليه رؤى كأنه شاهدها فيما مضى من الزمان ، فارتعش متسائلاً : أليست هذه المومس اخته في هذه الغرفة تلحد فيها كما سيُلحد هو ، أفما يحسن الى جنب ما يمانية من افحام الموت بما تعانيه هي من اوصاب الحياة

ان الصبر يتمشى على مهل في قلب هذه المخلوقة الشقية الواهية ، أفليست آلامها اختاً لآلامي . أفما هي التمثال الذي قد رلي ان اراه ممدداً على لحدي ، وأنا اتحفز للنزول الى اعماقه ؟

لا تنبهي من رقارك ايها الفتاة ، إن انتباهتك من حياة الارض ولكن هجوعك طاهر فهو لله . دعيني أقبل النعاس على احفانك فأودعه وأوليه حيي ، فهو لم يبع وشاح طهره ولم ادفع له ثمناً . إن وسنك لم يزل طفلاً ذاهباً في احلام طفولته ولم يعلق به منك إلا روعة جالك

يا للجسم الملائكي يتلوّى وراء هذه الستائر المتهاوجة
أفما يكتفي الحب بما ترسمه الخطوط في انتساقها المادي وبما يهب عليه من نسمات البهاء
ليغرّد بأشجى الحانه ، وهل الحب إلا الضحية المستمرة للخداع ، إلا العليل يرتعش فرقاً من زوال دائه .
إذا كان العاشق لا يظفر من الحبيب إلا بما يحتاج اليه من التوهم ليتمتع بعذابه ، فعلى مَ أذهب مفقشاً على الوهم في الآفاق .

مالي ولما ري وحياتها ، أفما هي امامي الآن مجسم الفتوة والحياة ؟
لك ان تأتي الآن ، ايها الحب ، اذا كنت انت عطر الحياة وليفح عبيرك من هذه الزهرة البائسة وقد تفتقت اكمامها عن مثل هذه النضارة وهذا الجمال . . .

وتقدم رولاً الى السرير وتمدّ دجنب ماري فاشتبك الناظران وتمازج النَفَسَان .
وقالت : — كنت أشهد رؤيا غريبة ، رأيتني على هذا السرير افيق من رقادي ،
فاذا بهذه الغرفة منبسطة امامي كأنها مقبرة واسعة الارزاء تبعثت العظام البالية بين اكائها الخضراء .

ورأيت ثلاثة رجال يحملون نعشاً تقدموا به وازلوه عن اكتافهم ليؤدوا فريضة الصلاة ، فاذا بالنعش ينقلب عنه الغطاء واذا انت ممددة فيه وعلى وجهك رشاش من الدماء السوداء .

رأيتك تهض من النمش وتقدم اليّ آخذاً يدي قائلاً لي — ماذا تفعلين هنا ، لماذا تحتلين مكاني .

وانتهت اليّ نفسي فاذا بي ممددة على قبر .

فقال رولا — إن في حلمك حقيقة وإن خلا من الجمل ... ولن تحتاجي الى إغراض جفنيك غداً لتري مثل الحلم ، فاني منتحرة اليوم

ونظرت ماري الى مرآتها وهي تبسم ، فلاح لها وجه رولا في المرآة وقد علته صفرة الموت فارتعشت وامتقع لونها فصاحت به : — مالك ، ماذا جرى لك ؟ فقال : — أظن بلغك اني أفلست منذ امس ، وهل أتيت إلا لأحيي ليلة الوداع بقربك . ما من احد يجهل هذا ، وقد قضيت بالانتحار على نفسي — أقامرت بمالك

— لا لم اقامر ولكنني بددت مالي

فخدجت الارض بأنظارها مستغربة وقالت : — أفليس لك أم ، أفليس لك أقارب وأصدقاء ، أفليس لك أحد في الحياة ؟ أنتنحر ، ولماذا تننحر ... والقت عليه نظرة تشع أسى وحناناً وترددت على شفيتها سؤالات لم تجسر على التفوه بها . فألقت رأسها الى رأسه واختلطت عليه قبلة واجفة ، وهي تقول همساً : — ليس لي مال ، فان أمي تأخذ ما تصل اليه يدي ، ولكنني املك عقدي الذهبي أظن يخبئ لي بيعه فتأخذ ثمنه وتقامر به مرواداً حظك ؟

ابتسم رولا على مهل وأخذ حقناً أسود صغيراً أفرغه في فيه ، ثم انحنى يقبل عنقه على نحرها ، وإذ رفعت رأسها لم تجد على صدرها غير جثته لا حراك فيها وكان رولا قد لفظ روحه بالقبلة الطاهرة وكان الحب قد ساد لحظةً عليها وعليه ...

تمت

سَيَرُ الزَّمَانِ

أوروبا المتوسطة

والشرقية

مركز الثقل في السياسة الأوروبية الآن

١ — مرحلة النقوى الفرنسى

٢ — مرحلة السلمنة المشتركة

٣ — انحلال السلمنة المشتركة

٤ — خاتمة



اوربا المتوسطة الشرقية



والى الشمال من لوانيا لاتفيا فاستونيا فنلندا وهي لم تظهر على هذه الخارطة

أوروبا المتوسطة

والشرقية

مركز الثقل في السياسة الأوروبية الآن

أما وقد انتهت المفاوضات البريطانية الى اتفاق يرجي منه خيرٌ عظيمٌ في اقرار الحالة السياسية مضطربة في حوض البحر المتوسط فقد انتقل مركز الثقل في السياسة الأوروبية الى شرق أوروبا ما يليها من شرقها الشمالي وشرقها الجنوبي

هذه المنطقة وصفها ماساريك — الرئيس الاول للجمهورية التشيكوسلوفاكية — في مقال نشره في مجلة أوروبا الجديدة سنة ١٩١٧ بقوله أنها « منطقة الشعوب الصغيرة » وهي تشمل الآن بعدما ضُمَّت النمسا الى ألمانيا ، ثلاث عشرة دولة هي من الشمال الى الجنوب فنلندا واستونيا ولاتفيا ولتوانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا وبوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا واليونان لبانيا وتركيا . واذا نحن تذكرنا ان بدأت الحرب الكبرى في سنة ١٩١٤ وكيف أضرمت بها الاولى تبين لنا ما لمنطقة الشعوب الصغيرة من الاثر في سلام أوروبا وحربها . وما صحّ

لامس لا يزال صحيحاً اليوم . فما الحالة هناك ؟

ان تقسيم هذا الجانب من أوروبا الى دولات متعدّدة لا يعود الى بواعث عنصرية فقط . ان الامبراطوريات الكبيرة في العصور الماضية لم يتم لها توحيد هذه الشعوب وادماجها بعضها بعض على نحو ما تمّ لفرنسا وانكلترا وأسبانيا في الغرب . ذلك ان الامبراطورية الرومانية قدسّة ، وامبراطوريتا آل هوهنزولرن وآل هابسبرج والسلطنة العثمانية ، كانت تعتمد على إثارة طوائف العنصرية بعضها على بعض في سبيل حكمها ونزعت منها في الوقت نفسه المنشآت السياسية التي كانت قد أقامتها لنفسها بغير ان تسلم لها بما ينسبها نزعتها الخاصة ويمكنها من ألف والاندماج . ولعلّ خير الامثلة على ذلك بوهيميا وبولندة . فالأولى نزع منها استقلالها القرن السابع عشر والثانية في القرن الثامن عشر . وحاول الجرمان من ناحية والروس من ناحية أخرى استعمار هاتين المنطقتين علاوة على الاستبداد بهما . فازدادت النزعة القومية عنصرية فيهما شدّة وتأصلاً . فلما نشبت الحرب الكبرى هبّا الى استعادة ما فقدتا

فهل تستطيع ألمانيا ان تحقق في القرن العشرين ما أخفقت فيه في القرون الماضية ؟ هذه مسألة محور مشكلة من اكبر المشكلات في السياسة الأوروبية في هذا العصر . فاذا استطاعت نيا ان تخضع الدول الصغيرة في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية لنظامها السياسي والاقتصادي

استطاعت ان تصبح الدولة المهيمنة على اوربا . وكتاب « كفاحي » يبين ان زعيم اليمين الثالث ينوي تحقيق هذا الحلم . فاذا لم يصدَّهُ صادٌّ ، واذا استأنفت المانيا « الاندفاع نحو الشرق » Drang nach Osten بغير نظر الى العواقب ، فاني اخشى ان تكون اوربا معرضة ثانية لاهوال الحرب . لانه على الرغم من ضعف الوزارات الفرنسية والبريطانية وتقلب الرأي العام الذي تستند اليه ، يخامرني الريب في ان تسلم حكومتا فرنسا وبريطانيا في آخر الامر باطلاق يد المانيا في اوربا الوسطى والشرقية . لانهما ان فعلتا كان ذلك تسليماً منها بسيطرة المانيا على مصادر من الثروة والسطوة يجعلها ضحاياها الاولى . وانا لا اقول ان بعد النظر وادراك حقائق الحال ستحملهما على مقاومة هذا « الاندفاع » ولكنني اقول انهما ان لم تفعلتا فقد قضى عليهما ان تكون دولتين من الطبقة الثانية

وقبل ان تغامر المانيا لكسب ما تريده من طريق الحرب تراها تبذل السعي لتهديم النظام السياسي الذي انشأ بعد الحرب الكبرى للحفاظ على ما قررتة معاهدات الصلح . وكل حدث من احداث السياسة الدولية القريية كان مظهراً من مظاهر هذا السعي فلننظر الآن في تحول الاتجاهات السياسية في اوربا المتوسطة والشرقية بعد الحرب لعلنا نستطيع ان نتبين ما يدلنا على مستقبلها وهل هناك في « منطقة الشعوب الصغيرة » ما يشير الى انه في وسع بعضها ان يحتفظ باستقلاله او هو مقضي عليه بان يصبح تابعاً لشمس المانيا وما لها من قوة عسكرية واقتصادية . وتاريخ هذه المنطقة منذ سنة ١٩٢٠ ينقسم الى ثلاث مراحل واضحة . فتمة اولاً مرحلة التفوق الفرنسي في النفوذ السياسي والعسكري . وتليها مرحلة السعي لتنظيم السلامة الاجتماعية بواسطة المعاهدة والمواثيق وقد بلغت قمتها في الميثاق الفرنسي السوفيتي في مايو ١٩٣٠ ثم هناك المرحلة الثالثة التي تبرز فيها زعة بعض الدول الصغيرة الى عقد معاهدات مقابلة للمعاهدات القديمة ، وقد كان بدؤها يوم دخلت جيوش المانيا منطقة الرين المجردة من السلاح في ٧ مارس سنة ١٩٣٦

مرحلة التفوق الفرنسي

دامت المرحلة الاولى — مرحلة التفوق الفرنسي — من حين عقدت معاهدات الصلح ووقعت الى شهر اكتوبر من سنة ١٩٣٣ اي الى ان خرجت المانيا من مؤتمر نزع السلاح وعصبة الامم وهيئة العمل الدولية . في خلال هذه السنوات كان الجيش الفرنسي يمنع جيوش اوربا . وكان احتلال فرنسا لمنطقة الرين (الى سنة ١٩٣٠) وتجريد هذه المنطقة من الحصون بمقتضى معاهدة فرساي ، مما يمكنها من اختراق غرب المانيا بغير ان تقف عقبة كبيرة في وجهها فتستطيع

مناجزة الجيش الألماني في الغرب، بحيث تصبح ألمانيا عاجزة عن أي عمل حربي ذي شأن في الشرق. في هذه الفترة كان الخطر الوحيد الذي تستهدف له دول أوروبا الوسطى والشرقية، ناشئاً من موقف هنغاريا وروسيا السوفيتية. أما الأولى فلم يكن في وسعها الاعتماد على ألمانيا حينئذٍ، في طلبها للثأر، فاتجهت إلى إيطاليا. وقد أعلنت إيطاليا رأيها في وجوب تنقيح المعاهدات في خطبة لموسوليني القاها في يونيو سنة ١٩٢٨ ولكنها مع ذلك ظلت تتعاون مع فرنسا وانكلترا وهي تبحث عن خير الوسائل لتحقيق أغراضها. وأما روسيا فكانت لا تزال في غمار الثورة فلم يكن في وسعها الاشتراك في حرب خارجية ولا سيما بعد هزيمتها في الحرب الروسية البولندية في سنة ١٩٢٠

ففي هذه الحالة تراءى لفرنسا أن خير وسائل السلامة أبسطها. فعقدت في فبراير من سنة ١٩٢١ اتفاقاً سياسياً وآخر حريئاً مع بولندا. وفي يناير من سنة ١٩٢٤ عقدت اتفاقاً سياسياً مع تشيكوسلوفاكيا وكان الاتفاق التشيكوسلوفاكي بمنزلة مخالفة إلا أنه لم ينص على تعاون هيتلي أركان الحرب في الجيشين. ومع ذلك كان للبعثة الحربية الفرنسية في براج مقام اعظم من مقامها في وارسو حيث كان المارشال بلسودسكي يحد من نفوذها غير أنه على مقامه. ولذلك يمكن أن يقال أن الاتفاق العسكري البولندي الفرنسي ظل حبراً على ورق على الغالب ولم يوضع موضع التنفيذ الفعّال. فلما ذهب المارشال فوش في سنة ١٩٢٣ إلى وارسو ليحدث المارشال بلسودسكي في ما يكون موقف بولندا إذا اتخذت ألمانيا خطة الهجوم في شرق أوروبا، لم يفز القائد الفرنسي من القائد البولندي إلا بقوله «أزحف على موسكو». أما ألمانيا فأنى اتخذ قراراً عند ما أراني في الميدان»

كانت الحكومة الفرنسية قد فاوضت حكومتي بولندا وتشيكوسلوفاكيا لأن حدودها محاذية لحدود ألمانيا. وبهذا يفسر تمثيلها في مؤتمر لوكارنو الذي عقد في شهر أكتوبر من سنة ١٩٣٥ ولا يخفى على متتبعي السياسة الدولية أن اتفاقات لوكارنو كانت قسمين أحدهما اتفاق خاص بمنطقة الرين وقد ضمتها بريطانيا وإيطاليا يؤيده اتفاقان أحدهما بين فرنسا وألمانيا والاخر بين ألمانيا وبلجيكا. أما القسم الثاني فكان مشتملاً على معاهدي تحكيم بين ألمانيا من جهة وكل من بولندا وتشيكوسلوفاكيا من جهة أخرى. ولكن بريطانيا وإيطاليا لم يجنبا ضمان هاتين المعاهدين فتعين على فرنسا أن تنهض بهذه التبعة وحدها فعززت اتفاقها مع بولندا (١٩٢١) وتشيكوسلوفاكيا (١٩٢٤) بتصريحين وعدت بمقتضاها أن تؤيد حليفها الشرقيتين بالقوة العسكرية في الأحوال التي تشملها الفقرة السابعة من المادة ١٥ وكذلك المادة ١٦ من ميثاق عصبة الأمم. وهذه النصوص في الميثاق تشمل جميع حالات الحرب — أي حالات النزاع المعروضة على مجلس عصبة الأمم إذا

عجز المجلس عن حلها بالاجماع وكذلك حالات الاعتداء الصريح الذي لم تتخذ لمنع وسائل التسوية السلمية

اما وقد قطعت فرنسا على نفسها عهداً من شأنها ان تلزم المانيا باحترام حكم القانون الدولي فلم يبق على بولنده وسائر الدول في حوض الدانوب الا ان تفعل ما يدل على تماسكها في وجه روسيا السوفيتية وهنغاريا . ولذلك عقدت بولنده ورومانيا اولاً اتفاقاً في سنة ١٩٢١ ثم في مارس سنة ١٩٢٦ قطعاً فيه عهداً بالتعاون على صد أي اعتداء موجه الى اراضي احدهما او كليهما السياسي . ثم حددنا الاحوال التي ينفذ فيها هذا العهد وفقاً لفعلة فرنسا في السنة السابقة بمقتضى المادتين ١٥ و ١٦ من ميثاق عصبة الامم . و اضافنا الى ذلك اتفاقاً يشمل التعاون بين هيتي اركان الحرب في جيشهما و وعدت كل منهما بان لاتعقد محالفة مع دولة ثالثة قبل مشاورة صاحبتها وعقدت رومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا ثلاث معاهدات حددت فيها موقفها من هنغاريا وهذه المعاهدات هي أساس « الاتفاق الصغير » . والقاعدة في هذه المعاهدات الثلاث التعاون المتبادل في وجه اعتداء غير مستفز من هنغاريا على احدها . ثم الامتناع عن عقد معاهدة مع دولة رابعة الا بعد التشاور . والغرض العام الذي اتجهت اليه هذه المعاهدات كان على ما جاء في التوطئة ، هو المحافظة على السلام الذي اشترى بتضحيات عظيمة وانص عليه ميثاق عصبة الامم وكذلك صون الحالة الناشئة عن عقد معاهدة تريانون سنة ١٩٢٠

وهذا كله يعني ان رومانيا وبولنده اتفقتا على صد روسيا وان رومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا اتفقت على صد هنغاريا . وقد سبق ان قلنا ان فرنسا عقدت معاهدتين مع بولنده واحدة ومع تشيكوسلوفاكيا واحدة . اما صلتها برومانيا ويوجوسلافيا فلم تتعد معاهدتي التشاور والتعاون المقودتين في ١٠ نوفمبر ١٩٢٦ (رومانيا) و ١١ نوفمبر ١٩٢٧ (يوجوسلافيا)

الا انك عند ما تدقق النظر في هذا النظام المعقد ترى فيه كثيراً من مواطن الضعف . فالاتفاق الصغير قاعدته صد المجر وحدها فليس فيه ما يحتم اشترك دوله الثلاث في عمل ضد المانيا او ايطاليا او بلغاريا . وبولنده على الرغم من تحالفها مع رومانيا ، كانت شديدة العطف على هنغاريا فلم تبرم معاهدة تريانون ، وعلى شيء من النفور من تشيكوسلوفاكيا . ثم ان تشيكوسلوفاكيا وطرفها الشرقي داخل كلاسفين بين رومانيا وبولنده ، لم تكن مرتبطة ارتباطهما بوجوب التصدي لروسيا . أما مشكلة استقلال النمسا وضمانه فلم تعالج . وكانت جميع هذه الدول تحسب فرنسا صديقة لها وحليفة وتتمتع على مساعدتها في ساعة الضيق ، مع ان أساليب المساعدة وطرائق العون لم تبحث بحثاً مفصلاً . وكانت الصداقة وثيقة بين بنش وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا وماركينوفتش وتيتولسكو وزيري خارجية يوجوسلافيا ورومانيا ، فلم يجروا أحد على الظن حينئذ ان هذه الصلات الوثيقة يمكن ان يعروها الانحلال

٢ — مرحلة السلم المشتركة

في سنة ١٩٣٣ أخذت عوامل الضعف تتطرق الى هذا النظام الاوربي القائم على تفوق النفوذ الفرنسي . كانت جيوش فرنسا في منطقة الرين قد سحبت منها في يونيو ١٩٣٠ وحذفت مسألة التعويضات الالمانية في مؤتمر لوزان (١٩٣٢) من سفر النزاع السياسي . وألغيت المراقبة الدولية على أعمال المانيا الحربية . وفي ٣٠ يناير من سنة ١٩٣٠ تقلد اهر هتلر منصب المستشار في الحكومة الالمانية وأخذت الثورة الوطنية الاشتراكية طريقها المرسوم . وفي شهر أكتوبر من السنة نفسها فصم اهر هتلر كل صلة له بجنيف . فشعرت الدول المهددة في سلامتها انها لا يسعها الاكتفاء بضمانات السلام العامة المطوية في ميثاق العصبة . ولا سيما لان الولايات المتحدة الاميركية ظلت متمسكة بمبدأ حرية البحار مما حداً من رغبة بريطانيا في تطبيق مبدأ العقوبات (المادة ١٦ من ميثاق العصبة) تطبيقاً فعالاً خشية ان تصطدم باميركا . وكانت قوة الجيش الفرنسي قد أصيبت بما أوهنها بقتص مدة الخدمة العسكرية الى سنة واحدة . فلما تولى الميسو لويس بارتو وزارة الخارجية الفرنسية ودرس هذه الحالة الجديدة وأدرك مغزاها بعث بمذكرته المشهورة الى انكلترا (١٧ ابريل ١٩٣٤) مبيناً فيها ان فرنسا تحفظ بحريتها في اعادة تنظيم جيشها وتعزيزه هنا بدأت المساعي لتحقيق ما يعرف « بالسلمة المشتركة » بتحديد المقصود من تطبيق المادة ١٦ من ميثاق العصبة اذا اقتضت الحال تطبيقها . واسم الميسو بارتو مرتبط بهذه المساعي مع ان جانباً منها كان قد بذل في البلقان قبل دخوله السكاي دورساي

كان من شأن انبعاث القوة العسكرية الالمانية في هذه الفترة ان وجهت انظار وزراء الخارجية الفرنسية المتعاقبين — هريو وبونكور وبارتو — وكذلك قواد الجيش — فيجان وجاملان — الى فكرة واحدة ، وهي استغلال القلق البادي في الدوائر الروسية من جراء السياسة الالمانية البادية في مذكرة هوجنبرج المشهورة في صدد استعمار المانيا لبعض الاراضي الروسية . وان يكون غرض هذا الاستغلال هدم معاهدة رابالو الروسية الالمانية التي عقدت في سنة ١٩٢٢ ثم أيدت بمعاهدة ١٩٢٦ وجددت في مايو ١٩٣٣ في عهد الحكومة الوطنية الاشتراكية الجديدة في المانيا . وأدرك بارتو وقواد الجيش الفرنسي الفائدة الكبيرة التي يجني من هدم الصداقة الالمانية الروسية واحلال الصداقة الفرنسية الروسية محلها . وفي المقام الاول ينتفي الخوف الذي يسود حلفاء فرنسا في شرق أوروبا من طغيان روسيا عليها . وفي المقام الثاني تمتنع روسيا عن ان تكون مصدراً ثميناً لكثير من المواد الخام التي يحتاج اليها الجيش الالمني . ويضاف الى هذا وذاك رغبة الحكومة الفرنسية في تأييد موسكو لنظرية « السلمة المشتركة » التي اقترحها الوفد الفرنسي في مؤتمر نزع السلاح ، والاعتماد على قوة روسيا الجوية في حالة قيام ازمة بين فرنسا والمانيا

وكذلك حفلت سنة ١٩٣٣ والسنتان اللتان تلتاها بمساعٍ سياسية متعددة لعقد موافق لضمان السلام ضمناً متبادلاً . ففي سبتمبر من سنة ١٩٣٤ ضُمَّت روسيا الى عصبة الامم . ويعود ضمها الى العصبة الى رأي وسعي كلٍّ من بارتو الفرنسي وبنش التشيكوسلافاكي وبيكتش اليوجوسلافي ورشدي أراس التركي وبوليتيس اليوناني وغيرهم ممن كانوا يرغبون في أن يروا دول أوروبا المتوسطة والشرقية مرتبطة في اتفاق دفاعي يكفي لصد أي سعي من شأنه ان يهدم النظام القائم وكان الرأي ان تكون فرنسا وروسيا قطبي هذه السكتلة احداها في الغرب والثانية في الشرق . وكان الرأي كذلك ان تقسم او تجمع موافق «السلامة المشتركة» في بضعة موافق اقليمية ، فيعقد ميثاق خاص بشرق اوربا الشمالي تنظم فيه المانيا وروسيا وبولندة وتشيكوسلوفاكيا ودول ساحل البلطيق . وآخر للبحر المتوسط تنظم فيه الدول القائمة على سواحلها . وثالث لاوروبا الوسطى يكون اساسه اتفاق بين فرنسا وايطاليا وغرضه الاول ضمان استقلال النمسا لم يحقق من جميع هذه المشروعات العظيمة الا النزر القليل . منها الاتفاق البلقاني في ٩ فبراير ١٩٣٤ بين يوجوسلافيا ورومانيا واليونان وتركيا ، وذلك قبل ان يتقصد بارتو وزارة الخارجية الفرنسية . وكانت قاعدته مخالفة عسكرية للدفاع عن الحدود القائمة في البلقان ولكن الاتفاق العسكري لم ينص في الواقع الا على التعاون بين ثلاث منها فقط في حالة هجوم بلغاريا . وقد اعتذرت اليونان عن الاشتراك معها في ذلك بأن سواحلها شديدة التعرض للخطر . ثم ان الاتفاق لا يحتوي على نص خاص بالتعاون بين دوله ضد احدى الدول الكبرى . ونذهب الى أبعد من هذا فنقول ان لا الاتفاق البلقاني ، ولا الاتفاق الصغير ، ولا الاتفاق البلطيق ، يشمل نصاً ما خلا مقاومة اعتداء تقوم به المانيا او ايطاليا

كان الطريق الى عقد الاتفاق البلقاني قد مهد في سنة ١٩٣٣ بعقد معاهدات بين روسيا السوفيتية وجاراتها حدد فيها معنى الاعتداء . وفي مقدمة هذه المعاهدات ما عقد بين روسيا والاتفاق الصغير . وبمقتضى هذه المعاهدات سلمت روسيا بضم بسارايا الى رومانيا ، تسليماً ضمناً لان حدود الدول المتعاقدة وصفت وصفاً صريحاً فيها . وعلى اثر ذلك سعت روسيا لدى صديقتها تركيا فحملتها على الشروع في المفاوضات لعقد الاتفاق البلقاني

وأمم من الاتفاق البلقاني ، بين المعاهدات التي عقدت في هذه الفترة ، ووقع أثره في السياسة الدولية ، المعاهدة الفرنسية السوفيتية (٢ مايو ١٩٣٥) وبمقتضاها قطعت الدولتان المتعاهدتان عهداً بالتعاون المتبادل وفقاً للمادتين ١٥ و ١٦ من ميثاق عصبة الامم . وتبعتها في ١٦ مايو ١٩٣٥ معاهدة تشبهها بين روسيا وتشيكوسلوفاكيا . فلما فسّرت المادة ١٦ من مواد ميثاق العصبة في النزاع الايطالي الحبشي تفسيراً جعل تطبيق العقوبات على ايطاليا لا مفر منه ، غدت هاتان المعاهدتان

بمنزلة تحالف عسكري ، لأنه أصبح لسكل دولة ان تعتبر اي اعتداء موجه الى غيرها من اعضاء العصبة كأنه موجه اليها . والفرق الوحيد بين المحالفات القديمة التي كانت تعقد قبل الحرب الكبرى وهذا الضرب من موثائق التعاون المتبادل ، ان الموثائق الحديثة القائمة على اساس من المادة ١٦ في ميثاق العصبة ليست الا موثائق دفاعية

كان المشروع الذي قصد بارتو الى تحقيقه واسع النطاق كثير التعقيد والاشتباك وكان الرأي ان تشترك فيه جميع الامم وتجنبي منه فائدة الضمان المشترك لسلامتها . فروسيا مثلاً تعد بنجدة فرنسا اذا استهدفت لهجوم الماني وبنجدة المانيا اذا استهدفت لهجوم فرنسي . وفرنسا تعد بنجدة المانيا اذا استهدفت لهجوم روسيا ، وروسيا اذا استهدفت لهجوم المانيا عليها . وهذا النوع من الترابط يجب ان يشمل معظم دول اوربا ، واذن فعقد الاتفاقات الثنائية بين الدول الاوربية الكثيرة كان يقتضي محادثات دبلوماسية لانهاية لها . ففي شهر يوليو من سنة ١٩٣٥ فاز الميسو تيتولسكو من الملك كارول بالسعي لعقد ميثاق تعاون متبادل بين رومانيا وروسيا ، ولكن فرنسا أخّرت ابرامها للميثاق الفرنسي الروسي الى شهر مارس من سنة ١٩٣٦ ولذلك لم يتقدم لتفيوف الى بحث مسألة الميثاق الروماني الروسي الا في ٢١ يوليو من ١٩٣٦ موضحاً ان المفاوضات الرسمية تبدأ في شهر سبتمبر من تلك السنة في جنيف . ولكن تيتولسكو اخرج من وزارة الخارجية الرومانية في ٢١ اغسطس ١٩٣٦ فوقفت المساعي لعقد هذا الميثاق بين رومانيا وروسيا عند ذلك الحد . وفي الوقت نفسه كانت يوجوسلافيا تسعى لعقد اتفاق تعاون متبادل مع فرنسا فلم يعرها لاقال اذناً صاغية ، وكذلك رى انه ما توارت جثة بارتو في لحدها حتى كانت عوامل الانحلال قد تطرقت الى فكرته

٣ — انحلال السلامة المشتركة

كيف يُفسّر هذا التحول ؟ ذلك ان المحرك القوي الذي كان يسوق دول أوربا المتوسطة والشرقية الى التفاهم والترابط في سبيل سلامتها المشتركة ، أصيب بما عطله ووقفه عن الحركة . وكان الباعث على ذلك يرتدّ جانب يسير منه الى النزاع الحبشي الابيطالي ، أما الجانب الاكبر فكان يرتدّ الى ما بدا من ضعف فرنسا وبريطانيا يوم ٧ مارس سنة ١٩٣٦ عندما دخلت الجيوش الالمانية منطقة الرين المجردة من السلاح . هذا الحادث قضى على ما كانت تؤمله دول اوربا المتوسطة والشرقية من مساعدة فرنسا لها في محنتها . وكانت المفاوضات التي دارت بين ١٩٣٤ — ١٩٣٦ قد أثبتت ان السلامة المشتركة في حوض الدانوب لا يمكن تنظيمها بغير تأييد فرنسا لها ، وضمان موثيقها . أما فرنسا فلم يكن في وسعها ان تؤيد وتضمن الا اذا وافقها انكلترا على ذلك

ان نظرة واحدة الى الخارطة الاوربية تحمل الباحث على السؤال ، لماذا لم تعقد رومانيا وتشيكوسلوفاكيا معاهدة تعاون متبادل مع اتفاق مصلاحتها على وجوب عقدها . وتفسير ذلك ان كل اتفاق من هذا القبيل لا تشترك فيه فرنسا او لا تضمنه فرنسا وتعهد بمقتضاه ان تستعمل جيشها العظيم لشغل الجانب الاكبر من الجيش الالماني في الغرب ، لا يمكن ان يقوم على اساس سليم فاذا نظرت الى الحالة الاوربية هذه النظرة تبين ان يوم ٧ مارس سنة ١٩٣٦ كان تاريخاً حاسماً . لانه ما زالت منطقة الرين مجردة من الحصون والاستحكامات ففي وسع الجيش الفرنسي ان يوغل في المانيا من غير ان يلقي مقاومة تذكر وان يشغل الجانب الاكبر من الجيش الالماني فتعجز المانيا عن أي عمل حربي ذي شأن في شرق اوربا أو متوسطها . وفي هذه الحالة كان في وسع فرنسا ان تنذر المانيا اذا رأت منها ما يدل على نية الاعتداء فتقول لها « الى هنا وكفى » والجيش الفرنسي جيش قوي جداً (اذا استثنينا سلاحه الجوي الآن) حسن النظام والتدريب . وحصون فرنسا على حدودها الشرقية أمتنع من عقاب الجو . ولكن منذ احتلت الحيوش الالمانية منطقة الرين في ٧ مارس سنة ١٩٣٦ انشأت فيها حصوناً تجعل الدفاع عن المانيا سهلاً . ثم ان البلاجيك ارتدت في شهر ابريل من سنة ١٩٣٧ الى خطة الحياذ . وهذا حمل دول اوربا المتوسطة والشرقية على التفكير : هل تستطيع فرنسا وانكلترا في هذه الاحوال سبيلاً الى القيام بهجوم فعال على المانيا ، اذا حدثتها نفسها بالاعتداء في اوربا الشرقية او المتوسطة . وهذا التفكير هداها الى القول بأن جميع المعاهدات والمواثيق التي انشأتها لضمان السلامة المشتركة اصبحت غير قابلة للتنفيذ

فلننظر الآن في ماتمّ بعد ما تبينت دول هذه المنطقة الحقائق المتقدمة مما قضى الى انحلال الجبهة الفرنسية في وسط اوربا وشرقها

الا ان الجبهة التي كان بارتو ساعياً في توحيدها وتعزيزها ، بدأت تتصدّع في أيامه . فعقدت بولنّدة في ٢٦ يناير من سنة ١٩٣٤ اتفاقاً مع المانيا على تأجيل جميع المسائل المختلف فيها بينهما عشر سنوات وهو اتفاق يبدو اول وهلة انه عقد لمنع ما قد ينشأ بين الدولتين من نزاع ولا سيما بسبب الحجاز البولندي . الا ان الواقع ان الباعث لالمانيا على عقده معرفتها ميل الكولونيل بك وزعيمه المارشال بلسودسكي . ذلك ان ميولها حملت المانيا على الاعتقاد بأن بولنّدة تحتفظ بجميع قواتها في المستقبل لمقاومة روسيا السوفيتية بل لمهاجمتها . وانها ان تكون كاملة الولاء لفكرة السلامة المشتركة . وانها ستسعى جهدها لنزع تشيكوسلوفاكيا بالدخول بينهما من جهة وبين حليفها رومانيا ويوغوسلافيا في الاتفاق الصغير من جهة أخرى . وانها لا بد ان تبذل مساعيها في براغ مع هنلين ضد بنش وفي رومانيا ضد تيتولسكو . والواقع ان تقدير المانيا

كان في محله ، لان الكولونل بك كان دائم السعي لاضفاف النفوذ الفرنسي وهدم ما ابتغته فرنسا من انشاء نظام « السلامة المشتركة »

ثم ان تفكير بلسودسكي العسكري كان لا يتلاءم مع النزعة السلمية في الديمقراطيتين الفرنسية والنشكية . واما بك فكان تلميذاً وفيّاً لاستاذهم وزعيمهم . نعم ان بولنده كانت حانقة لان فرنسا اهملتها بعض الاهمال في معاهدات لوكارنو ولانها قبلت ان توقع في ٧ يونيو من سنة ١٩٣٣ ميثاق الدول الاربع مع بريطانيا و المانيا و ايطاليا . ومع ان هذا الميثاق ولد ميتاً لكن تأثيره النفسي في حلفاء فرنسا في أوروبا الوسطى والشرقية كان بالغاً أقصى حدود الضرر . ثم ان بولنده أزعجها ان تقترح فرنسا في مؤتمر نزع السلاح خططاً لضمان السلامة قبل ان تستشيرها فيها . فلما اقترحت بولنده على فرنسا القيام « بحرب واقية » على المانيا في سنة ١٩٣٣ أبت فرنسا ذلك فشرعت بولنده في الحال في المفاوضات مع برلين . ومهما تكن الاعذار التي يعتد بها الكولونيل بك ، ومهما يبلغ تصريحه بولائه لفرنسا ولصداقتها من البلاغة ، فالواقع الذي لا ريب فيه انه اختار طريقة . فاذا حدث ما أسلم أوروبا الى ازمة لا مخرج منها الا بالحرب فعلى بولنده ان تختار ، واذا كانت الكلمة العليا للكولونيل بك حينئذ فالغالب انه يختار ان يكون في جانب الريخ الثالث . ولكنه مع ماله من المكانة ليس سيد بولنده الوحيد . ومنذ ما دخلت جيوش المانيا منطقة الرين في مارس من سنة ١٩٣٦ أخذت رومانيا ويوجوسلافيا تجري على خطة تشبه خطة بولنده من بعض الوجوه لتأمين سلامتهما من دون ان تتخذ إحداها خطوة لارجعة فيها

ففي ٢٩ اغسطس سنة ١٩٣٦ اخرج تيتولسكو من وزارة الخارجية برومانيا . فلما اجتمع مجلس الاتفاق الصغير في براستيلافا ، في احد اجتماعاته الدورية ، بعيد ذلك ، قرّر حلّ الوثاق الذي كان يربط الدول الثلاث منذ فبراير سنة ١٩٣٣ وذلك باعتراف المؤتمر بأنه من حق كل دولة ان تقاوض من تشاء من جاراتها وتعتد معها اتفاقاً وفقاً لمصلحتها الخاصة . وكانت الحجة ان تشيكوسلوفاكيا قد عقدت اتفاقاً مع روسيا في مايو من سنة ١٩٣٥ فلماذا لا يجوز ليوجوسلافيا او رومانيا ان تعقد اتفاقاً مع المانيا او ايطاليا اذا دعت الحاجة اليه . وكان المجلس نسي حينئذ ان الاتفاق الروسي التشيكوسلوفاكي عقد بموافقة الدول الثلاث ، وان وزير رومانيا ويوجوسلافيا كانا قد انضموا الى وزير تشيكوسلوفاكيا في تبيان الفوائد الجمّة التي تجني من عقد اتفاق روسي فرنسي . بل انهم ذهبوا الى ان الاتفاق الفرنسي الروسي اساس للاتفاق العام الذي يبعونه ، ولم يسلموا بالاتفاق الفرنسي الايطالي الذي عقد في ٧ يناير ١٩٣٥ لا عند ما تيقنوا ان باريس تنوي ان تعقد اتفاقاً آخر مع روسيا

وعلى الرغم مما حدث في مؤتمر براتيسلافا جددت فرنسا مساعيها لتعزيز جبهة الاتفاق الصغير فأبأت الدول الثلاث في نوفمبر من سنة ١٩٣٦ أنها مستعدة أن تتخذ على نفسها عهداً عسكرياً وسياسياً أزاء كل واحدة منها على نمط العهد التي تتخذها الدول الثلاث أزاء بعضها بعضاً . ولكن رومانيا ويوجوسلافيا لم تقبلا هذا العرض . لانهما لم تقبلا ان تعهدا بمساعدة تشيكوسلوفاكيا ضد المانيا . نعم ان عرض فرنسا لم يرفض رسمياً ولكنه لم يقبل فهو اذن معلق وماذا فعلت يوجوسلافيا بعد ما اتخذ مؤتمر الاتفاق الصغير ذلك القرار ؟ عقدت مع بلغاريا معاهدة في ٢٤ يناير سنة ١٩٣٧ اتفقت فيها الدولتان على ان لا تحارب احداها الاخرى مطلقاً ولكن الاتفاق البلقاني كما لا يخفى يقضي على يوجوسلافيا بأن تشارك في الدفاع عن اليونان او تركيا او رومانيا في حالة اعتداء بلغاريا على احداها — ومع ذلك اكد الميسو ستويادينوفتش رئيس وزراء يوجوسلافيا لحلفائه في الاتفاق البلقاني ان اتفاه مع بلغاريا لا يحول دون نهوضه بما تقتضيه منه نصوص الاتفاق البلقاني !

ثم انه عقد اتفاقاً سياسياً مع ايطاليا في ٢٥ مارس سنة ١٩٣٧ وبه وعدت ايطاليا بالامتناع عن اي سعي موجه الى سلامة الاراضي اليوجوسلافية ووعدت يوجوسلافيا مقابل ذلك ان تتشاور مع ايطاليا في حالة نشوب ازمة دولية للاتفاق على موقف مشترك . وهذا لا يتواءم ونصوص المعاهدة الفرنسية اليوجوسلافية المعقودة في سنة ١٩٢٧ والمجددة في ١٩٣٢ ثم في اكتوبر من سنة ١٩٣٧ . وتفسير ستويادينوفتش لهذه المفارقة ان التشاور والاتفاق على موقف مشترك اختياري في المعاهدة مع ايطاليا واجباري في المعاهدة مع فرنسا لان المعاهدة اليوجوسلافية الايطالية تستثني اي عهد قطعها حكومة بلغراد في اتفاقات سابقة . وما يذكر في هذا الصدد ان معاهدي يوجوسلافيا مع بلغاريا وايطاليا عرضتا على حلفاء يوجوسلافيا ولكنهما عرضتا عن انهما امر واقع فاما ان تقبلا واما ان ينهارالاتفاق البلقاني والاتفاق الصغير وماذا تم في رومانيا ؟ لم تجار بولنده ويوجوسلافيا في انفصالها انفصلاً صريحاً عن الكتلة التي سعت فرنسا الى انشائها في شرق اوربا ووسطها . ولكن وزارة تاتارسكو شرعت في ربيع سنة ١٩٣٧ في مفاوضة بولنده وايطاليا . إلا ان فرنسا تدخلت في الموضوع وبذلت ما لها من مقام وقود في بوخارست للحيلولة دون انتهاء هذه المفاوضات الى اتفاق معين . ولا يخفى أن الكولونيل بك وزير خارجية بولنده لا يني عن بذل سعيه في رومانيا ضد فرنسا . ولكن نجاحه كان متعذراً ما زال نيقولايتيولسكو وزيراً للخارجية . ولذلك ظلت المعاهدة الرومانية البولندية الموجهة ضد روسيا حرقاً مماناً في اثناء عهد تيتولسكو فلما أخرج من وزارة الخارجية الرومانية في اغسطس ١٩٣٦ جدد الكولونيل سعيه . وكبر الأمل في تحقيق أغراضه عندما

قامت وزارة جوجا في أواخر السنة الماضية . ولكن سقوط وزارة جوجا وقيام وزارة البطريك كرسيتيا وإعادة تأليفها من عهد قريب جعل الحالة في رومانيا غامضة وان كان السعي المبذول في الاسابيع الاخيرة للقضاء على الحرس الحديدي دليلاً على ان الملك كارول — وهو حاكم رومانيا الحقيقي الآن — ينوي ان يحتفظ بما يربط رومانيا بفرنسا وانكلترا من العرى

مهاجرة

هذا أهم ما يمكن ان يقال الآن عن تطور الحالة في «منطقة الشعوب الصغيرة» . اما ما ياتي به الغد وهل تفوز المانيا ببسط نفوذها على هذه المنطقة ، او تعود معظم هذه الدول فتلتف حول الديمقراطيتين الغربيتين ، فيتوقف في رأي الكاتب الفرنسي برتيناس — وعلى مقال له في مجلة الشؤون الخارجية الاميركية ^(١) عدد ابريل ١٩٣٨ اعتمادنا في كتابة هذا الفصل — على حزم انكلترا وفرنسا . فاذا بدا لهذه الدول الصغيرة ان فرنسا وانكلترا عادتا قوة فعالة في السياسة الاوروبية عادت هذه الدول الى تأييد مساعيها . وإذا ثبت ضد ذلك ، فانها لا بد لها من ان تمضي في خطتها البادية في موقف بولندة ويوجوسلافيا ، الى ان تصبح مضطرة جزءاً من «أوروبا الوسطى» — ميتل أوروبا — الخاضعة للسيطرة الالمانية

ويروي «برتيناس» في آخر مقال له هذا انه كان في لندن في الاسبوع الثالث من شهر فبراير الماضي — بعد ان اجتمع المهر هتلر باهر شوشنج في برخستيجادن (في ١٢ فبراير) وحمله على اجابة بعض مطالبه كضم الهز زايس انكوارت الى وزارته وتقليده منصب وزير الداخلية فيها — فخطب في فريق من اعضاء مجلس النواب البريطاني ميئناً ان ماتم في النمسا لم يكن الا نتيجة لعجز فرنسا عن القيام بعمل حاسم في ٧ مارس سنة ١٩٣٦ فتهتفوا له مؤمنين على كلامه . ولكن في يوم ١٨ فبراير سنة ١٩٣٨ تلقى المسيو كوربان سفير فرنسا في لندن امراً من حكومته بان يخاطب المستر ايدن وزير الخارجية البريطانية في ارسال تصريح انكليزي فرنسي مشترك الى برلين تعرب فيه الحكومتان عن عزمهما على مقاومة كل اعتداء على المعاهدات الدولية الخاصة بأوروبا الوسطى . فأعرب ايدن عن موافقته على هذا الرأي ولكنه لم يلبث حتى اضطر ان يستقيل من وزارة الخارجية لما بينه وبين رئيس الوزارة من خلاف أساسي في الرأي والاسلوب ولا سيما في ما يتعلق بالمفاوضات مع ايطاليا . أما الاقتراح الفرنسي فلم يرفض ولكن المستر تشمبرلين صرح في مجلس النواب بأنه ينوي ان يسعى ثانية للاتفاق مع ايطاليا وألمانيا . ولا يخفى ان الحشوش الالمانية دخلت النمسا (في ١١ مارس) فلم تحرك فرنسا ولا انكلترا ساكناً غير الاحتجاج ثم أيدضم النمسا الى المانيا في استفتاء ١٠ ابريل . وفي ١٦ ابريل تم توقيع الاتفاق البريطاني الايطالي

(١) Foreign Affairs, April 1938 pp 401 -- 416

مكتبة المقتطف

تأليف المستشرقين
بقلم الدكتور بشر فارس

— ١ —

Henri Pérès — La Poésie andalouse en arabe classique,
au XIe Siècle — Editions Adrien-Maisonneuve, Paris 1937.

هنري بيريس — الشعر الاندلسي باللغة الفصحى في القرن الحادي عشر (للمسيح)

ظواهره العامة وقيمته من حيث هو وثيقة — ٥٤١ ص — ٢٥ × ١٦

الاستاذ هنري بيريس مستشرق فرنسي معروف ، له مباحث طريفة موقوفة على الآداب العربية وقد نقدت بعضها في هذا الباب من المقتطف . والاستاذ بيريس من أساتذة كلية الآداب في الجزائر . وها هو ذا يخرج مؤلفين نفيسين في وقت واحد ، أحدهما الذي بين يدينا والآخر عنوانه : أسبانية في أعين الرحالين المسلمين من سنة ١٦١٠ الى سنة ١٩٣٠ (ارجع الى نقدي له في مجلة الرسالة ، عدد ٢٥١ ، البريد الادبي)

يرى المؤلف ان الادب الاندلسي للقرن الحادي عشر للمسيح قليل الحظ من عناية الباحثين . والتحقق أنه على جانب عظيم من الشأن لأسباب ، منها تبدل المجرى السياسي ببروز ملوك الطوائف على انقاض الدولة الاموية ، وتحرر الافكار من الضغط الديني بفضل تأليف الفلاسفة ، وتقبض العنصر الاندلسي مستقلاً عن العناصر الشرقية ، وتسرب الفكرة القومية اذن في نواحي الشعر . واعتماد المؤلف في سبيل فحص الشعر الاندلسي لذلك العهد على القصائد والمقطوعات المنظومة باللغة الفصحى دون اللغة الدارجة اي دون الازجال لان هذين كانت نادرة في ذلك الزمان . وطريقة عرض المؤلف لمباحثه ان ينظر في الشعر ظاهره وباطنه فينقل الجانب اللامع منه الى اللغة الفرنسية مع سوابقه ولواحقه مخافة ان يجيء الشعر أبتراً . وأما النقل فما لا يخفى على المؤلف ان ترجمة الشعر العربي من المصاعب ، الا أنه لزم النص حتى أنه ربما نقل البيت حرفاً بحرف ارادة ان يحافظ على الروح والمدلول

وللكتاب مقدمة مسهبه يبسط فيها المؤلف مجرى الحياة السياسية ثم ما يتعلق بشؤون العنصر والقومية فهنا يشرح نفسية الاندلسي وهناك يقابل حزب الاندلسيين بحزب البربر . والمقدمة توطئة علمية ترسل على نواحي الكتاب كلها ضوءاً وهجاً . اما مباحث الكتاب نفسه فنقسم اربعة اقسام . احدها موقوف على الشاعر ونكونه وحالته الاجتماعية واتصاله بالملوك والامراء .

والآخر محصور في الهام الطبيعة للشعراء. والثالث يتناول الحياة الاجتماعية. والرابع الحياة المنزلية
 واما القسم الاول فيعرض طرق انتشار اللغة العربية في الاندلس ، ويذكر الكتب والمواد
 التي كانت تقرأ وتؤخذ ، ويشير الى ما اقتبسهُ الاندلس من الشرق ثم الى انزوائه عنه وتخليصه
 من قيده ، ويسرد طبقات الشعراء وضروب الشعر ، ويدون ألوان الشعر التي توحى حياة القصور
 واما القسم الثاني فيعرض مصادر الوحي الخاصة بالطبيعة الاندلسية ، نذكر منها : الصعيد
 والمدينة والمنتزهات والقصور ، قرطبة « وعجائبها الاربع » ، اشبيلية وظواهرها ، المرية
 وضواحيها ، وغيرها من البلدان والقرى . ثم الاودية والخيال والحداثق والجماليات والازهار
 والقواكه والخضرة والبحيرات والجداول والبحر والسفن والسماء وما فيها ثم ما يتصل بها كالمطار
 والبروق ، ثم الحيوانات من ذوات الاربع والطيور والحشرات

واما القسم الثالث فيستخرج من الشعر مجموعة مدلولات على الحياة العامة كالسكان وعناصرهم
 والاقتصاد والاحوال الشخصية (من زواج وموت وملبس ومشرب) والترف والاستجمام
 واللعب والرياضة والحرب ثم اللهو على ألوانه من ما دُب وشرب النبيذ وسماع الغناء
 واما القسم الرابع فخاص بالمرأة والرجل والحب . وفيه تحليل لطيف لالوان شعور المرأة
 واخلاق الرجل ومراتب الحب

هذا وقد جعل المؤلف للكتاب خمسة فهارس : الاول للاعلام والثاني للشعراء والثالث
 للمراجع والرابع للالفاظ الفنية والخامس للالفاظ العربية المدونة بالفرنسية
 فانك لتري ما شأن هذا الكتاب الجليل ، يبرز لنا قرناً كاملاً من طريق الشعر
 وهذه طريقة من البحث العلمي مستقيمة مفيدة

وجل ما يؤخذ على الكتاب بعض اوهام في الترجمة . منها :

bienveillant للفظه « تسميح » (ص ١٢٥) والوجه tables, généreux للفظه « موائد »

(ص ٣١٦) والوجه tables servies لان المائدة خوان عليه طعام

expérimenté للفظه « ماهر » (ص ٣٢٤) ، والوجه maître (bijoutier) واللفظة الفرنسية

التي اوردها المؤلف تفيد لفظه « خير »

mélodies للفظه « ترانم » (ص ٣٩٢) ، والوجه psalmodie ، واللفظة الفرنسية تفيد

لفظه « الحان »

spirituels للفظه « ظرفاء » (ص ١٧٥) ، والوجه agréables

بقى ان المؤلف قال في الحاشية الاولى لصفحة ٢٢٥ ان النسبة تفيد نسبة المسلم الى ارومته

والوجه « العربي »

— ٢ —

Ibn Haiyan—Al Muktabis - tome IIIe—Texte Arabe publié par le
P. Melchior M. Antuna, O. S. A. — Editions Geuthner, Paris 1937.

القسم الثالث من كتاب المقتبس في تأريخ رجال الاندلس ، للمؤرخ الشهير أبي مروان حيان بن
خلف المعروف بابن حيان — نشره الاب ملشور م . انطونية — ٢٢ ص باللغة
الفرنسية و ١٧٥ للنص العربي — ٢٤ × ١٨

لهذا السفر مقدمة مسهبة يتكلم فيها الناشر على ابن حيان من كتاب القرن الخامس . فيذكر
مكاته العالية بين سائر المؤرخين من العرب وان ضاع الجانب الاكبر من تأليفه . ثم يترجم له
ترجمة وافية إذ نخبرنا أين ولد ونشأ ثم كيف أخذ العلم وعمن أخذه ثم لمن بذله ثم في اي الفنون
كتب وما كتب . وينتقل بعد هذا الى وصف المخطوطتين اللتين اعتمد عليهما في نشر الكتاب .
ثم ينصرف الى تدوين المصادر التي عوّل عليها ابن حيان ، وتراه يذهب في هذا الفصل الى ان
المؤرخ الاندلسي اطلع على سير وأخبار من أقلام النصارى . ثم يختم المقدمة بذكر اثر ابن
حيان في تأليف من جاء بعده من المؤرخين

وميزة هذا الكتاب انه يسرد في أسلوب سهل على ركافة او ضعف أحياناً الحوادث
التي وقعت في عهد الامير عبدالله صاحب قرطبة وجدّ الخليفة عبد الرحمن الثالث . والجانب
الاكبر من هذه الحوادث ترجع الى حروب وغزوات
هذا وقد بذل الناشر الاب ملشور م . انطونية جهده في التثبت والتدقيق ، إلا ان هنالك
بعض أوهام لا بدّ من التنبيه عليها . منها :

ص ١١٥ ، س ١٠ : وهي (مدينة بياسة) في خير الطاعة — والوجه : حيز
ص ١١٧ ، س ١٤ : وأنفذ القائد احمد بن محمد رسله الى المدينة لورقة معذراً الى
الحديث ديسم . . . — والوجه : منذراً

ص ١١٧ ، س ٢ (تحت) : فنشئت حرب — والوجه : فنشبت حرب
ص ١١٩ ، س ٧ : ووافى بها (بأشبيلية) أيضاً روء وريح ومطر — والوجه : نوء
(راجع ص ١٦ ، س ١)

ص ١١٩ ، س ١٢ : ثم صار العسكر متردد على تلك الحصون — والوجه : يتردد

ص ١٣٣ ، س ١٥ : ذاك الحديث المراي بالزهد — والوجه المرأئي

ص ١٣٣ ، س ١٧ : وتدبر برائيه — والوجه : برأيه

ص ١٣٦ ، س ١٨ : فلنفر عليه الهزيمة — والوجه : فلنفر

ص ١٤١، ص ٢ : يستقرى قراءها ويتقصى أكنافها — والوجه : قراها
ص ١٤١، ص ٦ (تحت) : وجال العسكر في تلك الجهة أياماً يحترق ويدمر والوجه : يحترق
ذلك الى ما هنالك من الجمل المتشابهة (مثلاً : ص ١١٥ من ١٠، ١١ — ص ١٣٦، آخر
الصفحة — ص ١٤١، ص ١١) والغلطات المطبعية (مثلاً : ص ١٢٠، ص ١١ — ص ٦)

— ٣ —

Biographie des grammairiens de l'Ecole de Basra, par ... as-Sirafi
publié et annoté par F. Krenkow—Bibliotheca Arabica, Faculté
des Lettres d'Alger. 1936

كتاب اخبار النحويين البصريين . تأليف ابي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي . اعتنى بنشره
وتهذيبه افر عباد الله الى رحمة فرنسيس كرنكو — ٩ صفحات للمقدمة الفرنسية ،
و ١١٦ للنص العربي ، و ٣ ألواح للمخطوطة — ١٩٦ × ١٢٦

إن هذا الكتاب يخرج في عهد شغل علماء العربية فيه بعلم النحو ، إذ يقلبون فيه النظر
ارادة تهذيبه وتقريب مناله الى طلبة العلم . والتحقيق ان الكتاب لا يبحث في المسائل النحوية
ولا يعرض لملئوياتها ، غير أنه يلوح اليها في معرض الكلام على أئمة النحو . وخير ما يستخرج
من هذا الكتاب انه يرب النحويين البصريين فيجعلهم طبقات ثم يوازن بينهم ، حتى إنك تستطيع
ان تميز النحوي الثقة من النحوي الضعيف . وانها لنتيجة جليلة
هذا وللكتاب ثلاثة فهارس : الاول لاسماء الرجال والقبائل ، والثاني للاماكن ،
والثالث لاسماء الكتب

وأما نشر الكتاب فحسن على وجه الاجمال ، وثمة هنات أشير اليها :
ص ٥٩، ص ١٠ : (شعر) فتولّى لم يُمتّع بكفن — والوجه : يُمتّع .
ص ٦٢، ص ٢ : فنظّر فيه — والوجه : فنظر .
ص ٦٣، ص ١ : (تحت) بين يدي الناس — والوجه : أيدي .
ص ٦٤، ص ٥ : نَمَى إِلَيَّ أَنَّ الرشد . . . — والوجه : نُمي .
ص ٧٥، ص ٦ : خَلَفْتُ أُخِيَّةً لِي أَصْغَرُ مِنِّي أَقِيمَهَا مَقَامَ الْوَالِدِ — والوجه : الولد
(كما في الاصل ، انظر الحاشية)

ص ٧٥، ص ٢ : (تحت) : تقول ابنتي حين جد الرحيل أَرَانَا سَوَاءً وَمَنْ قَدْ يَتَمَّ
نَرَانَا إِذَا مَا
والوجه : أَرَانَا (كما في البيت الاول ثم كما في ديوان الاعشى ص ٣٣ ، والبيت له)

— ٤ —

Les Prolegomènes d'Ibn Khaldoun 2e partie. Editions
Paul Geuthner, Paris 1936

مقدمة ابن خلدون — المجلد الثاني — ٤٩٣ ص — ٢٤ × ١٦

إن مقدمة ابن خلدون فوق التعريف . وقد اشتدت عناية علماء الفرنجة لهذا العهد بها منذ اليوم الذي فيه اخذت العلوم الاجتماعية يفسط ميدانها ويعلو شأنها ، ولا سيما بعد قيام المدرسة الفرنسية الجارية على سنن دُرْكايم Durkheim . ذلك ان رجال هذه المدرسة أصابوا في مقدمة ابن خلدون ما يساير آراء دركايم ونظرياته . وما أعرف مفكراً عربياً قديماً يظفر الآن بما يظفر به ابن خلدون من العناية . فالرسائل فيه متلاحقة في المشرق والمغرب

ومما لا يجبهه احد ان مقدمة ابن خلدون نقلها البارون دي سلان الى اللغة الفرنسية في باريس حوالي سنة ١٨٦٠ . وقد اصبحت الترجمة عزيزة نادرة . فقطن ناشر فرنسي لاجرائها مرة ثانية المشتغلين بالمشروعات والاجتماعيات . فظهر الجزء الاول منها سنة ١٩٣٤ (اطلب ديسمبر وابريل ١٩٣٤) . واليوم ظهر الجزء الثاني . وعسى ان يظهر الجزء الثالث وهو الاخير قريباً ، فتعم الفائدة ، وان كانت ترجمة البارون دي سلان موضع نظر أحياناً لا تنقل لغة الفلسفة من مذهب الى مذهب في اثناء تسعين سنة . ولعلني افصل هذا عند ظهور الجزء الثالث

— ٥ —

Abstracta Islamica. (5e Série) Revue des Etudes Islamiques.
Editions Geuthner, Paris.

يعني الاستاذ لويس ماسينيون المستشرق المعروف وأحد اعضاء مجمع اللغة العربية الملكى باثبات مجرى التأليف الخاص بالعرب والاسلام في المجلة التي يخرجهما في باريس « مجلة الدراسات الاسلامية » . ففي الجزء الرابع من سنة ١٩٣٥ والجزء الثاني من سنة ١٩٣٦ بصيب القارئ عناوين التأليف وأسماء المؤلفين مدونة على حسب الموضوعات . وهذه الموضوعات كما يلي :

تاريخ العلوم في البلاد الاسلامية — الفلسفة وعلم الكلام — فقه اللغة والتربية — علم الاجتماع واحوال الشعوب — تاريخ الادب ونشر النصوص — الفن والرياضة (اي المعمار ، والكلمة للعلامة الاب انستاس الكرملي ، انظر « اهرام » ٤/٣ ١٩٣٨ ص ٣) — تاريخ الادب الفارسي والتركي والعبري — والعربي — التشريع والتقنين والتدبير — التاريخ الديني : محمد والقرآن — التصوف والفرق — الاستحداث — الاستعمار الاوربي والسياسة العصرية — الاسلام : نظرات عامة وصلة الاسلام بالغرب — المخطوطات والبردي — المصادر والمؤتمرات والمجلات

وقد اشترك في اثبات هذه التأليف كلها الاستاذ لويس ماسينيون والاستاذ پول كراوس والاستاذ هنري شارل

ولا يسع الناقد إلا أن يفرح بمثل هذا العمل المفيد ، إذ أنه يئذ للباحث المراجع مفصلة وافية . ولربما نبه على بعض سقطات في كتابة الالفاظ والاسماء العربية باللغة الفرنسية ، نحو كتابة لفظة الريح هكذا : الريح (ص ٣١٠) ولفظة الآلى . هكذا : الآلى . (ص ٣٠٧) واسم ابن العربي هكذا : ابن الاربى (ص ٣٠٤)
ب. ب. ف.

الفصول والغايات

في تمجيد الله والمواظ

لأبي العلاء المعري — ٤٨٢ ص من قطع المقتطف — يطلب من مجلة الرسالة بالقاهرة ضبطه وفسره غريبه ونشره محمود حسن زناتي

ان ناشر هذا الكتاب — الاستاذ الشيخ محمود حسن زناتي — ممن اليف المخطوطات ووطن النفس على النظر فيها ومن جعل الكتب والتصانيف خلطاءه وصحبه ، ذلك بأنه ظل زماناً أميناً للخزانة الزكية وهي خزانة شيخه المرحوم احمد زكي باشا . واكبر شاهد على هذا انه لما اعتزل عمله عقد النية على نشر طائفة من اسفار المتقدمين . وها هو ذا يخرج علينا اول ما يخرج بكتاب ضخيم له مكانة رفيعة ، كتاب الفصول والغايات للامام الاكبر واحد عصره ونفر العربية نثراً وشعراً وفلسفة أحمد بن عبد الله بن سليمان . . . التنوخي المعري صاحب اللزوميات ورسالة الغفران

واذا نحن أغفلنا التنويه بالمؤلف فيما يحسن بنا ان نشير الى قدر الكتاب . فاعلم انه من الكتب التي شاع عنها انها ضاعت والتي قيلت فيها اقوال منها أن « الفصول والغايات » مؤلف يجنح الى الكفر لان صاحبه عارض به القرآن وأراد ان يأتي بالاعجاز البعيد . والتحقيق ما اثبتته الاستاذ زناتي في « المقدمة » من ان الكتاب انما تجري غايته الى « تمجيد الله والمواظ » من طريق الاقتنان في الكتابة من تدوين الغريب وارسال النوادر وبث الطرف وهي طريقة معروفة لأبي العلاء

هذا وأما نشر الكتاب فيدل على العناية الشديدة التي بذلها الاستاذ زناتي بين تحقيق وتدقيق ونظر ومراجعة . وجل ما كانت تتوق اليه النفس أن يذهب الناشر في كتابة المقدمة الى ابعد مما ذهب اليه من التعليق على الكتاب نفسه ومن الوصف للنسخة الخطية التي اعتمد عليها (وهي بالخزانة التيمورية برقم ٨٣٨ أدب) على حسب ما يصنع الناشر اليوم . ثم ان الكتاب تعوزه طائفة من الفهارس منها فهرست للاعلام واسماء الاماكن
ب. ب. ف.

الحلل السندسية

في الاخبار والآثار الاندلسية

تحفة من تحف الامير شكيب أرسلان

عطوفة الامير شكيب أرسلان في غنى عن التعريف الى حملة الاقلام في هذه الدنيا العربية لان الادباء والعلماء في هذه الايام أحد رجلين بالنسبة الى الأمير أعزه الله : إما عالم امتلات نفسه إعجاباً وتقديراً لفضل الأمير في مختلف نواحي العلم والادب وإما متعلم من بحره الزاخر وفيضه العظيم والرجلان يعترفان من صميم القلب بأن الأمير حجة العرب في هذا القرن ومناط فخرهم في هذا العصر

الله أكبر ما هذا البحر الزاخر وما هذه الروح السامية والادب العالي والوطنية العاملة وما هذا الرجل الذي لا يرتاح نفسه المتواضعة الا الى خدمة يسديها الى العالمين العربي والاسلامي ، فهو السياسي الذي ينوب عن ملايين العرب والمسلمين في جنيف يدافع عن قضاياهم العديدة فيهاجم أخصامهم ويشرح حججهم وينشر حقيقة أمرهم فاذا ظهر كتاب لعالم أو مقالة لسياسي أو رسالة لمستشرق وفيها شيء أو بعض شيء يغمط حق العرب أو يحاول الخط من فضلهم أو النيل من الاسلام وشعوبه رأيت الأمير لا تهدأ نائرة نفسه حتى ينشر في الحال الرد المفحم فيقرع الباطل بحجته ويرفع صوته عالياً يدوي في الاندية السياسية والعلمية والادبية انك ليملكك العجب حين تعلم انه على الرغم من نصيح الاطباء له يواصل اخوانه في مختلف بقاع الارض بالرسائل العامة والخاصة فيجيب عن كل سؤال ويتقدم بكل نصيحة ويواسي كل مظلوم ويدافع عن كل مضطهد

أما ناحيته العلمية والتي يحاول ان يتقطع لها في هذه الايام فهي من أهم نواحيه وسيرى العالم العربي على الرغم مما رأى من آثاره الكثيرة آثاراً خالدة يستجمر لها في جنيف ولا يمضي عام أو بعض عام حتى يخرج الأمير كتاباً خالداً في الموضوعات التي يتوق لها العلماء والمفكرون في العالم العربي

ولقد عرف الأمير ايدده الله بأشد الغيرة على راث امته العربية وولع منذ نعومة اظفاره بدراسة تاريخ الاسلام وحضارة العرب في الاندلس ذلك الفردوس المفقود وقد نحلى ولعه هذا في ترجمة رواية آخر بني سراج وما علق عليها . ولما شاءت الحال ان تتيج للامير زيارة الاندلس منذ اعوام قريبة — وهي أمنية طالما كان يرجو تحقيقها — انصرف يومئذ بكليته الى تطبيق النظريات

التاريخية على الحقائق الملموسة فزار الممالك والبلدان وجاس خلال الدور والقصور وشاهد المساجد والمعابد ووقف مهوراً امام عظمة القصور الشواهد وغاص في غمرات ذلك الفردوس العظيم فتفقد كل مدرسة وكل مكان فوصف كل شيء رأى وأرجعه الى اسمه العربي وشرح تاريخه وایامه البيض واستقرأ الآثار واستخرج عبرها فرّاً بكل قطر وأحاط بكل عصر

ثم افرد الفصول الضافية عن الحياة الاسلامية في تلك الجنان وكيف أخرج منها المسلمون كما أخرج ابو البشر آدم من الخلد ولم يترك حادثة تتعلق بأحوال الامة الاسلامية في الاندلس لها علاقة تاريخية او علمية او سياسية الا اشار اليها

جمع الامير كل هذا في كتابه «الجلل السندسية» الذي نحن بصدده فكان مؤلفاً فريداً لا يمكن لعالم او اديب او سياسي من ساسة العرب ان يستغنى عنه خصوصاً وان المؤلفات عن فردوس الاندلس باللغة العربية قليلة من جهة وناقصة من جهة اخرى

فقد رجع الامير الى مئات المصادر فصحح رواياتها بما لديه من صحيح السند فأنتكر الباطل وأحق الحق وأخرج طائفة من الاسماء تعد بالثبات من عجمها المغلوطة الى عريتها الصحيحة مما يدل على سعة منقطة النظر في حب البحث والصبر على استخراج الحقائق من مكامن بعيدة واما كن ليس من السهل الوصول اليها

وقد جمع بين دفتي الكتاب مجموعات كبيرة من صور ملوك الفوط والاندلس وآثار الحضارة الاسلامية بفنونها ومعابدها وصور القادة والوزراء وبعض وقائع تلك الايام ايام الوصل بالاندلس وعهد المجد الذي خلده العرب في تلك الدنيا التي مرت كحلمة المختلس

وسرد الامير شكيب في رحلته هذه اسباباً تعتبر من اقوى الادلة على ما انتاب العرب من اسباب الضعف بعد تلك القوة ودل عليها باستقراء واستنتاج يبعثان على الدهشة حتى يخيل اليك وانت تطالع ما كتب وتقارن بما كتب الغير — انك ذهبت الى تلك البلاد وعاشرت اهلها ودرست عن كتب حالتهم النفسية من كل وجوها

وقد اهدى الامير رحلته هذه الى روح ابي المطرف الخليفة امير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الاموي الذي يعجب به المؤلف اكثر من كل خليفة حاشا الخلفاء الراشدين

وقد تولى طبع هذه الرحلة ونشرها السيد محمد المهدي الحبابي صاحب المكتبة التجارية الكبرى بفاس وقدم لها مقدمة اوجزت ما في الكتاب ودلت على تقدير عظيم للمجهود الجبار الذي بذله المؤلف الجليل حتى أخرج للعلماء والباحثين هذه الموسوعة الاندلسية التي أضافت الى المكتبة العربية ذخراً من أنفس الذخائر

المعجمية العربية

على ضوء الثنائية واللسنية السامية

للاب . س . مرمرجي الدومنيكي أحد أساتذة المعهد الكتابي والآثاري الفرنسي في القدس الشريف مطبعة الآباء الفرنسيسكان في القدس سنة ١٩٣٧ . ثمنه ٢٥٠ ملا

هو كتاب لغوي يبحث في بعض الالفاظ العربية وأصلها بحثاً دقيقاً ويبحث في تاريخها والبلاد التي نشأت فيها أفارسية هي أم عربية أم ارمية أم عبرية أم حبشية والبحث دقيق جداً فيه طلاوة يستهوي القارئ . ولما كنت عاجزاً عن نقد هذا الكتاب لجهلي اللغات السامية الا لغتي العربية وهذه لا أعرفها الا معرفة ضعيفة محدودة ولكنني سأستعرض بعض الالفاظ التي جاءت فيها استعراضاً . وجملة الالفاظ نحو خمسين لفظاً واليك بعضها

البارية ليست بفارسية

قال المؤلف سُئِلت احدى المجلات هذا السؤال (« أأصاب اصحاب المعاجم العربية بقولهم البارية او البورية الحصر المنسوج من القصب وهي كلمة معربة أصلها فارسي » ! فان كان صحيحاً فما هو اللفظ الفارسي الاصل وما هو مدلوله ؟ وان لم يكن فما رأيكم في الامر) ؟ فأجابت المجلة « البارية او البورية فارسية لا تحتل شكاً وهي في هذه اللغة بوريا بضم الباء ضمّاً غير صريح ومعناها الاصل نوع من القصب يكثر في الآجام ويشبه البلاج بعض الشبه تتخذ منه هذه الحصر او البواري » . واما الظاهر لنا فهو ان البارية او البورية ليست فارسية قطعياً فما أصلها اذن ؟ ذاك ما يجيب عليه هذا المقال ثم أجاب المؤلف عن هذا السؤال يبحث استغرق ١٢ صفحة ذكر فيها أصلها بالاكديّة والعبريّة والارميه والحبشيه وأتى بالشواهد الكثيرة على ان البارية أصلها من العراق اي البلاد السمرية الاكديّة وهي الاكديّة في الاصل من كلمة بورو ومعناها اليراع او القصب وانها عراقية فحة عمرها ما ينيف على الاربعين قرناً

ثم الكلمة التالية

اصل الحوارين فقد قال فيها ما ملخصه . قال : الظاهر عما تقدم ان لفظة الحوارين قرآنية أم غير قرآنية ليست مشتقة من حور وأنهم قوم كانوا قصّارين او ملوكاً او أنقياء القلب او أنصاراً ولا هي سريانية بل حبشية معناها الرسل دخلت العربية بدخول الحبشة الى اليمن وعن أهل نجران تلقاها عرب الحجاز عنهم

ثم كلمة الحج

فقد قال فيها هو يدل على اجهاد النفس انتقل معناه الى معنى الرقص ثم الدوار فلاحشاد فالومسم فالعيد فالقصد فزيارة أحد المقادس فزيارة كنيسة نجران عند نصارى العرب فزيارة كنيسة القيامة فزيارة السكبة المكيّة

أصل كلمة داوية

كان في أيام الصليبيين فرقان من الرهبان دعا لهم العرب أحياناً الاسبتارية أو الاسبتالية ولاشبهة في أن هؤلاء هم رهبان المستشفيات وآخرين داوية وهذه سريرية معناها الفقراء أي الاخوة الفقراء

أصل كلمة الفصح

وهي عبرية وكلمة توراة كذلك عبرية وكلمة إيل وبيت لحم واللحم والقم وكلمة صلاة وصورت السريانية وسورة القرآنية

أصل كلمة هيكل

هذه اللفظة من عداد الالفاظ الواردة في اللغات السامية جمعاء أي الاكدية والعبرية والارمية والعربية والحبشية . أما المعاجم العربية من قديمة وحديثة فلا نجد فيها ذكرأ لاصلها . اما الواضح انها ليست من الاوضاع المشتقة من الافعال بل أحر بها ان تحسب من الاصول الجامدة كان يظن سابقاً ان أصلها عبري . ثم لما ظهرت في الرقم المسماية قيل انها آشورية . وفي الحقبة الاولى من دراسة الاشوريات حين كان الباحثون يدعون اللغة الشمرية « اكدية » قالوا انها منقولة من هذه اللغة الى الاشورية . بيد انه إذ توصل المحققون ان يثبتوا بان « الشمرية » لغة قائمة بذاتها ليست من طائفة اللسان السامية لكونها لغة مقطعية مجاورة غير متصرفة وقد وضعوا لها تدريجاً كتب لغة وصرف ونحو — اتضح اليوم بكل جلاء ان لفظة هيكل وضع شمري ولا سامي قطعاً . ومن هذه اللغة نقل الى الاكدية ومنها الى العبرية فالارمية فالحبشية فالعربية وقال والخلاصة

مما ينجم عن تقصيات المتخصصين ان اللغة الشمرية ليست بسامية فلا يجوز ان تنظمها في سلك هذه اللسان . كلمة Ekal شمريّة مركبة من علامتين صوريّتين وقد أطلقت عند الشمرين على البلاط والمعبد . أدخل الاكديون هذا الوضع الى لسانهم غير مغيرين فيه شيئاً سوى انهم زادوا عليه علامات الاعراب التي لا وجود لها في الشمرية . ومن الاكدية انتقل الى اللغات السامية الاخرى . وفي هذه اللسان لا في الاكدية نفسها المضمحلة منها الحليقات تحولت الهمزة الى هاء فأصبحت اللفظة بصورة : هيكل

هذه هي الحقيقة العلمية الناصعة وما كانت في السكتب او الصحف بهذا المعنى فهو الحري بالاعتبار والاتباع . ومن هذا ينكشف وهن الرأي القائل : ان كلمة « هيكل » سامية الاصل . وهي كذلك او ما يقاربها لفظاً ومعنى في الارمية والعربية والحبشية والاشورية والكتاب على هذه الصورة يبحث في نيف وأربعين كلمة بحثاً دقيقاً وافياً فهو خير علمائنا من شرقيين وغربيين على الاطلاق الذين يبحثون في مثل هذه الامور امين المعلوف

القانون الدستوري

تأليف الدكتور وايت ابراهيم والدكتور وحيد رأفت — الاستاذين بكلية الحقوق المصرية
صفحاته ٨٥٧ قطع المقتطف — ثمنه ستون قرشاً

جرت العادة ان تقسم دراسة القانون الدستوري قسمين كبيرين : — قسم المبادئ والنظم الدستورية وقسم دستور الدولة وهو في هذه الحالة الدستور المصري . وعلى هذا جرى المؤلفان الفاضلان . فتناولوا في الكتاب الاول القواعد والنظم الدستورية بوجه عام من دون ان يحول ذلك دون التعرّيج على الدستور المصري لضرب الامثلة به وتبيان ما أخذ به من هذه القواعد وقد تناولوا في الباب الاول في فصول حسنة الترتيب وافية البيان الدولة وأساسها ونشأتها وسيادتها وأين مستقرها فيها . والحكومة وأنواعها وأجزائها والسلطات فيها . وأما الباب الثاني فقد خصّاهُ بالدستور المصري ، وهو في أكثر من ٢٠٠ صفحة ، فهو على ما نعلم أوفى كتاب مدرسي في الدستور المصري وتحليل مبادئه وموادّه . ولم يكتف المؤلفان بذلك ، بل جعلوا البحث في الدستور المصري ، من النوع المقابل ، فأنت بعد أن تقرأ المواد الخاصة بسلطة من السلطات وتفسيرها ، تطالع ذيلًا عامًّا فيه بسط لنشأة المبادئ التي تقوم عليها ، وكيف طبقت في دساتير الأمم الأخرى المشهورة بنظمها الدستورية . وفي الكتاب الرابع من هذا السفر النفيس موجز دقيق لبعض الدساتير الأجنبية كدستور بلجيكا ودستور فرنسا ودستور انكلترا ودستور الولايات المتحدة الأمريكية . ويلحق بذلك جميع الوثائق الرسمية الخاصة بالنظام الدستوري بمصر كنصوص الدستور وقانون الانتخاب واللائحة الداخلية لكلٍّ من مجلسي النواب والشيوخ ويشهد كاتب هذه السطور أنه طالع هذا الكتاب مطالعة باحث منقّب ، ولا سيما ما كان منه خاصًّا بالدستور المصري وأحكامه . فوجده وافيًّا بالاعراض التي توخاها المؤلفان الفاضلان ، واضحا في الشرح والتعليق والمقابلة ، وحذا الحال لو خلا من بعض هفوات مطبعية يسيرة لا تضير به تاريخ أورطة البنادق الخامسة المشاة

للملازم الاول عبد الرحمن زكي — مطبوعات المتحف الحربي — ٤٢ صفحة — المطبعة الاميرية ببولاق
تناول المؤلف في كتابه وهو الاول من نوعه تاريخ الجيش منذ نشأته في أيام الفراعنة وتطوراتها في العصر القديم . وانتقل بعد ذلك الى وصف حالته في العهد الاسلامي فنهضته الوثابة في أيام حكم محمد علي باشا وأشباه العظام . ووقف المؤلف صفحات كتابه الاول على تاريخ الاورطة الخامسة منذ انشاء الجيش المصري الجديد في عام ١٨٨٣ فوصف أهم معاركها وعملياتها الحربية في أقاليم السودان وحوادثها الهامة التي اشتركت فيها وذكر أسماء قوادها ومشهوري ضباطها . كل ذلك أورده المؤلف في اسلوب طلي يغري القارئ غير المحارب بقراءته بشغف

نوايا الشباب

بقلم احمد قاسم جودة — هدية مجلة الهلال

معرفة سير عطاء الرجال وتراجهم من الامور المستحبة التي تلذ للجميع مطالعتها ولا سيما تراجم الذين نبغوا منهم في سن مبكرة فتكون نماذج من المثل العليا يسير على غرارها الشباب سواء في التضحية كان أم في الايمان والجد والوطنية والاقدام، والتراجم بطبيعتها كما يقول الفيلسوف المشهور كارليل أشمل الموضوعات نفعا وأعمها لذّة ومتعة للنفوس ولا سيما تراجم الممتازين الا فذاذ والكتب الموضوعية في هذا الموضوع كثيرة نذكر منها على سبيل المثال اعلام المقتطف ورجال المال والاعمال واساطين العلم الحديث غير ان الاساذ احمد قاسم جودة أحسن صنعا باختياره هذا الموضوع وجعله على عطاء الشباب اي ان يكون جميع اصحاب التراجم التي في الكتاب قد بلغوا اوج مجدهم في سن الشباب بالكرة وظلوا حياتهم موسومين بسمة الشباب واليك بعض الذين ذكرهم في كتابه وآتى على سيرهم واعمالهم : الاسكندر المقدوني وموتسارت وتوماس تشاترتون وطرفة بن العبد ومصطفى كامل وكتيس الشاعر وغيرهم وجميع الذين ترجم لهم في هذا الكتاب من رجال السياسة أو الفن أو الادب وكان يحسن ان يضم اليهم سيرة عالم او عالين من الذين نبغوا في سن الشباب امثال باسكال الذي تعلم هندسة السطوح والاجسام وهو في الثانية عشرة ونشر بحثا في « هندسة القطوع المخروطية » وهو في السادسة عشرة . ولا جراج الذي وصف بانه « اعظم عالم رياضي حي » وهو في الخامسة والعشرين ولا فوزيه الذي منح الوسام الذهبي من اكااديمية العلوم الفرنسية وهو في الثامنة والعشرين وموزلي وقد كان أحد أركان الطبيعة الحديثة وهو في السادسة والعشرين فكان قتله في جبهة الدردنيل من فواجع الحرب العامة ومن اكبر ما مني به العلم من الخسائر

رئيس التحرير وقصص اخرى

اصدره الاديب صلاح الدين ذهني . وهو طائفة من القصص العصرية المستمدة موضوعاتها من الحياة المصرية دون مبالغة او مخالفة . وامثال هذه القصص تبشر بهضة طيبة يقوم بها شباب الادباء الذين يتناولون الحياة الاجتماعية بالبحث والتحليل . ولقد قرأت قصصا كثيرة وضعها ادباء مصريون اختلفت فيها عوامل « التكوين » أو الوضع وتشعبت فيها مناحي البحث وانما قد دعيتي كلها الى الاعتراف بأن النثر العربي وإن كان قد تطور وارتقى حتى اصبح في مكتبة الكاتب المثقف ان يتخذ منه أداة لبحث معضلات الحياة والنفس الانسانية الا انه لما نزل في حاجة قصوى الى المرونة والتهذيب والصقل والثروة اللفظية . حتى يقوم بما يقوم به

النثر في اللغات الحديثة الاوربية وحتى يؤدي رسالته في الادب كاملة . فلسنا ننكر ان بعض الكتاب مما يعرضون للابحاث الاجتماعية والنفسية بنوع خاص قد يقفون قاصرين دون التعبير عما يجول بعقولهم من آراء وفكر . وبنفوسهم من نزعات ورغبات . وعما يشاهدونه في الحياة من ألوان وصور . ولن يكون « الهيكل القصصي » ممتعاً مؤثراً إلا اذا صب فيه الكاتب المعنى القوي العميق واستطاع ان يطوِّع له اسلوباً رصيناً لا يعتوره ضعف او قصور . وأحب ان اثبت في هذه المجالة ان هذه القصص تستمد شيئاً غير قليل من نفسية المؤلف كما انها لا تخلو في مواضع كثيرة من أثر قراءته للقصة الاوربية . ولست اعني هنا التقليد فالمؤلف قد ترك هذه المرحلة وانما اعني انه يستضيء في ابحاثه الاجتماعية بالمنحى الخاص الذي يعرض له ادياء القصة في الادب الاوربي . والقصة في الادب الفرنسي مثلاً تعرض للاخلاق في شيء كثير من التفصيل والابضاح وتعرض للحياة الزوجية في شيء غير قليل من العناية الخاصة . انها تعالج الاجتماع في شتى صوره وأوضاعه . واما القصة في الادب الروسي فتفتح امام القارئ ميادين كثيرة للبحث والالهام . هي تعنى بأوضاع الحياة الانسانية وتعالج مشكلات الفقر والعمل والتعليم كما ان القصة في الادب الانكليزي قد تبحث مشكلة النسل والعناية بالطفل وتعرض في اغلب الاحيان لدرس الحياة الاجتماعية العامة . فاني لست انسى انني اذا قرأت مسرحية لـ « شو » او قصة لـ « ولز » او « هكسلي » تبينت عقب قراءتي « الفكرة » والمثل الاعلى مما يعتمد المؤلف الى إثباته لكي يخرج منه القارئ بالفائدة المرجوة . ولعلي لا أعدو الحقيقة اذا قلت ان هنالك صوراً كثيرة من الحياة المصرية بما احتوته من عادات وتقاليد قد بحثها المؤلف فأجاد بحثها . كما انه وفق الى حد بعيد في ان يتخذ من موضوع المرأة سبيلاً الى استهواء القارئ . والخيال في قصصه شيء يتركه المؤلف لطبيعة الموقف فلا يخلق منه فناً قائماً بذاته وهذا ما يطبع أسلوبه الفكري بالطابع الواقعي . ولقد ترى هذا عندما يتحدث عن الحياة حديث الرجل العادي لا حديث الفيلسوف الذي يتبينها طبقاً لمنطقه وبصيرته فهو يرسم باختصار حقائق الاجتماع ما يسر منها وما يحزن ولعل من خير ما أعجبت به قصة « حسنة » وما فيها من حوار أعاد الى ذاكرتي « التحقيق الجنائي » لصاحب يوميات نائب في الارياف وما فيه من حوار وذكريات ومواويل بلدية — ولست أحكم هنا ان كان منطق الحديث نفسه يدعو الى تكرار بعض العبارات في سياق الحوار . واذا كان هذا يطنى أو لا يطنى على الوضع الطبيعي للقصة

وبعد فالمؤلف يغبط على توجيهه السليم ولانه لا يشعر القارئ بشيء من الضجر أو السآمة وذلك لانه لا يعجز عن التجوال في مختلف الميادين وهذا ما يري له مكانة ملحوظة في الادب القصصي

حليم متري

السيد رشيد رضا أو أخاء ٤٠ سنة

تأليف الامير شكيب أرسلان — طبع بمطبعة ابن زيدون بدمشق صفحاته ٨٣٢ بقطع المقتطف
«وبعد هذا فلا شك في انه اذا وزن عمل كل من اعيان هذا العصر بل من اعيان كل
عصر كان السيد الامام محمد رشيد رضا من أرجحهم ميزاناً وأوفاهم قسطاً لا يجحد ذلك الا من
رانت عليه الضلالة او اعماه الغرض . واني لاجد نشر مناقبه والتنويه بقدره والاشادة بحسناته
الكثيرة والانارة لبراهينه الساطعة من عزائم الله الموجبة وفرائضه المبرمة عملاً بقوله تعالى
(وزنوا بالقسطاس المستقيم) هذا مضافاً الى ما كان ينشأ من الاخاء القديم والذمام المتين والرمي
عن قوس واحدة والاقتداء بامام . لا جرم اني ارى ترجحي له ديناً علي لا يجوز ان أولي به
ما دامت لي أنا مل تمسك القلم»

هذه جملة من مقدمة الكتاب تدل القارىء الكريم على منهج ما كتبه عطوفة الامير شكيب
ارسلان عن صديقه السيد الامام محمد رشيد رضا طيب الله ثراه بعد وفاته فقد سجل سيرته في هذا
السفر النفيس فأتى بترجمة حياته من قامه رحمه الله وأتى بيمض ما نظمته وكتبه عنه في حياته وبعد
مماته ونشر الكتب التي ارسلها اليه بعد ما حذف منها ما اقتضى الزمن الحاضر حذفه لاسباب خاصة
والامير شكيب علم من اعلام البيان في هذا العصر وهو آية الاخلاص والوفاء لاصدقائه
كتب سفرأ مسهباً عن المرحوم احمد شوقي بك كان له احسن الوقع في النفوس وها هو ذا
يتحف القراء بسفر اوسع في سيرة امام من ائمة الاسلام وقد قال فيه راثياً : —

مضى الذي كان فيه منتهى أملي	ومن نشدت لتعليمي وتهذيبي
ومن عن الاخذ عنه شد راحلتي	ومن للقيام إيسا دي وتأويبي
شعرت أن خلت الدنيا بمصرعه	لم يكفني طول تشريدي وتعريبي
فمن أناجيه بعد اليوم في حزني	ومن أرى به ثي وتعذيبي
وها على حجة الاسلام حين خبا	ذاك الشهاب بليلات غرايب
وها على علم الاعلام حين هوى	فلا تصادف قلباً غير منخوب
هوى وكل جبال العلم دانية	عن شأوه فهي منه كالاهذيب
ابن الذي كان ان أجرى يراعه	في اي فن اتانا بالاجيب

فالكتاب آية من آيات الوفاء وتنويه بقدر عالم كبير وصديق حميم يستحق اعجاب القراء
والعناية به والاتقاع بما حواه من سيرة طيبة وكتب خاصة نيفت على نصف صفحات الكتاب
والمعلوم ان الكتب الخاصة تكون لها منزلة ممتازة فلو نشرها المؤلف كما هي لكان لها شأن آخر.
وفي الكتاب نص المصورة الرشيدية الكامل فنوجه الانظار الى هذا الكتاب

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الثاني والتسعين

بعد عهدي بعلم الفلك : للدكتور فارس نمر باشا	٤٨٣
الليل في صحراء مصر : للشاعر المستر وليم جراي	٤٩٠
ابو العلاء المعري وفلسفة التاريخ : لعلي ادهم	٤٩١
الانسان والنبات : للدكتور محمد بهجت	٤٩٩
قصب السرعة بين الاحياء	٥٠٥
الانسان المجهول : للعلامة الكسيس كارل : تلخيص اسماعيل مظهر	٥٠٨
في الادب : للطغرائي	٥١٢
زواج الاقارب اضرار هو ام نافع : للدكتور ليفي لنز	٥١٣
الدستور والروح الوطنية في الشعر الحديث : لانيس المقدسي	٥١٥
الانسان الآلة : لفليمون خوري	٥٢٦
العبقرية والنبوغ : للدكتور شريف عسيران	٥٢٩
تفرق المجرات : حقائق الموضوع	٥٣٧
ابن سينا : بقلم منوشر مؤدب زاده	٥٤٢
الخيال المصري والاستكشاف في افريقيا : للعلازم الاول عبد الرحمن زكي	٥٤٧
الياس فياض وقصيدة النجوم : ليوسف البعيني	٥٥١
اسعد باسيلي باشا : لقولا شكري	٥٥٥
تقدم الري بمصر في العصر الحديث : لمعالي حسين سري باشا	٥٦٠
حديقة المقتطف * رولا : لالفريد دي موسيه : ترجمة فليكس فارس	٥٦٣
سير الزمان * اوربا المتوسطة والشرقية : — مرحلة التفوق الفرنسي . مرحلة السلامة المشتركة . انحلال السلامة المشتركة . خاتمة	٥٨٥

مكتبة المقتطف * تأليف المستشرقين بقلم الدكتور بشر فارس . الشعر الاندلسي . المقتبس في تاريخ رجال الاندلس لابن حيان . اخبار النجوين البصريين . مقدمة ابن خلدون . مجلة الدراسات الاسلامية . الفصول والغايات . الحلال السندسية . المعجمة العربية . القانون الدستوري . تاريخ أورطة البنادق الخامسة المشاة . نوايع الشباب . رئيس التجريروتصص أخرى . السيد رشيد رضا	٥٩٦
--	-----